

إسحاق

من وحي القرآن والسنة

تأليف

أد عقييل حسين عقييل

القاهرة

2017م

المحتويات

5	المقدّمة
28	إسحاق
28	من وحي القرآن
28	نبي الله:
90	البشرى به:
90	صلاح النبي إسحاق:
98	إسحاق غلام عليم:
105	صفات النبي إسحاق
105	1 . هبة من الله:
122	دائرة الممكن:
123	مكوّنات دائرة الممكن:
123	المتوقّع:
124	غير المتوقّع:
148	2 . إسحاق نبي:
153	3 . عليم:
203	4 . من الصّالحين:
243	أنواع الميراث:
254	أولاً: الطاعة:

258	ثانيا: الصّدق:
259	ثالثا: العدل:
261	رابعا: التبشير والتبليغ:
262	خامسا: الإنذار:
264	سادسا: التحريض:
264	سابعا: مُذَكِّر:
265	ثامنا: الإحسان:
266	تاسعا: التصدق:
267	عاشرا: التزكّي:
267	الحادي عشر: الاحترام:
268	ثاني عشر: التقدير:
270	ثالث عشر: الاعتراف:
272	رابع عشر: الاعتبار:
274	خامس عشر: الأخذ بما جاء به الرسول:
274	سادس عشر: لا فرق بين رُسله:
278	سابع عشر: أخذ النصيب من الدّنيا:
280	ثامن عشر: الفوز بالجَنّة:
282	5 . إسحاق مبارك عليه:
327	إسحاق من السُنّة

- 333 نبوته إسحاق:
- 335 الذبيح بين خلاف واختلاف:
- 340 الاختلاف حجة لإظهار الحجّة:
- 345 مؤثّرات الاختلاف (أنا، أنت، نحن):
- 352 ختان إسحاق:
- 352 معرفته ملك الموت:
- 362 وفاة إسحاق:

المقدمة

إسحاق هو ابن النبي إبراهيم عليهما الصلّاة والسّلام، وهو ابنه من زوجته سارة، وقد كانت البشارة بمولده من الملائكة لإبراهيم وسارة، لما مرّوا بهم ذاهبين إلى مدائن قوم لوط، ليدمروها عليهم لكفرهم وفجورهم، {وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ} 1 ومن ثمّ فإسحاق من أنبياء الله الصّالحين، وجعله الله رسولا نبيا ومن نسله يعقوب، ومن يعقوب جاء يوسف والأسباط.

وقوله: (أولي الأيدي والأبصار) يعني بالأيدي: القوّة، ويعني بالأبصار: أولي العقول للحقّ. وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ) قَالَ: "الْأَيْدِي: الْقُوَّةُ فِي الْعَمَلِ، وَالْبَصَرُ: فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ" 2

وقال النّحاس: الأبصار فمتّفق على تأويلها أنّها البصائر في الدّين والعلم. وأمّا الأيدي فمختلف في تأويلها، فأهل التفسير يقولون: إنّها القوّة في الدّين. وقوم يقولون: هم أصحاب النعم والإحسان.

وقد ذكر الله تعالى سيدنا إسحاق عليه السّلام بالصفات الحميدة وجعله نبيا ورسولا، وبرّاه من كلّ ما نسبه إليه الجاهلون، وأمر الله قومه بالإيمان به كغيره من الأنبياء والرّسل، وقد مدح رسول الله نبي الله إسحاق وأثنى عليه عندما قال: (إنّ الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم). فهؤلاء الأنبياء الأربعة الذين مدحهم رسول الله هم أنبياء متناسلون.

¹ ص 45.

² حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 4، ص 284.

وقد دع إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام إلى دين الإسلام وإلى عبادة الله وحده، وأوحى إليه بشريعة مبنية على الإسلام ليبلغها ويعلمها الناس، وقد أرسله الله تبارك وتعالى إلى الكنعانيين في بلاد الشام وفلسطين الذين عاش بينهم، وقد قيل: إن إبراهيم عليه السلام أوصى ابنه إسحاق ألا يتزوج إلا امرأة من أهل أبيه فتزوج إسحاق رفقة بنت ابن عمه، وكانت عاقراً لا تنجب فدعا الله لها فحملت فولدت غلامين توأمين أحدهما اسمه العيص، والثاني يعقوب وهو نبي الله إسرائيل.

وقد ذكر الله تعالى إسحاق بصفة غالبية عليه بأنه (غلام عليم)، جعله الله نبياً يهدي الناس إلى فعل الخيرات، ومنه كانت ذرية أنبياء بني إسرائيل في ابنه يعقوب عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

والقرآن الكريم لا يذكر غير ومضات سريعة عن قصة إسحاق صلى الله عليه وسلم، حيث كان ميلاده حدثاً خارقاً للعادة يصل حد المعجزة كون أمه عقيماً، وقد بشرت به الملائكة وورد في البشري اسم ابنه يعقوب عليهما الصلاة والسلام قال تعالى: {وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} 3.

وقد، جاء ميلاده بعد سنوات من ولادة أخيه إسماعيل، أي أن إسماعيل هو الأكبر بدليل قوله تعالى: {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ

نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ {4.

وهو دليل أيضا على أنّ الذبيح هو إسماعيل صلى الله عليه وسلم.

ولقد قرّ قلب (سارة) بمولد إسحاق بن إبراهيم عليهما الصلّاة والسّلام، غير أنّنا لا نعرف كيف كانت حياة إسحاق، ولا نعرف بماذا أجابه قومه، وكلّ ما نعرفه أنّ الله أثنى عليه نبيا من الصّالحين، قال الله تبارك وتعالى: {وَبَشَرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ {5.

فإسحاق هو الولد الثاني لإبراهيم عليهما الصلّاة والسّلام، الذي بشرت به الملائكة.

وقد قيل: إنّ عمر إبراهيم مائة وعشرين سنة وكان عمر سارة تسعين سنة وقيل غير ذلك، إلا أنّ الله تعالى أشار إلى أنّهما طاعنان في السن، فإبراهيم شيخ كبير بدلالة قوله تعالى على لسان إبراهيم صلى الله عليه وسلم: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ {6.

وامراته عجوز طاعنة في السن تجاوزت مرحلة الحمل والولادة قال تعالى: {قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ {7.

4 - الصافات 103 - 113.

5 - الصافات 112 - 113.

6 - إبراهيم 39.

7 - هود 72 - 73.

ولدت كان لله مشيئة شائها بتأخير ولادة إسماعيل واسحاق عليهما
الصلاة والسلام؛ انه المؤخر لما شاء والمقدم لما شاء سبحانه لا اله الا
هو؛ الذي يؤخر ما يجب تأخيره وهو يعلم أنّ في تأخيره خير.

والمؤخر: هو الذي يملك الأمر الذي به تتم مستوجبات التقديم أو
التأخير، وهو المتصرف كما يشاء متى ما شاء، وهو العليم بمبررات التقديم
والتأخير في كل ظرف، وهو الذي تقديمه حقّ وتأخيره حقّ سبحانه محقّ
الحقّ ودامغ الباطل.

والمؤخر هو اسم فاعل من آخر في حين أنّه المصدر للتأخير، فالله عزّ
وجلّ هو الذي أوجد التأخير والتقديم وفق الأولويات بين جمع الأشياء
لحكمة لا يعلمها إلا هو، ومن أجل تنظيم هذا الكون والخلق بهذا النظام
الذي أبدعه الخالق سبحانه وتعالى، قال عزّ وجلّ: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ
الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} وَأَيَّةُ هُمْ اللَّيْلُ
نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ بَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ
تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا
الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ} 8، ومن أجل تسهيل حياة الخليفة الذي أراده الله تعالى منذ
البداية أن يكون مقيما في الأرض، راعيا لها قال سبحانه وتعالى: {وَإِذْ
قَالَ رَبِّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ
يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي
أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ
فَقَالَ أُنَبِّئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا
مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا

⁸ يس 36 .40.

أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ {9.

والمؤخر المطلق بحكمته المطلقة آخر خلق المخلوقات بعضها عن
بعض، فأخر خلق الإنس عن الملائكة والجن، فقد آخر خلق آدم عليه
السلام على خلق الملائكة والجن وبالرغم من تأخير خلقه عنهم إلا أن
الله تعالى قدّمه عليهم بتفضيله عنهم، ذلك أن المولى عزّ وجلّ حمّله
الأمانة التي أبت الأرض والجبال أن تحملنها، وهذه الأمانة هي
استخلاف الإنسان في الأرض، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا {10.

ولكن الله هو المؤخر عن علم وليس لإهمال أو تقصير ممّا يتنافى مع
قدرة الخالق المطلقة بل هو المؤخر لتحكمه في تقدير الأمور، والمؤخر
المطلق هو المقدر الوحيد لموعد الخلق والموت والميلاد والحساب والرزق
وغيرها فكل أمور الخلق بمواعيد مسبقة ومقدرة من المؤخر ولا حول ولا
إرادة للإنسان في ذلك، فلا يد للإنسان فيما قدر الله من أمور عظيمة
تأتي على الخلق دون علم أو معرفة، قال تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا
تَسْتَقْدِمُونَ {11، فيوم الحساب يوم عظيم وعلى الإنسان أن يكون
متيقنا من قدومه بدون أن يعرف توقيت وقوعه لأنّ ذلك من علم الغيب
الذي لا يطلع الله عليه أحد من خلقه، بل يأتي على غفلة من الإنسان
الذي سبق أن حذره الله تعالى من وقوعه، فيكون مجيء هذا اليوم على

⁹ البقرة 30 .33.

¹⁰ الأحزاب 72.

¹¹ سبأ 29، 30.

ضعف وغفلة من الإنسان وعلى علم وقوة من الله عز وجل، فمهما كان الإنسان على درجة كبيرة من العلم أو من المقرّبين إلى الله فإن ذلك الموعد يبقى خافيا عليه ويبقى من أسرار الغيب، فالرسول كان هو المصطفى من عباد الرحمن الذي اختاره الرحمن ليبلغ آخر رسالاته السماوية وبالرغم من ذلك فإنه كان خافيا عليه علم وقوع الساعة، قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لِوَفْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلْتِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 12، فالعلم المطلق للأشياء وموعد وقوعها هي عند الله تعالى، لا يطلع عليه أحد من الخلق في الأرض أو في السماء.

المؤخر: هو الذي أصدر أمر الخلق مسبقا على من خلق، وآخر الحساب والعقاب والثواب عن الأعمال، وآخر الأفعال عن الأقوال، وآخر علم الغيب عن المعرفة على كل ما خلق.

والمؤخر هو المقدم بما له من مطلق الأمر في الخلق والإرادة والسيطرة الكاملة، وإذا كان الله تعالى مؤخرا فليس معنى ذلك أنه قد يترك عباده سدى دون عقاب أو ثواب مهما طال الزمن أو قصر عليهم، فهو المؤخر وهو الرقيب مع تأخيره وهو المهيمن بحكمته في تأخير الأمور، فلا يترك عباده ولو طال الوقت دون محاسبة أو يهمل الخلق بسبب تأخير يوم الحساب.

قال سبحانه وتعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} 13، وقال كذلك: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عُلُقَةً فَمَحَلَقٌ

¹² الأعراف 187.

¹³ إبراهيم 42.

فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الرُّوجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} 14، في الآية الكريمة السابقة يربط الله بين إقرار وقوع يوم الحساب وبين عملية الخلق والرابط هنا هو القدرة المطلقة لله، وهذا يلغي أي تبرير أو حجة للمذنب في حق الله وحق نفسه بتقصيره في الطاعات والعبادة، فقد أمهله الخالق ليعمل ويصلح لكنه آخر إصلاحه وخيره لوقت لا ينفع فيه الندم أو التحسر على ما فات من الوقت، وكذلك الكافر والجاهل كان لديه متسع من الوقت ليرجع إلى الله فيؤمن به ويعود لكن الكثير منهم سرقهم الوقت وشغلتهم الدنيا وغرهم الشيطان فلم يعرفوا الحق إلا في اليوم الذي لا فائدة تعود عليهم فيه، قال تعالى: {يَوْمَ يُثُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءًا إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا} 15.

وقد يتساءل البعض: لماذا لم يكن من صفات الله تعالى المؤجل؟

الله عز وجل بتأخيره لبعض الأمور وفق حكمته المطلقة، يكون مؤجرا ولا يكون مؤجلا ولا لاغيا، لأن اللاغى للذنب أو الخطأ تتجلى فيه صفة العفو الغفور، فالله بصفته يلغي لنا أخطاءنا ويبدلها حسنات إذا توافرت فيه الشروط التي تجعل هذا الإنسان ضمن من يشملهم الله تعالى بهاتين الصفتين وهي التوبة الصادقة والندم على ما ارتكبه من ذنب واتباع السيئة الحسنة.

وفي اسم المؤخر رسالة لكل الخلق لكنها تُفهم على طريقتين، قال تعالى: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ

¹⁴ القيامة 36 . 40.

¹⁵ النبأ 38، 40.

حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا}16، ليس من صفات الله المؤجل لأن التأجيل لا يتم إلا بمشاركة آخر فيه، فمثلا إذا كان مقررا أن ينعقد اجتماع بين رئيسك في العمل وبينك ويتم تأجيل هذا الموعد، فإن هذا التأجيل يحدث بالاتفاق بينك وبين رب العمل على إلغاء الموعد المحدد للاجتماع واستبداله بموعد آخر متفق عليه بينكما، ولهذا في التأجيل المشاركة والله واحد أحد لا شريك له، إما في التأخير أمر ذاتي يتعلق بالواحد. وما نسميه بالتأخير على المستوي البشري أو الخلقى، هو في حقيقته بأسباب المشاركة دائما، فعندما يتأخر التلميذ عن الوصول في الموعد المناسب للمدرسة فإن وراء ذلك أسباب منها المواصلات أو الحوادث أو الطبيب بأسباب المرض أو الوالدين بأسباجهما، أو الأخوة وفي جميعه بأسباب المشاركة، أما الله المؤخر لا شيء يؤخره عن أن يفعل ما يشاء أن يفعله متى ما شاء وكيفما يشاء.

وبما أنّ الله تعالى لا يشاركه أحد في إرادته وحكمه، إذ أنه فعّال لما أراد إذن هو المؤخر المطلق بتأخيره ما يشاء، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾17، فقدوته على فعل أي شيء متى أراد هي التي تؤخر وتقدم ما تريد، فالتأخير للأمر لا يكون إلا ممن بيده الأمر كله أوله وآخره، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾18 أما من كُتِب عليه الأمر فلا يملك تقديم هذا الأمر أو ذلك أو تأخيره، لأنه لا يملك أمر (كن)، قال تعالى: ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾19، فالمؤخر بالإضافة هو الذي يدرك الأهداف والغايات من وراء كل عمل يقدم

16 الفرقان 70، 71،

17 المائة 120.

18 النحل 40.

19 سبأ 30.

عليه ويجدد لهذه الأعمال المواعيد المحددة التي تساعد في تحقيق أهدافها المرجوة.

وما نلاحظه أنّ ما وصلنا عن نبي الله إسحاق في القرآن الكريم لم يصل إلى درجة التفصيل كما هو الحال مع بعض الأنبياء مثل موسى وسليمان وعيسى صلى الله عليهم وسلّم، وإتّما كانت إشارات منها:

أنّه البشري، قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا، جَعَلْنَا صَالِحِينَ} 20

موحى إليه: قال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا} 21

أنّه غلام عليم، قال تعالى: {قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ} 22

أنّه من الصالحين، قال تعالى: {وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ} 23 والصّلاح هو منتهى الصفات الحميدة التي لا يشوب صاحبها فساد رأي أو اعتقاد لذلك مدح الله تعالى أنبياءه وعباده بهذه الصفة، وقد، جاء في تعريفها اللغوي أنّ: "الصّلاح ضدّ الفساد صلح يصلح ويصلح صلاحا وصلوحا، وهو صالح وصلح والجمع صلحاء وصلوح وصلح وصلحون، ورجل صالح في نفسه من قوم صلحاء ومصلح في أعماله وأموره وقد أصلحه الله وربّما كنّا بالصّالح عن الشيء الذي هو

20- الأنبياء 72.

21 البقرة 163.

22 الحجر 53.

23 الصافات 112.

إلى الكثرة كقولهم هي مطرة صالحة، وهذا الشيء يصلح لك والإصلاح
نقيض الإفساد والمصلحة الصّلاح والمصلحة واحدة المصالح والاستصلاح
نقيض الاستفساد وأصلح الشيء بعد فساده أقامه".

فالصّلاح فضيلة يتحلى صاحبها بـ:

التوحيد

الإيمان

العقيدة

الأخلاق

وعليه جعل الله تعالى إسحاق عليهما، فكان العلم صفة ملازمة له لأنّها
من تمام النبوة التي لا ينفك عنها العلم بحال من الأحوال، وهذا العلم هو
علم نسبي إلى علم الله تعالى، ومع ذلك فعلم الأنبياء وما، جاؤوا به عن
الله تعالى إنما هو أصل العلم ولا يمكن أن يُدرك بالعقل دفعة واحدة، وإتّما
يكتسب، فبعضه:

. بالنقل عن النبوة كونه وحيا أوحاه الله إليهم بواسطة، جبريل عليه
السّلام

. أو كلام يكلم به رسوله بغير واسطة كما كلم موسى صلّى الله عليه
وسلم

. أو يوحى الله بإذنه ما يشاء لمن يشاء

فعلم النبوة يختلف عن علم البشر كون الأنبياء صفوة الخلق فلا شكّ
أنّ علمهم صفوة العلم، وإن كان الإنسان يمتلك علما في إدارة شؤونه
الخاصة في الحياة ناتجا عن تجربته وتجارب أجيال سابقة عليه، فهو يتفاعل

مع الحياة ومشكلاتها والكون وأسراره، ولكنه بحاجة إلى من يرشده إلى طريق الحقّ ويبيّنه سبل الهداية ونور اليقين وصولاً إلى الفطرة السليمة التي فطر الله تعالى عليها خلقه.

فإسحاق كان العلم صفة من صفاته ومما خصه الله به في إبراز هذه الصفة دون غيرها من الصفات الكثيرة التي يتميز بها الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم، وقد أبرز الله تعالى أهم صفة من صفات النبوة في إسحاق صلّى الله عليه وسلّم، فهو لم يصفه بالعلم مثل (عالم) حتى يتبين الفرق بين العلم وبين من يحمل العلم أو، جزءاً منه، فوصفه بأنّه عليم بعلمه وكليته ولكن الغاية ليست الشخص نفسه، وإنما الغاية التي يريد أن يؤكد عليها أن قضية العلم هي أساس القضايا دقيقها وجليلها في مسألة النبوة، وكلّما كانت القضية عظيمة احتاجت إلى علم يوازيها في العظمة من أجل إنجازها، وهذا العلم الذي يجب أن يوازي القضايا ويكافئها لا بدّ أنّ له مصدر يستقى منه، وهذا المصدر هو العلم الذي مصدره الله تعالى لذلك وصفه بأنّه عليم بما علمناه من العلم وحياً أو تدريجاً:

إذ أنّ العقل البشري لا يقوى وحده على إدراك سنن الكون كاملة

لا يقدر بوعيه المحدود على فهم خبايا هذا الكون من الوجود

إذا فهم الحياة فإنه يحتاج من يفهمه معنى ما بعد الحياة

إذا فهم علم الظاهر فهو، جاهل ليفهم علم الباطن

من يفهم من علم الوجود فقد لا يفهم علم الغيب

ولهذا، فقد وهب الله لإسحاق خيراً كثيراً وفضلاً عظيماً بما علّمه من علم النبوة الذي تنبثق عنه مناهج الهداية التي حملها الوحي إليه، ومن هذا المنهج تعلم علمه.

وعليه: فقد أمدَّ الله سبحانه وتعالى إسحاق بمنهج قويم ومسلك أمين هو العلم الذي يدلّه على سبيل الهدى وطرق الرشاد وصولاً إلى الفوز المبين بما رزقه من علم النبوة المتوارث حيث قال تعالى: {فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ} {24}.

العلم يُوَدِّي إلى البينة

البينة تُوَدِّي إلى الإيمان

الإيمان يُوَدِّي إلى الاستقامة

الاستقامة هي الطريق السوي

الطريق السوي هو سنة الله لعباده

هذه السنة أو القوانين الإلهية تفتح أمام العقل آفاقاً

فالعلم يعني الإيمان اليقيني بالسنن الربانية التي تحكم الكون كلياً (في دائرة الغيب المطلق لله تعالى).

لقد وهب الله تعالى إسحاق لإبراهيم وهباً دون مقابل رحمة منه تعالى لأنّه هو الوهاب الذي يعطي الهبة، وقد جاء في لسان العرب: "وهب في أسماء الله تعالى الوهاب، الهبة العطية الخالية عن الأعواض والأغراض، فإذا كثرت سمي صاحبها وهّاباً، وهو من أبنية المبالغة. غيره الوهاب من صفات الله المنعم على العباد والله تعالى الوهاب الواهب وكلّ ما وهب لك من ولد وغيره فهو موهوب والوهوب الرّجل الكثير الهبات، وهب لك الشيء يهبه وهباً ووهباً بالتحريك وهبة والاسم الموهب والموهبة بكسر الهاء فيهما ولا يقال وهبكه، وأنه سمع أعرابياً يقول لآخر انطلق

معى أهبك نبلا، ووهبت له هبة وموهبة ووهبا ووهبا إذا أعطيته، ووهب الله له الشيء فهو يهب هبة، وتواهب الناس بينهم وفي حديث الأحنف ولا التواهب فيما بينهم ضعة يعني أنهم لا يهبون مكرهين، ورجل واهب ووهاب ووهوب ووهابة أي كثير الهبة لأمواله والهاء للمبالغة، والموهوب الولد صفة غالبية وتواهب الناس وهب بعضهم لبعض والاستيهاب سؤال الهبة واتهب قبل الهبة واتهبت منك درهما افتعلت من الهبة والاتهاب قبول الهبة"25.

ولذا فإنّ الوهّاب المطلق: هو الغلابّ المطلق، الذي لا يقدر على مغالته أحد ولو اجتمع الثقلان بشأنه. فهو الغالب بجهاته ألاّ محدودة، وعطاياه المتنوعة، وحسناته المتعددة، وغفرانه للذنوب، وعفوه وتكفيره عن السيئات والخطايا. إنّ الذي يهب الحكمة والحكم، والعلم والرزق، وكلّ شيء لمن يشاء. ومع أنّه يعطي كلّ ذلك إلا أنّ البعض يكفر به ويُشرك.

قال تعالى: { رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ } 26. في هذه الآية الكريمة مطلب المؤمن من ربه لأنّ يُثبت قلبه على الإيمان ولا يجيده عنه، ومع أنّ هذه الآية سابقة على أيام الردة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنها إلا وكأنها تحتويها حيث العلاقة بين ما تدل عليه وبين الذين زاغت قلوبهم بعد الإيمان من بعد موت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، كان هذا الدعاء في أفواه المؤمنين حتى لا تضعف النفوس وتدخلها الظنون، فانتشر بين المؤمنين هذا الدّعاء لله الوهّاب الذي يهب الرحمة على من يشاء دون منّة ولا انتظار مقابل.

25 - لسان العرب، ج 1، ص 803

26 آل عمران، 8.

وإزاحة القلوب تعني: ميلها وحيادها عن الحقّ، فالبعض بعد موت الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه وُلُو وارتدُّوا إلى ما كانوا عليه من شرك وكُفْر، أي أنهم انحرفوا عن الطريق المستقيم وعادوا إلى الطريق المعوج. ولأنّه طريق معوج فهو في حاجة للإصلاح ممّا جعل أبوبكر يسلك نهج الإصلاح وتقويم الأمور حتى لا يعم الفساد وتعود الأحوال إلى ما كانت عليه من ظلمة وجهالة.

وفي قوله (وهب لنا من لدنك رحمة) تضرع دعائي غائي يأمل به المؤمن أن تعمّه الرّحمة هبة من الله تعالى. وذلك لإيمان الداعي بأنّه تعالى هو واسع الرحمة مصداقا لقوله تعالى: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} 27.

فهب لنا، تعني: أمنحنا وارزقنا عطاء من غير حساب يا من ترزق من تشاء من غير حساب. ومن (لدنك، تعني) من عندك أي من مُلكك ورحمتك الواسعة التي تنعم بها على من تشاء من عبادك.

وقوله (إنك أنت الوهاب) تأكيد على أنّه لا وهّاب غيره، أي لا معطي غيره بدون قصد وغاية أو منة؛ وتدل على الرغبة الشديدة في الدعاء والالتجاء إليه وتؤكد على عدم قصد الغير (إنك أنت) ولا سواك. فأنت الوهاب: واسع العطاء والفضل لمن يدري ولمن لا يدري سبحانه لا إله إلا أنت الوهاب.

عن أم سَلَمَة رضي الله عنها، أنّ النبي كان يقول: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ثمّ قرأ الآية" 28 (ربّنا لا تُرغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب).

27 غافر، 7.

28 سنن الترمذي، ج 13، ص 21..

والموهوب من العباد هو الذي له صفات وملكات متنوعة ويجيد أو يحسن التصرف فيها، ممّا يجعله متميزاً على أقرانه أو متميزاً في جيله. يدرك معطيات الأمر ويحلل متغيراته ويستنتج الصواب في الزمن الصواب، ويعمل بمهاراته المتنوعة على إظهاره من فكرة إلى موضوع ليشغل به حيزاً ويملاً به فراغاً حتى يستمده الآخرون من بعده.

وبما أنّه موهوب، إذن فمن ورائه وهّاب، وإلا من أين جاءت المواهب، ولذا فالوهاب مصدر الهيبة التي جاءت في اللغة من المصدر يهب. ولأنّه الوهاب فهو يهب لمن يشاء ما يشاء، ممّا يجعله هو الآخر يهب من ما وهب إليه الوهاب الأعظم. ولهذا فالإيهاب صفة حسنة استمدت من الوهّاب المطلق حتى أصبحت قيمة بين المستخلفين من العباد في دائرة الممكن غير المتوقع.

قال تعالى: {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنٌ رَّحْمَةٍ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ} 29 في هذه الآية جاءت (أم) استغرابية استفهامية لأجل الرد استهزاء على ما يقوله المشركون من كبائر ويفعلون، فما هي حجة هؤلاء فيما يقولون على الله ورسوله وأيضاً فيما يقولونه عن آلهتهم التي اتخذوها أرباباً من دون الله تعالى وهي من تراب ولا روح فيها، حيث لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تحس ولا تفرح ولا تغضب؟

ولهذا فإنّ إسحاق نبي بشري حيث أنّ الملائكة الكرام بشرت به إبراهيم قبل أن يخلقه الله تعالى بأنّ جعله نبياً، قال تعالى: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ} 30 فهو نبي بشري.

29 ص، 9، 10.

30 - الصافات 112

وقد منّ الله تعالى على إبراهيم بأن جعل نبي الله إسحاق هبة لإبراهيم حيث قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} 31.

إنّ من تكريم الله تعالى لإبراهيم فضلا عن اصطفائه ورسالته ونبوته، فقد جعل في ذريته النبوة والكتاب، فكان وهب الله تعالى أن رزقه إسحاق ليكون نبيا وهبا لإبراهيم قال تعالى: {فَلَمَّا اعْتَزَّهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا} 32 فقد جعل إسحاق نبيا، ثمّ من بعد ذلك استحقّ الإنباء فكان نبيا، والنبي موحى إليه بما يشاء الله لعباده من التوحيد والصّلاح والخير، ولذا؛ فالنبي ينبي بما نُبيء به من عند الله تعالى.

إسحاق نبي من أنبياء الله تعالى بدلالة النصوص القرآنية، وهو وإن كان نبيا، فإنما هو مبعوث بشريعة أبيه إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم، لأننا نجد يوسف بن يعقوب صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين يقول: {وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} 33.

وهذا يدلّ على أنّه ليس بالضرورة أن يكون لكلّ نبي كتاب ورسالة، وإنّما يبعث أنبياء كثيرون برسالة واحدة، فقد أنزل الله تعالى على إبراهيم الصحف التي بلغها إلى الناس وقد عمل على تبليغ هذه الصحف وملة إبراهيم جميع أبنائه من إسحاق إلى يوسف، حتى بعث الله تعالى موسى وأنزل معه التوراة.

31 - العنكبوت 27

32 - مريم 49

33 - يوسف 38

ثم إنَّ الرسالة السماوية وإن تعددت كتبها وصحفها، فإنَّ جوهرها وحقيقتها واحدة لأنَّها من الواحد الأحد، ولذلك جمع الله تعالى ما أنزله على أنبيائه ورسله باسم واحد لهذه الدلالة حيث قال تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ} 34 أن الله ذكر بعث النبيين وأنهم جاءوا بالبشارة والندارة وأنزل معهم الكتاب، وطالما أنهم يحملون التبشير والإنذار والكتاب، فهم مكلفون بالتبليغ، والتبليغ لا يكون إلا من رسول أو نبي، وإسحاق بلَّغ أبناءه وقومه بما أمر به الله تعالى من صحف إبراهيم وملة إبراهيم.

إنَّ الأنبياء صلَّى الله عليهم وسلّم أجمعين يأتون بأشياء من أمور التفصيل في الحلال والحرام، أو يقودون الناس ببلاغ ووحى من الله سبحانه وتعالى.

وعلى هذا فالذين فرقوا بين النبي والرسول يقولون: إن الرسول هو من جاء بشرع جديد إلى قوم كافرين، والنبي هو من بُعث بشريعة رسول قبله ليحدثها أو معه ليلبغها، ويحيي معالمها، فهذا مأمور بالبلاغ الجديد المستأنف لقوم كفار، وهذا مأمور بالبلاغ للمؤمنين الذين ينتمون إلى شريعة سابقة، ولكنهم غيروا وبدلوا وضلوا وانحرفوا.

إنَّ الله تعالى بعث الأنبياء لكي يكونوا حملة الخير والصَّلاح للنَّاس، ولما كان الإنسان بطبعه يرى الخير والصَّلاح من زاوية المنفعة والفائدة التي تعود عليه وما زكَّب به من شهوات النفس وميلوها وهواها فإنَّ الخير والصَّلاح ينظر إليه بشكلٍ جزئيٍّ يضر بالآخرين، لذلك كانت الأنبياء هي الوسيلة التي تضع النَّاس على المحجَّة البيضاء والنبي دليل البشر إلى

المعرفة الله تعالى ومراده تعالى للوصول إلى السعادة والخير، فالنبي هو الوساطة الذي يبعثه الله تعالى إلى عباده.

إنّ الإيمان بالنبوة هو عملية تواصل بين الله تعالى وبين المجتمع الإنساني عن طريق الأنبياء، وذلك من خصائص الدين الحقّ، والنبي هو الإنسان الذي يختاره الله ليقوم بأداء رسالة معينة، وقد وجدت مذاهب كثيرة تؤمن بالله وتنكر النبوات، وتزعم أنّه لا حاجة لوجود النبي؛ لأنّ ما أتى به الأنبياء موافق للعقل، ففي العقل غنى عنه، أو مخالف له فلا حاجة لنا به، والعقل عندهم طريق الاستدلال.

غير أنّ الذي نردّ به على هؤلاء أنّنا لا نستطيع بالمنطق التجريبي والرياضي التوصل إلى حقائق ما وراء المادة والغيبيات، وبذلك يكون العقل قاصرا عن أداء ما يرجون منه في هذا الجانب، ولذا وجب بعث الأنبياء ضرورة للإخبار بما يغيب عن العقل أو أنّ العقل قاصر على إدراكه بنفسه، ولذا فالعلم الصحيح من هذا الجانب في ذات الله وما يكون بعد الموت من أوصاف الآخرة والحساب ونيل الجزاء من ثواب وعقاب، وكلّ ما يتعلق بعالم الغيب، فلا يستطيع العقل إدراكه بفرده لأن ذلك لا يعرف إلا عن طريق الأنبياء.

إنّ قضية النبوة لا يمكن أن يحلّ محلها العقل المنطقي أو الفلسفي، ولا يستطيع هذا العقل مهما أوتي من ذكاء وحجّة أن يكون بديلا أو يأتي بديل عن الخطاب الديني، لأنّه إذا حكّمنا معايير العقل النظري في الخطاب الديني فلا مناص من هذا التناقض بين الاثنين، لأنّ عالم الغيب والإلهيات التي يتحدث عنها الدين، لا يمكن أن تختبر على صعيد العقل الفلسفي والمنطق الوضعي، ومن هنا وجب الأخذ بضرورة الفصل والتمييز بين الخطابين، (الخطاب الديني والخطاب العقلي المحض). ومع الاعتراف بشرعية كلّ من الخطابين في مناقشة القضايا، وجب أيضا

ضرورة ألا تحاكم أيّ قضية إلا في صورة معايير النسق الذي تنتمي إليه. ومن ثمّ فالإيمان بالغيب قضية صادقة على صعيد العقل النقلي الذي أتى عن طريق النبوة، ولا يمكن أن تنطبق معايير العقل الفلسفي على هذه القضايا لقصوره تجاهها.

والنبوة ليست محصورة بنبي محدد، وإنما هي ظاهرة موجودة عند جميع الأقسام والأمم قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} 35.

والنبوة تثبت بالمعجزة، وهناك شهادات لا يمكن الطعن فيها على وجود هذه المعجزات، ومن ثمّ لا مهرب لنا من قبولها. فإذا سلمنا بذلك، فتلك هي بداية شرعية الخطاب الديني الذي قُبل على أساسه. فإذا سلمنا بشرعية هذا الخطاب فعلينا فيما بعد ألا نحكمه إلا في ضوء المعايير التي يقدمها.

فالنبوة صفة جليلة قائمة على العلم والحكمة والمعرفة، ولا يمنحها الله تعالى إلا لأصفيائه من خلقه ممن تميزوا بنقاء الفطرة، وصفاء السريرة، ونفاذ البصيرة مع العناية الإلهية به والفضل الرباني عليه كون النبي من صفوة خلق الله تعالى.

ولذا، نجد يعقوب بن إسحاق بدلالة النبوة أنه يعلم من الله تعالى ما لا يعلمه غيره ويؤكد على ذلك في أكثر من موضع، فقد قال: {قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 36.

ولذا؛ فقد خصّ الله تعالى أنبياءه وعباده المقربون بهذا الوصف فقال في حقّ عيسى صلى الله عليه وسلم: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ

35 - فاطر 24

36 - يوسف 86

يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ {37}.

إِنَّ عَيْسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

كَلِمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى

وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

مِنَ الْمُقَرَّبِينَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى

مَكَلَّمٌ لِلنَّاسِ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا

فكَلَّ واحدة من هذه الصفات من العظمة والشرف بمكان، ومع ذلك
فقد ختم الكلام بما وصفه به أن جعله من الصالحين وعليه:

فإنه لا رتبة أعظم من كون المرء صالحاً لأنه لا يكون كذلك إلا ويكون
في جميع الأفعال من الأوامر والنواهي مواظباً على:

النهج الأصح

الطريق الحقّ

السبيل الرشيد

وهذا النهج هو صلاح الدين والدنيا لأنه يتناول جميع أفعال الجوارح
والقلوب، ومن الملاحظ في كثير من الآيات التي تتكلم عن الأنبياء عليهم
الصلاة والسلام، تذكر بعض التفاصيل عن صفاتهم ثم يردف ذلك
بالصلاح الذي يدل على أرفع الدرجات.

³⁷ - آل عمران 45-46

وعليه فإنّ الله تبارك وتعالى، بارك على إسحاق وجعله ذا بركة، والبركة زيادة الخير في مختلف وجوهه، وقد جعلت البركة فيه يجعل الله تعالى، إذ قدر أن يكون مباركا ومثابا ومحصلا على خير فيما كلفه الله به من النبوة، والمبارك من الله تعالى، تتعدى بركته إلى من حوله ومن جاوره أو جلس معه.

إنّ البركة والمبارك عند الله بمكان، لما يجمع المبارك من خصال الخير والفضائل، ومن هنا فقد وصف الله تعالى القرآن الكريم بهذا الوصف حيث قال تعالى: { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } 38.

فمن نعمة هذا الوصف أو من يتصف بها، أنّ المتصف بالبركة، تفيض صفته على الآخرين، ولذا فالقرآن الكريم من البركة أنّ الذي ينظر في المصحف له أجر النظر من بركة القرآن الكريم.

وإسحاق لما كان مباركا عليه من الله تعالى، فالبركة تغمره في جميع أحواله وأعماله لأن المبارك من باركه الله:

. حيث جعله ذا بركة.

. بارك فيه جعل البركة معه.

والبركة هي الخير واليمن، وأيّ بركة أعظم من النبوة التي بارك الله بها على إسحاق وجعله رحمة للناس يدعوهم إلى التوحيد والفضائل ومكارم الأخلاق.

ثم إنَّ الذي تحلَّ البركة فيه من الله سبحانه وتعالى تكون بركته لغيره عظيمة، فقد قال الله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ} 39.

لقد وصف الله تعالى البيت الحرام بأنه مبارك، فمن بركته وشرفه أن جعله الله تعالى قبلة للمسلمين ومتعبدا للناس، وأودع الله سبحانه وتعالى البركة فيه، وهو مكان هداية الناس بالحج والاتباع إليه في الصلاة.

ومن بركته أن جعل الله حلول الناس فيه سببا للتوبة والمغفرة، ولهذا إذا نزل إنسان يحمل وزن الدنيا من الخطايا وتاب إلى الله تعالى، عاد كيوم ولدته أمه وانفتح قلبه للإيمان والحكمة بما ينعكس عليه من بركته.

والبركة للإنسان أو المكان إذا جعلها الله له تكون:

. بركة عليه.

. وبركة فيه.

. وبركة له.

. وبركة حوله.

والبركة كثرة الخير ونماؤه طالما أنه باركه الله، قال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} 40.

فالبركة من الله تعالى هي الخير والنماء في الأمور كلها، ولكن الوصف بها له متعلقات من المعاني التي تؤدِّي غرضها منها:

39 - آل عمران 96

40 - النمل 8

. المبارك: إنما يتعلق به ما كانت البركة حاصلة منه للغير في زمانه أو مكانه، قال تعالى: { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ } 41.

. وأما باركه: فيتعلق به ما كانت البركة صفة له قال تعالى: { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ } 42.

. بارك عليه: من جعل البركة متمكنة منه، قال تعالى: { وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمَنْ ذُرِّيَّتَهُمَا مُحَمَّدًا وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ } 43. والحمد لله رب العالمين.

أد عقيل حسين عقيل

القاهرة 2017

41 - ص 29

42 - آل عمران 96

43 - الصفات 113

إسحاق

من وحي القرآن

إسحاق نبي الله:

إسحاق هو ابن إبراهيم خليل الرحمن من زوجته (سارة)، وقد كانت البشارة بمولده من الملائكة لإبراهيم وسارة لما مروا بهم مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط ليدمروها عليهم لكفرهم وفجورهم، حيث قال تعالى: { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ فَرَأَى إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحَفْ وَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } 44.

وقد ذكر الله تعالى إسحاق بصفة غالبية عليه بأنه (غلام عليم)، جعله الله نبيا يهدي الناس إلى فعل الخيرات، ومنه كانت ذرية أنبياء بني إسرائيل في ابنه يعقوب عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

والقرآن الكريم لا يذكر غير ومضات سريعة عن قصة إسحاق صلى الله عليه وسلم، حيث كان ميلاده حدثا خارقا للعادة يصل حد المعجزة كون أمه عقيما، وقد بشرت به الملائكة وورد في البشري اسم ابنه يعقوب عليهما الصلاة والسلام قال تعالى: { وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ } 45.

44 - الذاريات 24-30

45 - هود 71.

وقد، جاء ميلاده بعد سنوات من ولادة أخيه إسماعيل، أي أنّ إسماعيل هو الأكبر بدليل قوله تعالى: { فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ } 46.

وهو دليل أيضا على أنّ الذبيح هو إسماعيل صلى الله عليه وسلم.

ولقد قرّر قلب (سارة) بمولد إسحاق بن إبراهيم عليهما الصلّاة والسلام، غير أنّنا لا نعرف كيف كانت حياة إسحاق، ولا نعرف بماذا أجابه قومه، وكلّ ما نعرفه أنّ الله أثنى عليه نبيا من الصّالحين، قال الله تبارك وتعالى: { وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ } 47.

فإسحاق هو الولد الثاني لإبراهيم عليهما الصلّاة والسلام، الذي بشرت به الملائكة.

وقد قيل: إنّ عمر إبراهيم مائة وعشرين سنة وكان عمر سارة تسعين سنة وقيل غير ذلك، إلا أنّ الله تعالى أشار إلى أنّهما طاعنان في السن، فإبراهيم شيخ كبير بدلالة قوله تعالى على لسان إبراهيم صلى الله عليه وسلم: { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ } 48.

46 - الصافات 103 - 113.

47 - الصافات 112 - 113.

48 - إبراهيم 39.

وامراته عجوز طاعنة في السن تجاوزت مرحلة الحمل والولادة قال تعالى: {قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ} 49.

وفي موضع آخر من القرآن الكريم تخبر هي عن نفسها أنّها عقيم لا تنجب حيث قال تعالى: {فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَّةٍ فَاصْتَوَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ} 50.

فقد قدمت قولها: (عجوز) أي أنّها طاعنة في السن خارج إطار الإنجاب قياسا للنساء اللاتي ينجبن ضمن سن معينة، فإن كانت هي من هؤلاء اللواتي يحملن ويضعن وينجبن الذرية فقد تداركها السن ودخلت مرحلة امتناع الحمل.

ثمّ أضافت أنّها (عقيم) فهي قد خبرت نفسها من خلال كونها عجوز، فأصدرت الحكم بعد التجربة، لأنّها مرّت في المرحلة التي تكون النساء فيها ذوات أحمال، ومع ذلك لم تحمل ولم تلد، وعندما أصبحت عجوزا وهذا حالها أصدرت الحكم على نفسها بأنّها عقيم.

ولذا، استدرك الملائكة عليها ذلك العجب الذي صدر اتّجاه البشري بإسحاق بقولهم: (أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ)

وهنا كان لله مشيئة شائها بتأخير ولادة إسماعيل وإسحاق عليهما الصلوة والسلام؛ انه المؤخّر لما شاء والمقدّم لما شاء سبحانه لا اله الا هو؛ الذي يؤخر ما يجب تأخيره وهو يعلم أنّ في تأخيره خير.

49 - هود 72 - 73.

50 - الذاريات. 29.

والمؤخر: هو الذي يملك الأمر الذي به تتم مستوجبات التقديم أو التأخير، وهو المتصرف كما يشاء متى ما شاء، وهو العليم بمبررات التقديم والتأخير في كل ظرف، وهو الذي تقديمه حق وتأخيره حق سبحانه محق الحق ودامغ الباطل.

والمؤخر هو اسم فاعل من آخر في حين أنه المصدر للتأخير، فالله عز وجل هو الذي أوجد التأخير والتقديم وفق الأولويات بين جمع الأشياء لحكمة لا يعلمها إلا هو، ومن أجل تنظيم هذا الكون والخلق بهذا النظام الذي أبدعه الخالق سبحانه وتعالى، قال عز وجل: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} وَأَيُّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ بَحْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} 51، ومن أجل تسهيل حياة الخليفة الذي أراده الله تعالى منذ البداية أن يكون مقيماً في الأرض، راعياً لها قال سبحانه وتعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} 52.

51 يس 36 . 40.

52 البقرة 30 . 33.

والمؤخر المطلق بحكمته المطلقة آخر خلق المخلوقات بعضها عن بعض، فأخر خلق الإنس عن الملائكة والجن، فقد آخر خلق آدم عليه السلام على خلق الملائكة والجن وبالرغم من تأخير خلقه عنهم إلا أن الله تعالى قدّمه عليهم بتفضيله عنهم، ذلك أنّ المولى عزّ وجلّ حمّله الأمانة التي أبت الأرض والجبال أن تحملنها، وهذه الأمانة هي استخلاف الإنسان في الأرض، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} 53.

ولكن الله هو المؤخر عن علم وليس لإهمال أو تقصير مما يتنافى مع قدرة الخالق المطلقة بل هو المؤخر لتحكمه في تقدير الأمور، والمؤخر المطلق هو المقدر الوحيد لموعد الخلق والموت والميلاد والحساب والرزق وغيرها فكل أمور الخلق بمواعيد مسبقة ومقدرة من المؤخر ولا حول ولا إرادة للإنسان في ذلك، فلا يد للإنسان فيما قدّر الله من أمور عظيمة تأتي على الخلق دون علم أو معرفة، قال تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ} 54، فيوم الحساب يوم عظيم وعلى الإنسان أن يكون متيقنا من قدومه بدون أن يعرف توقيت وقوعه لأن ذلك من علم الغيب الذي لا يطلع الله عليه أحد من خلقه، بل يأتي على غفلة من الإنسان الذي سبق أن حذره الله تعالى من وقوعه، فيكون مجيء هذا اليوم على ضعف وغفلة من الإنسان وعلى علم وقوة من الله عزّ وجلّ، فمهما كان الإنسان على درجة كبيرة من العلم أو من المقرّبين إلى الله فإن ذلك الموعد يبقى خافيا عليه ويبقى من أسرار الغيب، فالرسول كان هو

53 الأحزاب 72.

54 سبأ 29، 30.

المصطفى من عباد الرحمن الذي اختاره الرحمن ليلبغ آخر رسالاته السماوية وبالرغم من ذلك فإنه كان خافيا عليه علم وقوع الساعة، قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 55، فالعلم المطلق للأشياء وموعد وقوعها هي عند الله تعالى، لا يطلع عليه أحد من الخلق في الأرض أو في السماء.

المؤخر: هو الذي أصدر أمر الخلق مسبقا على من خلق، وآخر الحساب والعقاب والثواب عن الأعمال، وآخر الأفعال عن الأقوال، وآخر علم الغيب عن المعرفة على كل ما خلق.

والمؤخر هو المقدم بما له من مطلق الأمر في الخلق والإرادة والسيطرة الكاملة، وإذا كان الله تعالى مؤخرا فليس معنى ذلك أنه قد يترك عباده سدىً دون عقاب أو ثواب مهما طال الزمن أو قصر عليهم، فهو المؤخر وهو الرقيب مع تأخيره وهو المهيم بحكمته في تأخير الأمور، فلا يترك عباده ولو طال الوقت دون محاسبة أو يهمل الخلق بسبب تأخير يوم الحساب.

قال سبحانه وتعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} 56، وقال كذلك: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَحَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُجِيبِيَ الْمَوْتَى} 57، في الآية الكريمة السابقة يربط الله بين إقرار وقوع يوم

55 الأعراف 187.

56 إبراهيم 24.

57 القيامة 36 .40.

الحساب وبين عملية الخلق والرابط هنا هو القدرة المطلقة لله، وهذا يلغي أي تبرير أو حجة للمذنب في حق الله وحق نفسه بتقصيره في الطاعات والعبادة، فقد أمهله الخالق ليعمل ويصلح لكنه آخر إصلاحه وخيره لوقت لا ينفع فيه الندم أو التحسر على ما فات من الوقت، وكذلك الكافر والجاحد كان لديه متسع من الوقت ليرجع إلى الله فيؤمن به ويعود لكن الكثير منهم سرقهم الوقت وشغلتهم الدنيا وغرهم الشيطان فلم يعرفوا الحق إلا في اليوم الذي لا فائدة تعود عليهم فيه، قال تعالى: {يَوْمَ يُنْفَخُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءَ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا} 58.

وقد يتساءل البعض: لماذا لم يكن من صفات الله تعالى المؤجل؟

الله عز وجل بتأخيره لبعض الأمور وفق حكمته المطلقة، يكون مؤخرا ولا يكون مؤجلا ولا لاغيا، لأنّ اللاغبي للذنب أو الخطأ تتجلى فيه صفة العفو الغفور، فالله بصفته يلغي لنا أخطاءنا ويبدلها حسنات إذا توافرت فيه الشروط التي تجعل هذا الإنسان ضمن من يشملهم الله تعالى بهاتين الصفتين وهي التوبة الصادقة والندم على ما ارتكبه من ذنب واتباع السيئة الحسنة.

وفي اسم المؤخر رسالة لكل الخلق لكنها تُفهم على طريقتين، قال تعالى: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَىٰ اللَّهِ مَتَابًا} 59، ليس من صفات الله المؤجل لأن التأجيل لا يتم إلا

58 النبأ 38، 40.

59 الفرقان 70، 71،

بمشاركة آخر فيه، فمثلا إذا كان مقررا أن ينعقد اجتماع بين رئيسك في العمل وبينك ويتم تأجيل هذا الموعد، فإنّ هذا التأجيل يحدث بالاتفاق بينك وبين ربّ العمل على إلغاء الموعد المحدد للاجتماع واستبداله بموعدٍ آخر متفقٌ عليه بينكما، ولهذا في التأجيل المشاركة والله واحد أحد لا شريك له، إما في التأخير أمر ذاتي يتعلق بالواحد. وما نسميه بالتأخير على المستوي البشري أو الخلقى، هو في حقيقته بأسباب المشاركة دائما، فعندما يتأخر التلميذ عن الوصول في الموعد المناسب للمدرسة فإن وراء ذلك أسباب منها المواصلات أو الحوادث أو الطبيب بأسباب المرض أو الوالدين بأسبابهما، أو الأخوة وفي جميعه بأسباب المشاركة، أمّا الله المؤخر لا شيء يؤخره عن أن يفعل ما يشاء أن يفعله متى ما شاء وكيفما يشاء.

وبما أنّ الله تعالى لا يشاركه أحد في إرادته وحكمه، إذ أنه فقال لما أراد إذن هو المؤخر المطلق بتأخيره ما يشاء، قال تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 60، فقدوته على فعل أي شيء متى أراد هي التي تؤخر وتقدم ما تريد، فالتأخير للأمر لا يكون إلا ممن بيده الأمر كله أوله وآخره، قال تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} 61 أما من كُتِبَ عليه الأمر فلا يملك تقديم هذا الأمر أو ذلك أو تأخيره، لأنه لا يملك أمر (كن)، قال تعالى: {قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ} 62، فالمؤخر بالإضافة هو الذي يدرك الأهداف والغايات من وراء كل عمل يقدم عليه ويحدد لهذه الأعمال المواعيد المحددة التي تساعد في تحقيق أهدافها المرجوة ومنها.

60 المائة 120.

61 النحل 40.

62 سبأ 30.

1. المفهوم الصحيح:

إنّ هذه الرسالة تصل إلى عقل وقلب الخليفة بالشكل الصحيح الإيجابي، إذ أن تأخير الله تعالى للأشياء لا يكون عن غفلة أو عن نسيان بل يكون عن خبرة وعلم مطلقين بمقادير الأشياء ومواقبتها التي يجب أن تكون فيها، ووضعها في المواضع الصحيحة لها، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ} 63، وكذلك قوله تعالى: {وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقذُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ} 64، وأيضا قوله تعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} 65.

فيستشعر الإنسان في هذا التأخير رحمة المؤخر به وحبه، لأن يكون لدى الإنسان الوقت الكافي للطاعة والإصلاح فيسير في الأرض بالشكل الذي يرضي الله، فيزرع الخير أينما سار، وينشر الحب في كل جهات الأرض الذي به تعمر النفوس وتقترب إلى خالقها تطلب رضاه، بذلك يرفع درجته عند الله، قال تعالى: {الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ هُمُ عِقبَى الدَّارِ جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ

⁶³ سبأ 28 .30.

⁶⁴ يس 43، 44.

⁶⁵ الزمر 42.

وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ {66}، هذا جزء من قرأ رسالة الله قراءة صحيحة فوصلت لقلبه وقلبه في الوقت المناسب فأحسن الخالق له جزاء إحسانه، فقد آخر هذا الخليفة كل حب في قلبه إلى ما وراء حب المؤخر فأخر عنه الله كل شر.

وهناك نوع آخر من الخلق يتأخرون في فهم الرسالة التي يضمنها هذا الاسم، وهم المذنبون الذين يقضون جزءا من أعمارهم في فعل ارتكاب الذنوب والمعاصي لكن يأتي اسم المؤخر وما يحمله من فرص لهؤلاء المذنبين للتوبة والرجوع للحق والعودة لما فيه خيرهم وصلاحهم، فيقبل الخالق توبتهم، ويصلحون حالهم بإنقاذها من عذاب الحريق، قال تعالى: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {67}، وقال تعالى أيضا: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ} {68}، فرحمة الله تعالى بعباده كما جاءت في الآية الكريمة السابقة على ثلاث مراحل هي:

الرحمة الأولى: تتمثل في تأخير اليأس من رحمة الله تعالى عن القلوب النادمة والإسراف في تأنيب النفس والغرق في بحر الحسرة والندم، وكذلك بقبول التوبة من المذنبين ومغفرة ما قدموا من سوء يصل بصاحبه إلى

⁶⁶ الرعد 20، 24.

⁶⁷ الأنعام 54.

⁶⁸ الزمر 53، 56.

العذاب المهين، فتأتي رحمة الله تعالى بفتح باب التوبة أمام هؤلاء المذنبين زارعة الأمل في قلوبهم بالنجاة من النار وسوء المصير، فتبدأ الرحمة بقبول التوبة أصلاً، ولولا ذلك لما كان الغفران للذنوب.

فما من قلبٍ يستطيع أن ينتعش الأمل فيه دون أن يشعر بأن هناك باباً قد يُفتح له إذا طرقه بالشكل الصحيح وفي الوقت الصحيح، عندها لن يتأخر هذا الإنسان عن طرقة وهذا الشعور هو من رحمة الله بنا يزرعه فينا فلا نكون فريسة اليأس الذي يقودنا إلى أشنع النهايات.

والرحمة الثانية: هي تأخير أخذهم بالعقاب الفوري لدى ارتكابهم للذنوب مفسحاً لهم الوقت للرجوع للحق، فالمؤخر المطلق قادر على تسليط العقاب الفوري على الإنسان لكنه يؤخر ذلك رحمة به، وقد سبق أن أخذ أقواماً سابقة بالعقاب الفوري لشدة كفرهم وليأخذوا عبرة مما أصابهم ويكونوا برهاناً لقدرة الخالق على الانتقام فنصل بذلك التحليل إلى رحمته مع امتلاك القدرة في التأخير، قال تعالى: {كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذْرِي إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذْرِي وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذْرِ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَاحِدًا تَبِعُهُ إِيَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٍ أُولِئِى الدِّكْرِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ سَيَعْلَمُونَ عَدَا مِنْ الكَذَّابِ الأَشْرُ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ المَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرِبَ مُحْتَضِرٌ فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذْرِي إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ {69، فتأخير الله تعالى قد يكون عن حلم أو عن صبر، فصفة الله المؤخر تحمل بين طياتها صفة الحليم، فقد يؤخر المولى عز وجل العقاب مع العفو

⁶⁹ القمر 18 . 32.

والغفران له فيكون بذلك حليماً، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ
التَّقْيِ الْجُمُعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ
إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ} 70، وقد يؤخر الله العقاب على الذنوب مع بقائها
فيكون الله صبوراً، فصفة الصبر عند الله لا تحمل غفران الذنب والعفو
عن مرتكبه بل تحمل التأخير فقط، قال تعالى: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ فَمَا
لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ إِنَّهُ لَقَوْلٌ
فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهْلِلِ الْكَافِرِينَ
أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا} 71.

الرحمة الثالثة: تتمثل في توضيح الصورة التي ستكون عليها حالتنا يوم
الدين، وهذا من شأنه أن ينزل الخوف والرهبة في قلوب المذنبين، فقد
صوّر لنا المؤخر الحال الذي سيكون عليه الغافلون، فيأتي تحذيره عزّ وجلّ
رحمة للبشر، ففي التحذير من الشيء لفت لنظر الغافل والجاهل لما كان
لاهيا عنه فيتوقف عند هذا التحذير مستشعرا حاله يومئذ فيرجع عما
كان فيه ويعود للحقّ، فمع وجود العقل البشري وقدرته على التمييز
والاختيار أمكن للإنسان استيعاب الدروس واستنباط العبر التي تعود
بالفائدة على الإنسان بنجاته من الهلاك المحقق بسيره في طرق الضلال
وعدم استعمال العقل كما أراد الخالق عزّ وجلّ له أن يُستعمل، فلقد
بُعِثت الرسل والأنبياء للتبشير والتحذير فأين من ذلك المكذبين؟. قال
تعالى: {فَدَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الدِّكْرَى سَيِّدَكُرٌّ مَنْ يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى
الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى} 72.

70 آل عمران 155.

71 الطارق 9.

72 الأعلى 9.

فالجهل لا يبقى جهلا مع وجود الوقت الكافي للمعرفة التي من شأنها أن تعود بصاحبها للحق وطريق الهداية، فينقلب من الخاسرين إلى الفائزين، فتكون رحمته عز وجل قد تجلت في تأخيره أخذ هؤلاء بالعقاب الفوري لوقوع الذنب، فمن رحمة المؤخر عز وجل أنه لا يقدم عقابه عن الذنب الذي يرتكبه الإنسان، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: "يَقُولُ اللَّهُ إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا فَإِنْ عَمِلَهَا فَكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي فَكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا فَكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ" 73، ما أروع رحمة الله بعباده وما أروع حبه لهم مع قدرته عليهم وضعفهم وقلة حيلتهم، بل أنه لا يعاقبه عليه في حين وقوع الذنب، إذ أنه يؤخر ذلك مانحا المذنب فرصا عديدة للرجوع للصواب والحق، فما أعظم هذا الخالق القادر الكريم، ولو أن كل كافر أو جاحد تأمل في هذا الاسم مستدركا ما فيه من محبة وود من المولى عز وجل لهم ما ابتعدوا عن رحمته وطلب رضاه.

2 . المفهوم الخاطيء:

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِمَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} 74، ويتكون هذا المفهوم لدى الكافرين والمتكبرين عن نعم الله تعالى ومنها تأخيره العذاب الفوري لهم مع قدرته على ذلك، إذ أنهم يتمادون في تكذيبهم وطغيانهم بحجة عدم وقوع الساعة كما سبق أن كذبت الأقسام السابقة، قال سبحانه وتعالى: {وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ

⁷³ صحيح البخاري، ج 23، ص 20.

⁷⁴ يونس 7، 8.

إِلَىٰ رَبِّي لِأَجْدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا} 75، وقال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} 76، فتأخير الله تعالى ليوم الدين وتأخيره العقاب جعلاً من الكافر والجاحد أكثر تمادياً وطغياناً ظناً منهما بما أن الموعد غير محدد فإن الساعة لن تقوم، ولو أن الكافر فهم رسالة المؤخر له لأدرك مدى حرصه عزّ وجلّ على نجاته من عذاب الجحيم ولكان استفاد من وقته بما ينفعه في يوم لا ينفع الإنسان إلا عمله الذي هو المسؤول عنه أمام الله تعالى، قال عزّ وجلّ: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا هَٰذَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بَأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسَ أَشْتَاتًا لِيُرَوَّا أَعْمَاهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} 77، والفهم الخاطئ لهؤلاء الكفرة لا يصل بهم إلى الاقتناع بأن حتى هذا التأخير له نهاية وموعد محدد في علم الله، فموعد لا يعلمه إلا واضعه عزّ وجلّ، قال تعالى: {وَكَذَٰلِكَ أَخَذُ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجْلِ مَعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَفَعُوا فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيْقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٍ} 78، أي أن هذا التأخير لا يكون بلا نهاية بل

⁷⁵ الكهف 35، 36.

⁷⁶ سبأ 3.

⁷⁷ الزلزلة 1. 8.

⁷⁸ هود 102 . 108.

إنَّ له نهاية آتية لا محالة بأجل محدد ووقتٍ معين هما في علم الغيب عند العزيز الجبار المالك لكل شيء، لا يقع هذا الموعد إلا في الوقت الملائم له والمفروض له وقوعه حسب علم وحكمة الله تعالى.

وخليفة الله بالإضافة هو من أحسن قراءة هذه الرسالة وأحسن الاستفادة منها، فكان همه لقاء الخالق محبا ودودا له عاملا من أجل رضاه فيكون له البشرى يوم اللقاء العظيم، متيقنا أن هذا اليوم قائما في أية لحظة لا يمسه عنا إلا المؤخر ولا يؤخره عنا إلا الرحيم ولا يرحمنا إلا ودا ومحبةً بنا، فلا يسرّ تسل في الاتكال على الوقت لتصلح ما أخطأ فيه ولا يسير في الدنيا لاهيا عن موعد الساعة، فيسير بين الناس بتذكيرهم بذلك إذا تناسوا وبتحذيرهم من مباحة هذا اليوم إذا أهتتهم الحياة الدنيا بالسعي وراء الكسب المادي ومغرياتهما العديدة.

وفي اسم المؤخر عدة صفات ينطوي عليها منها:

المؤخر هو القادر:

تتجلى قدرة الخالق في تأخير ما يشاء من الأمور بعلمه المطلق، وبما أنه القادر على التأخير فهو بالتالي يملك القدرة على تقديم ما يشاء من الأمور، فهو القادر على قيام الساعة وقتما يشاء، والقادر أيضا على تأخيرها وتقديمها، وهو الذي يملك القدرة أيضا على الإماتة والإحياء، وتأخير هذا الأمر عن ذلك، قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُجِيبَ الْمُوتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 79.

وخليفة الله بالإضافة عليه أن يكون قادرا على تأخير حب الدنيا وتأخير شهوات نفسه عن حب المولى عزّ وجلّ، وأن يكون مؤخرا لكل

⁷⁹ الأحقاف 33.

مفسدة أو ضلال على قدر استطاعته، سواء كان بقوته أو بعقله أو بقلمه، فالمفاسد والشور كثيرة مبعثرة في الكون، لذلك كان لزاما على خلفاء الله بالإضافة أن لا يكونوا مؤخرين لإصلاحهم حسب قدراتهم التي وهبها الله تعالى لهم، قال تعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} 80.

فإذا كان الخليفة بالإضافة قادرا على إفادة الآخرين من علمه فلا يتأخر بذلك العلم عن أحد، فالعلم إذا لم يُستفاد منه يبقى كالمياه الراكدة، ولكن إذا عمت الفائدة كل من حوله تحركت هذه المياه وشرب منها الجميع واستفاد، وبذلك سيستشعر الخليفة بالسعادة، لأن السعادة شعور منعكس من الآخرين علينا.

المؤخر هو الحليم:

الله هو الحليم المطلق الذي لا يمكن أن يصل أحد من المخلوقات إلى درجة حلمه، لأنه مع حلمه عزّ وجلّ يملك القدرة المطلقة للتصرف ويملك القوة المطلقة للانتقام والعقاب ويملك الإرادة المطلقة للتغير والتبديل، وحلمه المطلق عزّ وجلّ لا ينحصر في عباده المتقين بل إنه يشمل جميع الخلق، فهو لا يمنع فضله ورحمته ورزقه عن جميع عباده بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، بل إنه يعطي العاصي كما يعطي المطيع، ويمنع عن الجاحد المرض والأضرار كما مع المحسن، لكنّ الفرق بين العبدین أن العاصي والجاحد يتأخر في فهم هذا الحلم وهذا الصبر، فيبقى غافلا لا يذكر فضل الحليم ونعمه عليه، على عكس العبد المطيع والمحسن الذي لا يتأخر عن شكره عزّ وجلّ وحمده وطاعته.

والحليم المطلق لا يمكن أن يستفزه الغضب ولا جهل الجاهلين، فهو الحليم المتأني ذو الصفح مع امتلاكه للقوة الكافية للرد والانتقام، لكن حلمه يؤخر عقابه وعذابه رحمة وحكمة منه بعباده أجمعين، فنحن نشاهد بأعيننا الدليل على ذلك إذ أنه بالرغم من عصيان وجحود الكفرة إلا أنه لا يمنع عنهم نعمه من رزقٍ وصحة ونعم كثيرة يتقبلون فيها دون صحوة منهم يلتفتون فيها إلى مصدر وسبب ذلك كله، لكن صبر الكريم وحلمه يجعله يؤخر عقابه لهم فور صدور ذنوبهم ممهلاً إياهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ 81.

وعلى خليفة الله بالإضافة أن يكون متصفاً بصفات الحليم المطلق، فلا يأخذه الغضب بعيداً عن الحلم والصبر والتأني، وأن يكون مؤخراً لعقابه ورده إذا أمكن ذلك حتى ولو كان يمتلك السلطة والقوة للقيام بذلك، وإذا كان لا بدّ من تنفيذ عقوبة ما فإنه من الحلم عدم تجاوز الحد، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ وَجِزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنِ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ 82، فما أروع الصبر على الأذى على ألا يكون ذلك لضعفٍ أو خوف بل مع امتلاك القوة للرد والانتقام.

والخليفة بالإضافة هو الصابر على أذى من حوله راجياً أن يكون بحلمه رادعاً لهم عن ذلك، معطياً لهم درساً في روعة الصبر ونبيل الحلم عند الإنسان ولنا في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أفضل قدوة

⁸¹ فاطر 45.

⁸² الشورى 39 . 43.

وأروع مثل، فقد كان لا يأخذه الغضب عند شدائد الأمور ولا يتهور في الرد على من عاداه، بل كان متأنياً صبوراً في حكمه فكان حكيم الرأي صائب النظرة بعيد النظر، قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} {83}، فمن شأن الحلم أن يزرع في القلب الرحمة والمودة واللين، وأن يؤخر عنه القسوة وحب الانتقام، وهذا بدوره ينشر بين الناس العفو عند المقدرة، والرحمة، والتسامح.

المؤخر هو الرحيم:

المؤخر صفة من صفات الرحمة بالخليفة فما آخره الله إلا لإعطائه الفرصة للتوبة من ذنوبه والرجوع عن أخطائه وهذا التأخير إنما هو خير للعباد، لأن الله يريد بهم الصلاح لهم في الدنيا والآخرة ولا يريد أن تضيع أعمالهم بالوقوع في المعاصي والأخطاء، فيؤخر عنهم العقاب على ما اقترفوه من ذنوب ومعاصي فلا يعاجلهم به حتى يتيح لهم الفرص لمراجعة ومحاسبة أنفسهم قبل أن يأتي الحساب الكبير فيكون لهم ذلك زيادة في الرحمة والخير، قال تعالى: {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى} {84}، فالعقوبة على المعاصي مقررة أصلاً على العصاة ولكن المؤخر عز وجلّ يمسكها عنهم، لسببٍ عظيم وهو أن المؤخر رحيم وحليم بعباده حتى العصاة منهم، لأن الله تعالى خلق العباد ليرحمهم لا ليعذبهم، فجاء تأخير العقاب ليستغفروا من ذنوبهم ويتوبوا إلى خالقهم العظيم، قال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ

⁸³ آل عمران 159.

⁸⁴ طه 129.

يَسْتَعْفِرُونَ} 85، فرحة الله تسبق عقابه وانتقامه وتنفيذ عقوبته على من يستحقها.

وهذا التأخير يكون في حق كل البشر المؤمن منهم وغير المؤمن وهو لكل خير ورحمة، ورحمته واضحة جلية في اسم المؤخر، ففي التأخير رحمة لكل الناس بكافة أحوالهم:

للمؤمن التقي بمنحه المزيد من الوقت لنيل الحسنات التي ترفع درجته عند خالقه، بالزيادة في عمل الطاعات وما أمر الله به، قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنَّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} 86، ومثل قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} 87، فيصل بذلك إلى استحقاقه لخلافة الله تعالى في الأرض، وبهذه الخلافة يكون قد فاز الفوز العظيم.

فيكون تأخيره للمؤمن المطيع هو من باب المحبة والرحمة.

* للمذنب الفرصة للعودة عما كان فيه والتوبة الصادقة التي قد يقبلها المؤخر ويغفر له، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَمَى الْجُمُعَاتِ إِنَّمَا اسْتَرَاهُمُ الشَّيْطَانُ بَعْضُ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

85 الأنفال 33.

86 البقرة 261، 262.

87 التوبة 20 . 22.

حَلِيمٌ} 88 فإذا أخذ الله كل إنسان بذنبه في حين وقوعه لما بقي على الأرض من أحد، فالإنسان بطبعه كثير الزلات والأخطاء، وهو مخلوق على القوّة من جهة إذا ما قورن بغيره من الخلائق، ومخلوق على الضعيف إذا ما وضع نفسه في غير محلها في مقارنة مع الخالق ، وهنا يقع فريسة للشيطان فيوقعه في المفسد والذنوب، لكنّ المؤخر عزّ وجلّ عليم بما ينفع الإنسان ورحيمٌ به، فأمهله الوقت لتصليح ما اقترف والاستغفار عن ذنوبه، فالحياة الدنيا دار ابتلاء وامتحان يصعب عبورها دون الوقوع في إحدى مفترق طرقها أو منحياتها، قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} 89، فطوبى لمن أفاق من غيبوبة الدنيا قبل أن يغشاه عذاب يومٍ عظيم لا ينفع فيه تحسر ولا ندم، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} 90، وقال تعالى أيضا: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} 91.

إذن فالمؤخر عزّ وجلّ لم يعاقب العصاة من المسلمين على معاصيهم ذلك لأنه رحيمٌ بهم ودود يتودد إلى عباده مع غناه عنهم وعن عبادتهم وتعذيبهم، قال تعالى: {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} 92، فالعباد هم الفقراء إلى حلمه وعفوه، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ

88 آل عمران 155.

89 آل عمران 13.

90 البقرة 222.

91 الشورى 25.

92 النساء 147.

وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ { 93 فالمؤخر هو من خلق
الفرص للخلق ومنحها لهم مبينا لهم فائدتها، وآخر عقابه حتى يرجعوا عن
عصيانهم، ويصححوا مسلكهم ويكون التصحيح عن طريق تعديل
وتصليح المعلومات الخاطئة التي تتعمق داخل عقل الإنسان منذ بداية
نشأته فتبع ذلك وقوعه في الخطأ، لذلك فقد فتح المؤخر بتأخيره أبوابا
من الفرص لإعمال الإنسان عقله في تدبر ما حوله وتحليل ما يحصل معه
وحوله فيرجع عن الخطأ، وبذلك ينجو هذا المذنب من دائرة عقاب
القوي القادر برحمته عز وجل في تأخيره، فالمؤخر لا يظلم أحدا، قال
تعالى: { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ
لِّلْعَبِيدِ } { 94، وكذلك قوله تعالى: { ذَلِكُمْ بِمَا قَدَّمْتُمْ يَدَاكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ
بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ } { 95، فيدخل بذلك دائرة من هداهم الله ورضي عنهم،
قال عز وجل: { جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ } { 96.

* للعاصي العودة للحق وترك الضلال الذي كان يتخبط فيه، ونحن
نلاحظ في أيامنا هذه تزايد أعداد الذين يعتنقون الدين الإسلامي تاركين
ما كانوا عليه من ضلال وجهل، فكان في تأخيرهم لهذا الوقت خير لهم
ومنفعة، ومنهم من يتمادى في كفره وجحوده بالله تعالى فلا يلتفت إلى
ما فاته في الدنيا إلا حينما يقف بين يدي المولى عز وجل، فقد كان
مواليا لغير الخالق مشغولا عن التفكير بالحق متأخرا في الوصول إلى النور،
قال تعالى: { وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ
مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ

⁹³ فاطر 15 . 17.

⁹⁴ فصلت 46.

⁹⁵ الحج 10.

⁹⁶ البينة 8.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَعْصِي بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ {97.

من مظاهر الرحمة:

أ- تأخير غضبه وعقابه للعباد إلى ما بعد إرسال الرسل مبشرين ومنذرين وموضحين وهادين بأمرٍ من المؤخر المطلق، بتبليغ أوامر الله ونواهيه كي لا يكون للناس حجة على الله، فلا يعذب الله ولا يعاقب قوما إلا بعد إقامة الحجة والدليل بإرسال الرسل والأنبياء، قال تعالى: {رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} {98، وقال تعالى أيضا: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {99، حتى أن رحمة المؤخر تشمل من كان مذنبا بجهل، فيؤخر عقابه إلى أن يصله العلم الكامل بما فعله، قال تعالى: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ} {100، وقال تعالى أيضا: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ} {101.

ب- ادّخار الرحمة لعباده ليوم الحساب العظيم، فكل ما في الأرض من رحمة ما هي إلا جزء واحد من رحمة الله تعالى وادخر مؤخرا لعباده يوم

97 الأحقاف 32 .34.

98 النساء 165.

99 الأنعام 48.

100 النحل 119.

101 الأنعام 54.

القيامة جزاء ليغفر بها إساءة المسيئين ويعفو عنمن يشاء من المذنبين
ويقبل شفاعة الأنبياء والصالحين والشهداء، والله تعالى يغفر جميع
الذنوب إلا الشرك بالله، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ
مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا} 102،
وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ
يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} 103.

ج - قبول شفاعة الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وتأخيرها إلى يوم
الحساب الكبير، وبذلك يخرج كل من شفع فيهم رسول الله عليه الصلاة
والسلام من عذاب النار إلى جنة النعيم.

وخليفة الله بالإضافة هو من يستغل وقته فيما يرضي الله تعالى، فيسارع
في الخيرات ويؤخر مشاغل الدنيا عن ذلك، فلا يكون همه إلا كسب
رضا الخالق وحبه، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ
وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ
مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ
وَهُمْ هَٰكَذَا سَابِقُونَ} 104، فمن شأن اسم المؤخر أن يجعله مسارعا في
الخيرات داعيا لها لا أن يجعله مهملا مضيعا لعمره سدى لا فائدة تُرجى
منه.

د- للمؤخر الحمد والشكر لتأخيره التكليف الشرعية وإلزام الناس بها،
ومجازاتهم عليها عقابا أو حتى ثوابا إلى ما بعد أن يبلغ الإنسان سن
البلوغ والرشد، فيكون في ذلك الوقت قد أصبح العقل قادرا على التمييز
بين الصواب والخطأ ليصل بذلك إلى التمييز بين الحلال والحرام وإدراك

102 النساء 48.

103 النساء 116.

104 المؤمنون 57 . 61.

الحكمة من ما هو مفروضٌ علينا تنفيذه تجاه الخالق عزّ وجلّ، لأنّ العقل البشري في تلك السن يكون قد بدأ القدرة على التحليل والتدقيق والربط والاستنتاج ليخرج بذلك بقرارات لما عليه فعله والمنهج الذي سيسلكه سواء كان في دائرة الإيجاب أو في دائرة السلب، وبذلك يكون متحملاً المسؤولية على قيامه بما قام به من أفعال وأقوال، فتزول بذلك حجته على الله تعالى بأنه مسيرٌ في ذلك، وأنه قام بها دون وعي أو إدراك لعواقبها نتيجة عدم وجود ما يدلّه على الخير والصواب.

فكانت رحمة المؤخر بنا أنه لم يعاقب من كان دون سن الرشد، أو من وصل إليها ولكنه فقد عقله بمرضٍ، فمن هنا كان خطاب المؤخر للعقل البشري متكرراً ومتعددًا لأنه هو الذي يقود صاحبه إلى الفوز أو الخسارة بإتباع المولى أو بإتباع الشيطان، فالعقل هبة من الله تعالى لقدرته على استخراج مكامن المفاهيم، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾¹⁰⁵، فمن كان عقله مشغولاً بالتدبر والتأمل والتحليل بالتأكيد سيصل إلى النور وسيبصر الحقّ المائل أمامه، وسيدرك الخالق العظيم الذي خاطبه وأرشده إلى الهدى، أم من كان عقله متأخراً في تدبره وتأمله تأخر في الوصول إلى الحقّ أو إنه لن يصل إليه، فمثل تلك العقول تكون سهلة الوقوع تحت سيطرة الشيطان الرجيم فيقودها إلى الظلام فيفقد العقل البشري إمكانياته وقدراته التي تصاب بالشلل والعمى فتكون الخسارة هي نصيبه في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

¹⁰⁵ الرعد 16.

عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا
ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ
خَلْقًا جَدِيدًا أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ
أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا
كُفُورًا {106}.

وفي تأخير الله تعالى لسن البلوغ إلى مرحلة النضج واكتمال العقل
تأخير لأمرين هما:

* تأخير بعض الحاجات التي تنشأ في نفس الإنسان بعد وصوله إلى
سن البلوغ، مثل الحاجة إلى الزواج والرغبة في النساء وهذه من الشهوات
التي فطرنا المولى عزّ وجلّ على حبها والتعلق بها، ولكنه برحمة التأخير لها
فيينا يتأخر تأجج هذه الشهوة إلى سن النضج واكتمال العقل الذي
يعمل على الموازنة والتعقل، فتكون بذلك هذه الشهوة تحت سيطرة
العقل وإرادته الكاملة، فيتمكن هذا البالغ من تسييرها كما يشاء،
والتحكم فيها بكتبها عند الحاجة، فيتم بذلك توجيه هذه الرغبة في
الاتجاه الصحيح الذي أراده الخالق لها عزّ وجلّ والمؤخر لها، بذلك فإن
الإنسان واعيا مسيرًا لها فلا يقع في فاحشة الزنا التي هي من الكبائر التي
نهانا الله عنها وحذرنا من الوقوع فيها مبينا عاقبة الوقوع فيها، قال تعالى:
{وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} {107}، قال تعالى:
{الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ
فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهَدَ عَدَاؤُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنْ

106 الإسرائ 97 . 99.

107 الإسرائ 32.

الْمُؤْمِنِينَ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ {108}.

فلو أن سن البلوغ يتقدم سن اكتمال نضج العقل ووعيه الكامل بما حوله، واتساع دائرة فهمه وتحليله، لتأججت في الإنسان الشهوات وتحكمت فيه، فتقوده وتسيّره كما تريد إلى أن تصل به إلى الهلاك والضياع دون وعي منه أو إدراك ذلك لقصور عقله عن الوصول إلى مدى عاقبة هذه الفاحشة.

* وأيضا بتأخير الله تعالى للإنسان البلوغ إلى سن التعقل والرشاد آخر المؤخر بالإطلاق نظرة الآخرين من حوله إليه، فالطفل عندما يكون صغيرا يحتاج لمن يخدمه ويرعاه ويهتم بنظافة جسده وطعامه ومشربته وغيرها من الحاجات الاعتيادية للطفل، ذلك لأنه لا يمكن أن يعتمد على نفسه في تنفيذ هذه المتطلبات لقصور ملكاته العقلية وقدراته الجسدية، فكان تأخير الله تعالى للبلوغ حتى يتعدى الإنسان سن الطفولة نعمة ورحمة به وبمن حوله، فلو كان هذا الطفل باعتماده على من حوله بالغاً لتحركت فيه الغرائز الجنسية وكذلك تتحرك فيهم ممّا يجعلها قد تكون على حسابه، ولكن عملية الاهتمام الخارجي ممن حوله تسير بشكلٍ طبيعي لأنه ما يزال طفل لا يمكن أن تتحرك فيه هذه الغرائز تجاه من يعتني به من أم أو أخت أو عمّة أو خالة، وتبقى نظرهم له نظرة خالية من أي حذر أو شك.

أما إذا تعدى هذه السن لسن الرشد واکتمال العقل فيه يكون قد وصل إلى سن يمكنه الاعتماد على نفسه في تلبية احتياجاته الجسدية على الأقل، بالإضافة إلى أنّ الله قد خلق في الإنسان الحياء، فلا يستطيع

¹⁰⁸ النور 2، 3.

مع هذا الحياء أن يكشف الإنسان عن عورته أمام أحد، حتى يتم للإنسان نفسه مع تقدم السن به وتكوين خبراته في الحياة وعن طريق العلم والمعرفة أن يدرك المعاني الحقيقية للأمور ويستطيع أن يضع موازين حياته بالشكل الذي يراه.

إذن تأخير الله عزّ وجلّ لا يكون إلا لحقّ وخير، ويكون دائما سائرا وفق مصلحة المخلوق.

المؤخر هو العليم:

فهو المؤخر للأمور بعلمه المطلق والمسبق بما يصلح للعباد، وإذا تأملنا حولنا قليلا لأدركنا أن الخلق جميعا متفاوت في كثير من الأمور تقديما وتأخيرا عن بعضهم البعض منها:

. الأرزاق:

فقد يرزق الإنسان في صغره بالرزق الوفي وأحيانا لا يكون له ذلك إلا بعد تخطيه سنا متقدمة وأحيانا أخرى لا يكون له اتساع في الرزق، وكل ذلك التقديم والتأخير بين الناس هو من تقدير الله المسبق الذي يعلم ويدرك بقدرته أين الخير والشر لكل إنسان، كما وأن في تأخير الرزق وتقديمه ابتلاء للإنسان فمن شكر وحمد كان من الفائزين، قال تعالى: {وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِنْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} 109، وكذلك قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ

بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا {110، قال تعالى: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {111

والرزق ليس مقصورا على المال فقط، بل حتى الأبناء رزق من الله مع
اختلاف الوقت لهذا الرزق، فمن الممكن أن يتزوج مثلا أكثر من مائة
إنسان في ليلة واحدة ولكن نجد أن هناك من يتأخر رزقه بالذرية في حين
أنا نجد من يرزق فورا بهم، وهناك من لا يُرزق بهم أبدا ذلك كله بتقدير
العليم لأمر عباده، قال تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا
يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا
وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ {112.

2- الفرج بعد الضيق:

الله هو المفرج للكرب إذا أخلص الإنسان الدعاء لله وتوجه إليه بقلبٍ
صادق منكسر، قال تعالى: {وَتُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ
فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ {113، وقال تعالى: {وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى
مُوسَى وَهَارُونَ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ {114، فما من
إنسان في هذه الدنيا إلا قد أصابه هم أو كدر وعند حلول الهموم
والمشاكل نبحت عن الفرج مستعجلين قدومه لتنفرج تلك الأزمة، وقد
يؤخر الله لحكمة ما مجيء الفرج وقد يستعجل فيه، مختبرا بذلك صبر
الإنسان وإيمانه، وفي ذلك قال تعالى: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ

¹¹⁰ الإسراء 30.

¹¹¹ العنكبوت 62.

¹¹² الشورى 49 . 50.

¹¹³ الأنبياء 76.

¹¹⁴ الصافات 114، 115.

لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {115}.

وخليفة الله هو من ثبت عند حلول المصيبة وكان الله عوناً على تجاوزها أو تحملها وهو بطبعه لا يلتجئ إلا إليه، قال تعالى: {وَلَنْبَلُوكُم بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ} أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون {116}، فالخليفة هو الذي يثبت ويزداد إيماناً عند الشدائد مهما تأخر الفرج فيبقى أمله بقدمه من أمله بحب الخالق وثقته برحمته.

المؤخر هو المقدم:

بما أن الله تعالى هو المؤخر فهو بالضرورة المقدم لما يريد، فقدم الخير في النفس البشرية على الشر، فكان خلقه للجن والإنس للخير بهدف عبادته وطاعته، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ} {117}، فلم يخلق الله تعالى الخلق للنزاع والقتل، وقدم الحب عن الكره، فقد خلق الله تعالى الإنسان محباً بطبعه والدليل على ذلك من يعلم الوليد الذي لا يعي أي شيء في الدنيا حبه وارتباطه بأمه وأبيه، فنجد دائماً التعلق بحبه وحاجته لهما؟ وكذلك هذا الحب الذي يتولد لدى الوالدين تجاه وليدهما الذي أتى للعالم منذ فترة وجيزة.

¹¹⁵ البقرة 216.

¹¹⁶ البقرة 155 . 157.

¹¹⁷ الذاريات 56، 57.

وقدم الحجّة والبرهان مؤخرًا العقاب، قال تعالى: { وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ذَكَرُوا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ } 118، وقال تعالى أيضا: { وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرِيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا } 119، فيؤخر المؤخر بالإطلاق عقابه وحسابه إلى ما بعد وضوح الحجّة والدليل الواضح للهداية والضلال، فيكون عقابه لأي قوم عبرة لمن يأتي بعدهم وذكرى لمن نسي وانشغل عن الحق.

فلم يكن الله معاقبا لقوم دون أن يبعث فيهم رسولا لإنذارهم وتحذيرهم وهدايتهم، وبعد الحجّة والبرهان يأتي الجزاء والحساب، فبذلك يتأخر العقاب عن الحجّة لأن الله تعالى عادل لا يظلم أحدا، قال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حِجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } 120، فشهادته هي الحق التي لا ظلم ولا جور فيها يوم تقوم الساعة، فعلم الإنسان بالشيء ينفي أي تبرير له بالخطيئة.

¹¹⁸ الشعراء 208، 209.

¹¹⁹ الطلاق 8. 12.

¹²⁰ النساء 165، 166.

المؤخر هو الآخر:

كيف يكون مؤخرا إذا لم يكن آخرا؟

فهو الآخر بلا انتهاء وهو الآخر بعد كل شيء، وهو الآخر الذي ترجع إليه الأمور جميعا، فعنده تبدأ وتنتهي جميع الأمور، وهو المحيط بجميع الأوائل والأواخر، فما من آخر إلا والله بعده، لذلك فأمر التأخير بيده وحده عز وجل ما دام هو الآخر المتحكم في البدايات والنهايات جميعا، إنه المقدم بخلقه والمؤخر بفنائه لما خلق، ومقدم بإحيائه ومؤخر ببعثه، فهو الذي يؤخر ما يشاء ويُقدِّم ما يشاء فكل تأخير له نهاية يتحكم بها المؤخر المطلق، فالمؤخر هو الباقي وكل أخير زائل ما عدا الله، فالآخر هو الذي يستحق العباداة والطاعة فلا نُؤخرهما لانشغالنا بأمر الدنيا، فكيف ننشغل عن الآخر الباقي الذي خلقنا وأنعم علينا بنعم كثيرة، قال تعالى: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 121.

وعلى خليفة الله أن يدرك أن له بداية ونهاية ثابتتان وهما بأمر الخالق عز وجل، لا يتدخل أحد في تقديم أو تأخير شيء لا يريد الله تعالى، بل أن كل شيء له بداية ونهاية حتى اللحظة والدمعة والبسمة إلا الآخر المطلق في بقائه فلا يتعلق الخليفة بسواه لأن التعلق بغيره هو تعلق بالعدم والفناء، أما التعلق بالآخر الباقي فهو التعلق بالحى الذي لا ينتهي ولا يزول، قال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} 122، فإذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة من القناعة فإنه سيوكل أمره لله ويرضى بقدره ونصيبه، قال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ

121 الحديد 3.1.

122 الرحمن 26.27.

الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبَّحَ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا{123، ففي الآية الكريمة السابقة تأخير لصفة من صفات الله تعالى عن الفعل الذي يجب أن يقوم به الإنسان، فقد وصف الخالق نفسه بالحياة الأزلية التي لا تنتهي ولا تزول مقدما على ذلك ضرورة توكل الإنسان عليه، وآخر التسييح عن التوكل لأن من توكل على الله فعلا أخلص في عبادته والتسييح نوع من العبادة.

لذا يجب على الخليفة ألا يكون مؤخرا للآتي:

أ. لقول الحق:

كلمة الحق حين تقال في وقتها دون تأخير تكون أتمن من كنوز الأرض جميعا، فهي لا تقدر بثمن لما فيها من حفظ للحقوق البشرية التي قد تضع بتفشي مرض موت الضمائر البشرية بسبب المصالح الدنيوية، فالمصلحة الشخصية هي الصخرة التي تتحطم عليها المبادئ والقيم الأخلاقية، وبذلك يتجرد الإنسان من آدميته فيزور شهادة الحق إذا تطلب الأمر ذلك، متناسيا جريرة هذه الشهادة وما تعود به من ضرر جسيم وهذا ما جعل الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - يبين لنا خطورة وعقوبة هذه الشهادة بوصفها من الكبائر، "حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ قَالَ حَدَّثَنِي عَبِيدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ قَالَ سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْكِبَائِرَ أَوْ سُئِلَ عَنِ الْكِبَائِرِ فَقَالَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَقَتْلُ النَّفْسِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَقَالَ أَلَا أُنبئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ قَالَ قَوْلُ الزُّورِ أَوْ قَالَ شَهَادَةُ الزُّورِ"124، فيصبح الإنسان ظلما متجبرا دون رادع له بغياب الضمير، لأنه بموت الضمير تموت صلته بالله سبحانه وتعالى

123 الفرقان 58

124 صحيح مسلم ج 1، ص 243.

فتراه يكذب ولا يتردد في تزوير الحقائق التي تؤدي لتدمير الحقوق ونزع الثقة.

ولكن على من يسعى لأن يكون خليفة الله في الأرض، أن يكون من الذين قال الله تعالى عنهم: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا} 125، فلا ينطقون إلا بالحق ولا يكتبون شهادتهم لخوف من زوال منصب أو ضياع ترقية أو تهديد ممن هو أرفع شأنًا منه أو مقابل مال، قال تعالى: {وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} 126.

إذن فتأخير شهادة الحق والنطق بها من شأنه أن يقضي على الحقوق التي يجب حفظها لتبقى الحياة تسير وفقا لما أرادها الله تعالى أن تسير.

ب. لفعل الخير:

لا يجب أن يتأخر الإنسان عن فعل الخير لأي سبب كان، فالخير لا بد أن يكون متقدما على كل شيء في نفسه لئتم إحقاق الحق وانتشار الفضائل بين الخلق، فتتأخر بذلك الشرور والمفاسد بين الناس، قال تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَهْمٌ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ هَا سَابِقُونَ} 127، والخير كلمة جامعة لمعاني عديدة إذا اجتمعت عم الخير والصلاح في الأرض وكان البشر خلفاء الله في الأرض يؤدون رسالته التي خلّقوا من أجلها، فيعمّروا ويصلحوا وينشروا الخير الذي يتضمن ممّا يتضمن الآتي:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

¹²⁵ الفرقان 72.

¹²⁶ البقرة 283.

¹²⁷ المؤمنون 60، 61.

المعروف مطلوب أن يكون بين الناس ليقبوا على علاقة وثيقة ومودة مع بعضهم البعض، فلا يتناحرون على متاع الدنيا ولا يتنازعون فيما بينهم، فلا تضيع الحقوق ولا تُسلب، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾¹²⁸، فقد آخى الله طاعة الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن طاعته لأن طاعته عليه الصَّلَاة والسلام من طاعة الله، فلا يتقدم طاعة الله شيء بل يتأخر عنها كل العبادات لأن طاعته عز وجل أصل كل العبادات وأساس قيام أنبل علاقة بين الخالق وعبده فلا يجد الإنسان في نفسه ضيق من عبادة الله ولا يؤخرها من أجل شأن من شؤون الدنيا، بل كل متاع الدنيا يتأخر عن رضا الله تعالى، بذلك يكون الفوز في الدنيا والآخرة.

وعليه فالأمر بالمعروف بحق على الخليفة مستوجب الإتيان والممارسة. والنهي عن المنكر واجب التنفيذ على الخليفة مع حُسن الأداء. وفي الآيات السابقة قدم الله المقدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على إقامة الصلاة وإتاء الزكاة وطاعة الله والرسول، وذلك لأن الدين معاملة، والمعاملة الحسنة لا يمكن أن تتم إلا بإيمان أي أن الإيمان هو الذي من ورائها، أي لولاه (لولا الإيمان) ما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبهذا يكون إثبات الإيمان وتقدمه على كل عمل صالح ونافع، ولكن مع الناس كما سبق أن قلنا الدين معاملة حسنة، فمن عمل عملاً صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها، ولهذا يجازى العباد بالأعمال ويعاقبون عليها، فبالأعمال يتم دخول الجنة أو دخول النار، ولهذا قدم الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنهما من الأعمال التي بها يتم الفوز بالجنة. قال

¹²⁸ التوبة 71.

تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} 129.

الإِنْفَاقُ فِي وَجْهِ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ:

قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنْنًا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} 130، من وجوه الخير الإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِدُونِ تَأْخِيرٍ لِدَلِّكَ، وَقَدْ وَضَّحَتْ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ السَّابِقَةُ جِزَاءَ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مُؤَخَّرًا الشَّرْطَ لِقَبُولِهَا قَبُولًا تَامًا وَهَذَا الشَّرْطُ هُوَ عَدَمُ الْمَنِّ وَالْأَذَى الَّذِي قَدْ يَتَّبِعُ الصَّدَقَةَ عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ، فَجَاءَ الشَّرْطُ مُتَأَخِّرًا عَنِ الْجِزَاءِ الْعَظِيمِ لَهَا لِبَيَانِ أَهْمِيَةِ الْإِنْفَاقِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، قَالَ تَعَالَى: {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا لِابْتِغَاءِ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَعْيَاءً مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْفَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} 131.

وخلفاء الله كانوا منفقين على قدر استطاعتهم مؤخرين بقدر الإمكان، الفقر في المجتمع الإسلامي ومقدمين حاجة المسلمين عن متاع الدنيا، وأول من يستحق هذا الإِنْفَاقُ هُمُ صَلَاةُ الْأَرْحَامِ مِنَ أَقَارِبٍ، قَالَ تَعَالَى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ

¹²⁹ البقرة 281.

¹³⁰ البقرة 261، 262.

¹³¹ البقرة 272 . 274.

وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ حَيْرٍ فإِنَّ اللَّهَ بِهِ
عَلِيمٌ {132}.

بر الوالدين والإحسان إليهما:

قال تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا
يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ
لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا
رَبَّيْنِي صَغِيرًا} {133}، كان في تأخير الأمر بالإحسان إلى الوالدين عن
الأمر بتوحيد الله تعالى توضيحا لتعلق الأمرين ببعضهما البعض مع
أسبقية التوحيد عن الإحسان للوالدين، فالخير بأنواعه مرتبط ببعضه
البعض لا نستطيع فصله إذ أن كل نوع منع يؤدي بالضرورة إلى باقي
الأنواع، فطاعة الله ترتبط بطاعة الوالدين ورحمتهم في كبرهما.

وليس من خلفاء الله بالإضافة من كان عاقا لوالديه جاحدا لهما، بل
خليفة الله بالإضافة هو من سكنت الرحمة قلبه وامتألت نفسه بالمحبة
لكل من حوله وأولهما الوالدين اللذين أوصانا الله بهما وأمرنا برعايتهما
في كبرهما والإنفاق عليهما والدعاء لهما وصلة رحمهما.

الأمر بالعدل وإحقاق الحق:

من المستحيل أن يسود العدل بين الناس في وجود الظلمة والجباة،
فإذا وُجد الظلم تأخر ظهور العدل لحين القضاء على جميع أنواع الظلم،
فالحقوق تبقى ضائعة في وجود الظالمين، والجور يكون عنوانا للتعامل بين
القوي والضعيف، ولكن الله تعالى جعل من أساس المجتمع الإسلامي
الصحيح قيامه على العدل والسعي إليه ليصل كل فرد مسلم لحقه بلا

¹³² البقرة 215.

¹³³ الإسراء 23، 24.

زيادة أو نقصان، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} {134}، وقد تأخر النهي عن الظلم عن الأمر بالعدل لأنه إذا ساد العدل انتهى بالضرورة الظلم فلا يجتمع كل منهما مع الآخر، فيُخْلَقُ بتلك المبادئ النبيلة مجتمعا سويا لا أمراض اجتماعية فيه كالظن والغيبة وأكل مال الآخرين وغيرها فنستحق بذلك خلافة هذه الأرض كما أراد الله، فخلافتها لا تأتي إلا بسيادة العدل وانتهاء الظلم من على وجهها.

وعلى خليفة الله بالإضافة مهما كان مركزه بسيطا أو رفيعا أن يلتزم هذا المبدأ وهو العدل، فالقاضي العادل هو كل ما يحتاجه المظلومون، والأستاذ يجب أن يكون عادلا بين طلبته لا يفضل قريبا له أو ثريا بغرض الاستفادة بل يعطي لكل طالب حقه، وحتى الأب عليه أن يكون عادلا بين أبنائه فلا يحرم من حنانه ابن ويعطي للآخر ولا يفضل الذكر عن الأنثى كما نجد في بعض العائلات إلى حد الآن.

ج . لمحاسبة نفسه:

بما أن النفس البشرية كثيرة الخطأ والزلل كان لابد لها من قاضٍ لها يحاكمها ويردعها وهذا القاضي هو الضمير الذي أوجده الله فينا رادعا لنا عند الخطأ، وبغياب هذا القاضي تسود الفوضى النفس البشرية وتضيع في دروب الضلال والفساد، قال تعالى: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} {135}، ولا يكون عاقبة ترك النفس تعمل ما بدا لها إلا الندم والتحسر لأن في ذلك وقوعا في الذنوب والمعاصي التي

¹³⁴ النحل 90، 91.

¹³⁵ القيامة 1، 2.

لابدّ أن يستغفر الإنسان ويتوب عنها لعل الله تعالى يقبل توبته، قال تعالى: {وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ} 136.

الخليفة بالإضافة هو من صادق ضميره فصدقه، وهو من كان على موعد في كل لحظة ودقيقة مع نفسه فلا تخرج عن طوعه لأمر الدنيا، لأن في زينة الحياة الدنيا مفسدة ومضیعة للنفس البشرية، والخليفة بالإضافة هي من قالت له نفسه عندما عرضت الدنيا متاعها له: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} 137، بذلك تكون النجاة من النار وبئس المصير، وقد وضع الله القوانين والشرائع العادلة التي تسهّل على الإنسان السير عليها في الحياة الدنيا، ومن خالف هذه الشرائع فقد زل ومال عن الحقّ، ويكون هذا الزلل والميل لضعاف النفس الذين يستمعون إلى وسوسة الشيطان الرجيم الذي توعد بإغواء من يستطيع من البشر لجرّهم إلى عذاب الجحيم، انتقاماً منه وبغضاً له لتفضيل الله تعالى للإنسان، قال تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَأَخْرَجَ مِنْهَا فَايَاتِكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ

136 يوسف 53.

137 الأنعام 32.

الْمَعْلُومَ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ
الْمُخْلِصِينَ {138.

د . حلمه:

الحلم من الصفات التي تصل بالإنسان إلى أطيّب النتائج، ولنا في
الرسول والأنبياء الأسوة الحسنة، قال تعالى: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ
لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} {139، فلا يجب أن يؤخر الإنسان حلمه عن غضبه
فإذا سبق غضبه حلمه لا فائدة تُرجى منه بعد ذلك، فالحلم من الله
والتسرع من الشيطان.

من شأن حلم الإنسان أن يريه الصواب من الخطأ في أمور حياته
فيكون بذلك حكيم الرأي صائب النظرة، على عكس من كان سريع
الغضب فإنه يكون دائم الندم ذو نظرة ضيقة ولا يكون حكمه على
الناس حكما صحيحا.

والخليفة بالإضافة يجب أن يتصف بالحلم البعيد عن الطيش، مؤخرا
عقابه ورده على من أغضبه، راجيا بذلك أن يراجع ذلك المخطئ نفسه
فيرجع عما فعله، ويكون حلما على من خالف أمره دون سبب لذلك
فيتعامل معه بالحلم والأناة حتى يتخطى فورة غضبه الذي يقود الإنسان
إلى الانتقام السريع والمبالغ فيه، بل أن خليفة الله بالإضافة عليه أن يتعود
الصفح حتى يصبح من طباعه، فكما أن الإنسان يحتاج أن يحلم عنه من
هو مسؤول عنه فهو بالتالي عليه أن يحلم عمن هو مسؤول عنهم، لأنك
في الأصل تعبد وتوحد الحلیم المطلق، قال تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ

138 ص 71 . 83.

139 التوبة 114.

مِثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ
بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ
النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنْ صَبَرَ
وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ {140}، وقد كان لنا في رسول الله -
صلى الله عليه وسلم- أفضل قدوة وأروع مثال للصبر وتحمل مصاعب
الأمور وتخطيها بالحلم، فلم يأخذه الغضب فعاقب بما يتعدى الحدود بل
كان كثير الصفح دائم الصبر حليما متأنيا في أموره وأمور من حوله.

لذلك فخليفة الله بالإضافة لا يجب أن يؤخر حلمه عن غضبه، ولا
تعجله عن صبره، فبذلك يصل إلى معالي الأمور، وتكون علاقته بمن
حوله من علاقته بالحليم المطلق، الذي يصفح ويعفو مع قدرته عز وجل.

هـ . لعلمه:

العلم النافع يجب أن يكون مشاعا لكل الناس، لا يحتكره أحد لنفسه،
فالفائدة من علم نافع هي فائدة يجب أن تكون جماعية وليست فردية
وإلا لما كانت فائدة من الأساس، لذلك نجد أن العليم المطلق أكد على
وجوب تحصيل العلم النافع الذي يصل بالإنسان إلى أعلى درجات الرقي
في التفكير، فأول ما دعا إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم- هو
العلم ولو بإشارة له، قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ
يَعْلَمْ} {141}، فالقراءة أصل المعرفة ولكن ليست أي قراءة فكثيرا ما نجد
أعدادا هائلة من الكتب داخل المكتبات حاليا ليست لها علاقة بالعلم
النافع الذي يوصي به الله تعالى خلفاءه، فالعلم الصحيح هو الذي إذا
ساد في مجتمع ما آخر الجهل بل أنهاه، فالجهل نقيض العلم ولا يمكن أن

140 الشورى 40 . 43.

141 العلق 1 . 5.

يسير أحدهما في طريق الآخر دون أن يتصادما، وعلم لا يقود إلى الهداية ضلالة، ولذا فالعلم هو المؤخر للجهل والمرض والذل والظلم وللغش والتزوير والخيانة.

ومن شأن العلم أن يؤخر الغفلة التي قد تسود النفس البشرية في غياب المعرفة التي من شأنها أن تنير هذه النفس، فتبدع وتملك القدرة على خلافة الأرض.

وعلى خليفة الله بالإضافة أن لا يجعل من علمه عاملا مؤخرا له، فلا يؤخره عن أحد ولا يمنع غيره من الاستفادة منه، فتكون دعوته البحث والفحص عن محاسن الأخلاق ومفاتها بعيدا عن الغرور والتكبر به، فيؤدّي به ذلك إلى الخوف من العليم المطلق في الأقوال والأفعال، فعلم كهذا إذا ساد وانتشر ولم يتأخر عن أحد اتجه الناس للعلم بصفات الله تعالى وأحكامه وما هو حلال وحرام في حدود الإقدام على ما يجب والابتعاد والاجتناب عما لا يجب الإقدام عليه، قال تعالى: {أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهُدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ

وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ {142،
فالعليم المطلق يخاطب من يبحثون عن العلم لأنّ فيهم فلاح وصلاح
الأرض، وبهم يتأخر الجهل والضلال بين الناس ويتأخر الجهل تعلو
درجات الإيمان الحاصل عن الوعي بما أرادنا الله تعالى أن نكتشفه بعقولنا
وقلوبنا.

ولهذا يجب على الخليفة أن يكون مؤخرا للآتي:

أ . لغضبه:

الغضب من أسوأ نتائجه الانتقام السريع الذي يدمر الإنسان نفسه
ومن حوله ويوقعه في دوامة الندم والحسرة، فعندما يؤخر الإنسان الحلم في
نفسه فبالضرورة أن يكون الغضب متقدما في نفسه على الصبر والتأني،
وليس معنى ذلك أن لا تتحرك مشاعر الغضب لدى الإنسان أو أن
تتجمد عواطفه، بل المقصود أن لا يكون الغضب والانفعال السريع رائدا
في نفس الإنسان، فيقوده غضبه إلى التماذي في الرد وهذا التماذي لا
يكون عاقبته إلا سيئة وخطيرة، وكثيرا ما نلاحظ أنه في جرائم القتل
والضرب يكون دافعها فورة غضب عارمة تلم بالإنسان يدعمها الشيطان
لتتم الخطيئة والمعصية.

وعلى خليفة الله بالإضافة أن يكون مؤخرا لغضبه بقدر الإمكان ليؤخر
بذلك أخطاءا ومعاصي جمّة تتعلق بسرعة غضبه، وعليه أن يتخذ من
علاقته بالله تعالى دليلا له للتعامل مع نفسه ومع من حوله، فأصل
العلاقة الصحيحة بين الله وعبده هي علاقة رحمة وحلم مطلقين من
الحليم المطلق عزّ وجلّ.

ب . لحكمه على الناس:

¹⁴² المائدة 96 . 103.

الحكم الصحيح على الناس يتطلب الوقت الكافي للمعرفة والحكمة والتأني في تكوين هذا الحكم، حتى لا يقع الإنسان في الخطأ، فلا بد أن يؤخر الإنسان حكمه على الغير إلى ما بعد التجربة والدليل، فلا يتسرع في حكمه على أحد فيظلمه دون علم أو دليل، لأن في تكوين الحكم السريع على الناس مخاطر جمة منها فقد الثقة ببعضهم، وعدم الفهم الصحيح للتصرفات الخارجية للغير فتقل المحبة وتتأخر في المجتمع البشري، فيتعامل الإنسان مع غيره على أساس رأيه هو ونظرتة في ذلك الإنسان وكأن حكمه لا يمكن أن يكون خطأ.

والحال مع خليفة الله بالإضافة يكون مختلفا لأنه لا بد أن يكون متأنيا في تكوين رأيه قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } 143.

ج . مؤخرا لحاجته عن حاجة من حوله:

الإيثار من الصفات النبيلة التي قد لا تتواجد بكثرة في النفوس البشرية، فنلاحظ أن من الناس من يؤخر حاجة غيره عن حاجته، فلا يلتفت إلى غيره إلا بعد استكمال تلبية حاجاته الشخصية، ولكن هذا لا ينفي وجود هذه الصفة الكريمة في صدور بعض الناس الذين أفلحوا في الدنيا والآخرة، قال تعالى: { وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } 144.

143 الحجرات 6.

144 الحشر 9.

ونلاحظ أن صفة تأخير الحاجات الشخصية عن حاجات الغير متواجدة في شخصيتين متميزتين في حياتنا وهما الوالدان، فالأب والأم يؤثران حاجات الأبناء عن حاجاتهما الذاتية، فنجد الأب يسعى في الدنيا جاهدا لتوفير احتياجات أبنائه مؤخرا حاجاته الدنيوية عن ذلك، وكذلك الأم فيكون كل هدفها تحقيق رغبات أبنائها وطلباتهم، متناسية حاجاتها وطلباتها الشخصية.

وعليه يكون الخليفة مؤخرا للآتي:

1. للشر بتقديم الخير:

الكون مليء بالشرور والخيرات، وكل منها ينمو بالرعاية والمحافظة، فالشر سريع الانتشار حينما يجد الأرض الملائمة في داخل النفس البشرية التي يسيطر عليها الشيطان الرجيم، فيسكن فيها ويث شروره وحققه التي يسير الإنسان بها في الأرض مفسدا ومدمرا، قال تعالى: {الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ} 145، ولا يكون القضاء عليه إلا بزرع الخير بدلا منه والخير بالتالي لا يأتي إلا بحب الله الذي من شأنه أن يجعل الخير طاغيا على جميع مناحي النفس البشرية، وبذلك يستحق الإنسان خلافة الله في الأرض بدعائه للخير وتأخيره ما استطاع لكل دعوات الشر في الكون، فيكون سلاحه الخير سلاحا فعلا يرتوي من نبع محبة الخالق الذي أمرنا بنشر الخيرات والفضائل وهما الوسيلة التي نواجه بها كل شرور المفسدين، قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} 146.

¹⁴⁵ الشعراء 152.

¹⁴⁶ آل عمران 104.

. لليأس بتقديم الأمل:

لا يجتمع اليأس مع الأمل في نفس بشرية واحدة، إذ أنه لا بد أن يميت أحدهما الآخر، فاليأس حين يتمكن من القلب تنطفئ كل شموع الأمل فيه، ولا يمكن أن يتكمن اليأس من القلب الممتلئ بذكر الله تعالى وخشيته، قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} {147}، والمعادلة هنا واضحة فلا وجود للأمان والطمأنينة إلا بوجود الأمل والأمل بدوره لا يمكن أن يولد ويكبر إلا في الأرض المناسبة وهذه الأرض هي روح الخليفة وقلبه، وبالتالي لا يمكن أن يكون اليأس أحد طرفي هذه المعادلة، فالخوف ينتفي مع الأمان واليأس ينتفي مع الأمل، والآية الكريمة السابقة قد أقرت مبدا رائعا لو سار عليه البشر لما خسروا دنياهم وآخرتهم، وهذا المبدأ هو إذا بحثت عن الطمأنينة فعليك أولا بالبحث عن مكانة الله فيك، فكلما زاد حبك لله وقرّبك منه أهداك الله أمانا يبحث عنه أغلب البشر ولا يجدونه في عمل رابح، أو ابن ناجح، أو زواج مميز، فحب الله للعبد لا يمكن أن يساويه محبة العبد للعبد، "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَالٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَالٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً" 148.

وخليفة الله من كان الخير متقدما في نفسه، يدعو إليه ما استطاع لعلمه أن الدعاء للخير تأخير للشر في الدنيا، وفيه غلبة الإنسان على الشيطان وما يوسوس به لبني الإنسان من ضلال وفساد.

147 الرعد 28.

148 صحيح البخاري، ج 22، ص 409.

3 . للباطل بتقديم الحق:

قال تعالى: {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} {149}، فالباطل في أصله ضعيف وزائل والحق قوي وباقي لأن الله حق والله باقي، ولا يمكن للباطل أن يتقدم على الحق إلا لأجل يعلمه الله ليأتي الحق دامغا للباطل ومزيلا له، قال تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} {150} حتى ولو تأخر الحق قليلا إلا أنه يبقى متقدما عن الباطل في قلوب خلفاء الله في الأرض، قال تعالى: {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ} {151}.

وقد كان لنا في الأقسام السابقة أكبر عبرة، فقد زال كل ما كانوا يدعون من دون الله لأنه كل ما كانوا يدعون من دون الله هو باطل وبقي الحق وأظهره الله بأمره بالتوحيد والعبادة له وحده، قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} {152}.

وخليفة الله من دعا للحق دائما وأرسي دعائم هذا الحق في زوايا نفسه، فلا يترك للباطل مدخلا يلج منه لروحه، وبدعوته للحق فإنه يؤخر تفاقم الدعوة للباطل التي تكون سريعة الانتشار في النفوس بالعديد من الوسائل منها:

* التودد لأعداء الله:

¹⁴⁹ الإسراء 81.

¹⁵⁰ الأنبياء 18.

¹⁵¹ سبأ 49.

¹⁵² الحج 62.

فالقربَ وتملق أعداء الله لهدف ذاتي أو لغرض بشري من شأنه أن يجعل الباطل يسود مناحي نفسه ويسيطر على ذاته فيدعو غيره لذلك وعمل على نشر الباطل الذي أمرنا الله بالقضاء عليه، قال تعالى: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاءً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} {153}، فعاقبة هذا الود هو سوء المصير وفساد الحال، في حين أن الحق يدعو إلى صلاح الحال والنجاح الأكيد في الدنيا والآخرة.

* اللجوء لغير الله:

اللجوء لغير الله مذلة، والعمل الصالح خير مقرب لله تعالى، فمن عمل مثقال ذرة خيرا يره ومن عمل مثقال ذرة شرا يره ولا يظلم ربنا أحدا، ولهذا فالمشركون هم الذين يتخذون مع الله إلهًا آخرًا، والله واحد احد لا إله إلا هو عز وجل، وهكذا الذين اتخذوا أولياء ليقرّبوهم إلى الله زلفى قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَفَّارُ} {154} وهكذا بعض الناس يخافون البعض الآخر منهم، وكأن ما يصيبهم بسبب ما يملكه هؤلاء الأولياء من إرادة متناهية وسلطة غير محدودة، فإذا تحقّق صدفةً ما يطلبه أحدهم دعا غيره إلى اللجوء لهذا الباطل وبهذه الدعوة تتسع دائرة الباطل وتنتشر هذه

153 آل عمران 28.

154 الزمر 2 - 5.

الدعوة الفاسدة، وترسخ في العقول تلك الفكرة الباطلة التي تسير
بأتباعها إلى الهاوية وسوء المصير.

وخليفة الله أن يكون درعا محافظا على الحق، وسهما مصوبا في اتجاه
الباطل ليردعه ويخفي معاملة في صدور وعقول الناس، فيؤخر بذلك ازدياد
وتفاقم الباطل بين الناس.

4 . للجهل بتقديم العلم:

من أوائل ما دعا إليه ديننا الإسلامي القيم هو العلم، فبه يصل
الإنسان إلى أعلى درجات التقوى وحب الله، فلا حب ولا خشية
تسكن القلوب دون علمٍ نافع ومعرفة تدلنا على قدرة الخالق، هذا العلم
الذي به نستطيع أن نسحق الجهل الذي يؤدي بصاحبه إلى الضياع
والهلاك، والعلم الذي يدعو إليه الله تعالى هو المتصل بالتوصل لمعرفة
الخالق، فكلما زادت درجة علم الإنسان زادت درجة معرفته لله، لأنه
الظاهر في كل شيء بقدرته وعظمته، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ
وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَالِقُ
تُؤْفِكُونَ فَالِقُ الإصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ
تَفْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ
الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ
وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وَهُوَ الَّذِي
أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا
نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّحْلِ مِنَ طَلْعِهَا قَنَوانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ
أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونِ وَالرُّمَّانِ مُشْتَبِهًا وَغَيْرِ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ
إِنَّ فِي ذَلِكَمُ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} 155، فقد جمع الله تعالى في هذه

155 الأنعام 95 . 99.

الآيات الكريمة ما بين العلم والإيمان، فكل هذه الدلائل في الأرض هي هدية من الله سبحانه وتعالى إلى من أراد بعلمه أن يصل لخالقه معرفة وتقوى دون أن يلجأ لشيء آخر، فبالعلم الصحيح النافع يصل الإنسان إلى أعلى درجات الإيمان بهذا الخالق العظيم.

وبالتالي فالجهل أساس التكبر والجحود حتى لو كان الإنسان عالماً في مجال الطب أو الهندسة أو أي نوع من العلوم الأخرى، فالجاهل حقاً هو من لا يسمع للحق ولا يُلقي له بالا وهو من لا يرى الابداع والعظمة في الإعجاز، فلا ينطق لسانه إلا بالباطل فيظل في الدنيا جاهلاً، لأن العلم الذي يرقى بالإنسان هو العلم الذي يقود الإنسان لإماتة الغرور والتكبر في النفس، قال تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَدَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ} 156، فالجهل هو أقرب طريق لجنهم وبنس المصير والعلم النافع هو أقرب طريق لجنات النعيم، لذلك أمرنا الله أن نتوصل لحيته ومعرفته بالعلم والتأمل كما كان شأن أغلب الرسل والصالحين وخلفاء الله في الأرض.

لذلك فخليفة الله تعالى لا يمكن أن يكون جاهلاً ضالاً الطريق، فالجهل من شأنه أن يؤخر منفعة الإنسان من الحياة واستفادته من الوقت المحدد له في الحياة، فلكل إنسان عمرٌ محدد لا يمكن أن يزيد أو ينقص ساعةً واحدةً، إذن العلم النافع والصحيح هو أحد مكونات خليفة الله، الذي يجب أن لا يتأخر به ولا يبخل به عن أحد طلبه بل لابد للخليفة أن يسير في الأرض ناشراً ما لديه من علمٍ ومعرفة فيقدم بذلك الوعي والصحة الإيمانية لدى الناس عن الغفوة والضلال الذي قد يقع فيه البشر بسبب سوء الفهم والوعي لديهم، لذلك فقد فضّل العليم المطلق

156 الأعراف 179.

العلماء عن بقية خلقه لما لهم من دور إيجابي في التعرف على الخالق بالشكل السليم وبما يجب أن يكون لهم من تأثير إيجابي بين الناس بدعوتهم وتذكيرهم بالحقّ إذا ضاع منهم، قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} {157}، فكما جاء في الآية الكريمة لا تسكن خشية الله في قلب الإنسان إلا بما توصل إليه هذا الإنسان من معرفة بما يستحقّه هذا الخالق العظيم، فالقرب الذي يولده هذا العلم بين الإنسان والمولى عزّ وجلّ من شأنه أن يصحح خطى هذا الإنسان ويجعله مدركاً لما عليه ربّه من عظمة وما يستحقّه من أجلال، بذلك يؤخر هذا العلم الذي ترسخ بالشكل الصحيح في عقل وقلب الخليفة إذا سار به بين الناس آخر الجهل الذي يقودهم إلى الخطيئة والمفاسد، فيتجهون إلى العقل للاستفسار ويتجهون بالقلب للاستفتاء فيجدون بذلك الله في عقولهم وقلوبهم وإذا وجدوا الله تعالى فقد وصلوا إلى أفضل حياة ونالوا أفضل مصير.

فالعليم المطلق قد رفع قدر العالم وآخر الجاهل، قال تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} {158}.

5 . للمرض بتقديم العلاج:

والمرض هنا نوعان المرض الجسدي والمرض النفسي، والمرض النفسي أكثر صعوبة وتعقيداً من المرض الجسدي، وكل منهما يصل بالإنسان إذا تأخر العلاج أو أهمل إلى أسوأ النتائج، فالمرض الجسدي يجب أن يُعالج بالدواء وبالأمل من شأن العلاج الأول أن يحد من المرض أو أن يقضي عليه نهائياً فبذلك يؤخر استفحال وانتشار المرض بهذا الدواء، ومن شأن

¹⁵⁷ فاطر 28.

¹⁵⁸ المجادلة 11.

العلاج الثاني أن يعمل على القضاء على المرض وعدم الاستسلام له فيذكر الله في مرضه وصحته وبذكر الله يتجدد الأمل بشفاؤه وتحطيه لكل مرض، لأن ذلك من عند الخالق وهو القادر على تخليصه من كل داء إذا شاء، والنوع الآخر من المرض هو المرض النفسي الذي قد يصيب بعض الناس بسبب عوامل عدة منها التي تتكون داخل نفس الإنسان ومنها من تأتي له من البيئة المحيطة به، فيتزلزل كيان هذا الإنسان ويصبح متأخراً بعطائه وبقدرته على التكيف وسط الناس، ويؤدّي بهذا الإنسان إلى أسوأ مصير كالانتحار أو الانطواء المميت الذي يفقده الانتفاع من نعمة الحياة، ولكي نتفادى هذه الأمراض النفسية يجب أن نتقدم نشر الوعي الإيماني لدى الناس بخطورة تفشي هذه الأمراض المدمرة التي من شأنها أن تهدم البنية التحتية لأي مجتمع تكثر فيه، وهذا الوعي يأتي على مراحل منها:

* الاختيار الصحيح للزوج:

فكل من الزوجين عاملٌ مهم وأساسي في بناء شخص سليم نفسياً قادراً على العطاء، إذ أن العلاقة السوية بين الزوجين تنتج عنها بالتأكيد أشخاص صحيحين نفسياً لا تشكل الأزمات التي نمر بها في الحياة أي خطورة في مسيرة حياتهم، بل نجدهم أشخاص باحثين عن الأفضل في الدنيا، على عكس من يجد نفسه وسط بيئة هي خليط من التناقض الذي يولد الأزمات بين الزوجين التي من شأنها أن تستقر في نفس هذا الابن مخلقة فيها أسوأ أثر، فلا يستطيع هذا الإنسان أن يعيش فرداً سويًا معطاءً وسط مجتمعه، بذلك فإن المرض النفسي يؤخر تطور المجتمع من كل النواحي والمجالات وبهذا التأخير لن يصل أفراد هذا المجتمع إلى درجة الوعي والتطور المنشود في الحياة ولذا خلق الله الإنسان ليطور الحياة ويسمو بها فوق كل شيء آخر كنعمة من المولى عزّ وجلّ وهبها للإنسان

طالباً منه المحافظة عليها باستخلافه فيها وتأمينه عليها، وهذه الخلافة يؤخرها عن تحقيق الهدف من كان ذو نفسية مريضة أو من كان عاجزاً بشكل جزئي أو كلي عن تحمُّل ما هو أقل مسؤولية عن خلافة الأرض، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} 159.

* الثقافة الدينية السليمة:

لا يمكن إهمال هذا الجانب المهم في حياة أبنائنا، وليس المقصود هنا فقط تعليمهم أصول الصلاة وأركان الإسلام فقط، بل تهيئتهم دينياً لمواجهة أي زلزال قد يصيب النفس البشرية إثر فشل في موضوع ما أو توالي الأزمات على الإنسان، أو التأثير ببعض الشخصيات التي لها تأثير سلبي، فمن شأن الثقافة الدينية أن تنأى بالنفس البشرية عن كل ما هو مدمر وفساد، فنكون بذلك مؤخرين للتخلف الديني الذي يصل بنا إلى التخلف الحضاري، والثقافي، والديني، بذلك فقط نستطيع أن نكون مجتمعاً صالحاً قوياً يواجه أي أزمات من أي نوع كانت وفقاً لدائرة الممكن.

ولا يجب على خليفة الله الاتكال على الوقت للإصلاح أو إهدار العمر فيما لا ينفع بحجة وفرة الوقت للتوبة لأن المؤخر هو المقدم والمقدم

هو المفاجئ والمباغت على غفلة من الزمن لا يدري الإنسان متى تكون، عندما لا ينفذ ندم ولا عتاب على ما فرط في الحياة الدنيا، قال تعالى: {وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهُوَ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} 160، فالمؤخر حين يخاطب العقل البشري فذلك كي يدمغه بالحجة والبرهان ولكي يوضح له طرق الخير والهداية فيستفيد من تأخير عقابه بالرجوع إلى الله الحق، وتعديل ما يمكن تعديله.

ومن حكمة المؤخر ورحمته بعباده أنه:

آخر الحاجات الدنيوية عن مشبعاتها:

فقد خلق الله مشبعات الحاجة عن الحاجة نفسها، فنلاحظ أنه قد هيا وجّه حاجات الإنسان على الأرض حتى قبل خلقه، مؤخرا بذلك حاجته عن مشبعاتها، فخلق الهواء والماء والسماء والأرض والجبال وغيرها من مكونات الحياة ومتطلبات الإنسان، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} 161، وقال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا

160 الأنعام 30 . 32.

161 الأنعام 99.

وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا} 162، فجاء الإنسان بحاجته إلى الأرض فوجد ما يسده عليها من حاجات مادية ونفسية، فأخر قدوم الأبناء إلى ما بعد خلق مشبعاتهم المادية والنفسية، فنجد أنه قبل خروج الجنين من رحم أمه يوجد الله تعالى مشبعات حاجته للطعام، بأن يخلق الحليب في ثدي الأم فيشبع حاجته للطعام وتكون متوفرة فيأتي الوليد بعد مجيء طعامه، وكذلك يهيئ الله تعالى ويوفر ما يحتاجه من متطلبات نفسية كالحاجة للشعور بالحنان والأمان والرعاية والدلال قبل أن يأتي للدنيا بوجود الوالدين اللذان يمثلان كل تلك المشاعر، وخليفة الله بالإضافة عليه أن لا يؤخر هذه المشاعر عنهما في كبرهما وحاجتهما، فلا يتأخر بحنانه ولا بحبه عنهما ولا ينتظر أن يسألانه عنهما، قال تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} 163.

آخر مراحل العمر مع النضج:

فقد آخر الشباب عن الطفولة وآخر الشبية عن الشباب، فيأتي الإنسان إلى الدنيا طفلاً يتعلم من والديه ومن حوله ما يبني به أساس شخصيته فيكون بحاجة إلى من حوله لكي يشب ويشق طريقه معتمداً على نفسه قويا ثم يرجع بعد القوّة ضعيفا وذلك ليعلم الناس أن الله هو الخالق المبدع الحكيم الذي بيده أمرنا من أوله لآخره، فبتقديم الشباب عن الشيخوخة تتقدم القوّة على الضعف، والقوّة حين توجد تجعل الإنسان مغرورا وأحيانا متكبرا فتأخرت الشيخوخة لمحاسبة فورة الشباب

¹⁶² النبأ 6. 16.

¹⁶³ الإسراء 23، 24.

كالهدوء بعد العاصفة، ففي هذه المرحلة يتفقد الإنسان الأضرار التي قد تصيب الروح والنفس في المرحلة السابقة لها، فكان لهذا التأخير أثر إيجابي في تعديل السلوك ومحاسبة النفس.

والله هو المؤخر المطلق فلا يكون تأخيره إلا لصالح البشر وخيرهم، فيؤخر أمور عباده إذا أراد لغاية لا يدركها الإنسان بعلمه المحدود البسيط، فهو يؤخر مثلاً الأشياء غير المدركة عن فهم واستيعاب الإنسان كي يسعى ويجتهد عقله في التفكير والتدبير ليصل إلى الحق والهداية، قال تعالى: { فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } 164، لذلك فإننا نلاحظ أن الكثير من الآيات القرآنية التي تدعو إلى أعمال العقل لا إلى إطفاء نوره، قال تعالى: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } 165، وكذلك قوله سبحانه وتعالى: { وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } 166.

وهناك نوعان من التأخير عند البشر منه ما هو محمود ومنه ما هو

مذموم:

¹⁶⁴ الأنعام 76 . 79.

¹⁶⁵ البقرة 164.

¹⁶⁶ الذاريات 20، 21.

النوع المحمود:

هو ما كان في سبيل الإصلاح وما فيه الخير والنجاح، فلا يكون لهذا التأخير أية آثار سلبية تعود على الشخص ذاته أو على من حوله، فلا يؤخر الإنسان أعمال الغير ومتطلباتهم بدون وجه حق، لأن بتأخير أعمال الناس يتأخر قضاء المصالح فتتأخر الفائدة المنتظرة من ذلك.

النوع المذموم:

مثل تأخير الإنسان لأعمال العباد وتأخير قضاء مصالحهم، فتعم الفوضى والشكوى وتتأخر النتائج المرجوة من تلك الأعمال، ومثل تأخير العبادات لما بعد انشغاله بتوافه الأمور، فلا يقوم للصلاة إلا بعد فراغه من السهر والحديث مثلاً، فيتأخر بذلك الخير.

وتأخير الله سبحانه وتعالى يكون في دائرة المطلق فهو يؤخر ما يشاء إلى وقتما يشاء وكذلك يقدم ما يشاء ولا يمكن لأي مخلوق أن يتدخل في هذا التوقيت المنظم، فهو المؤخر الذي يملك أسباب التقديم والتأخير بالإطلاق، ولا يملك غيره هذه الأسباب، أما المؤخر بالإضافة فتأخيره لا يكون إلا في دائرة النسبية، فهو يستطيع أن يؤخر ويقدم فيما يملك بما ملكه الله فيه، ويكون تأخيره بحدود لا يمكن للإنسان أن يتعدها أو أن يتجاوزها بتأخيره في ملك غيره من البشر، فما بالك في ملك الله اللا محدود؟

فالحمد لله على أنه هو المؤخر المطلق، فلو لم يكن مؤخراً كما هو ما سار هذا الكون على هذا النسق البديع والحكم، لكانت الفوضى سائدة فيه، وما كنا استشعرنا الأمان والرحمة فيه وما كان الأمل في مغفرته وعفوه حياً في نفوسنا.

وقد تطلبت حكمة الخالق عزّ وجلّ ومشيتته أن يختلف الناس من حيث الأشكال والألوان والأعمال، فكانت هناك درجات وفروق بين الناس، قال تعالى: { انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِالْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا } 167، ومع اختلاف هذه الأشكال والصفات في البشر إلا أن الإنسان بصفة عامة إذا أدرك ووثق بقدرة وحكمة الله تعالى المطلقين لما اعترض على ما لديه وطلب المزيد، لأن الإنسان كثير المتطلبات والأحلام التي ينشغل بالسعي لتحقيقها في الدنيا متناسيا أنه لا يستطيع تغيير مجرى أمور كثير تُخَلَق من أجله، كموعده ميلاده وهوية والديه وغيرها من الأمور التي تتعلق بمشيئة الله وحده، ولكن الإنسان له حرية اختيار الدرب الذي سيسير عليه في الحياة الدنيا، فإذا اختار الصدق والتزم الأمانة والدعوة للخير فقد رفع مكانته عند الله تعالى، وإذا انتهج نهجا دنيويا خالصا لا يلتفت لله في أي عمل يقوم به فقد انخفضت درجته عند الله، إذن هناك من يسعى للرفعة عند الخالق عزّ وجلّ وهناك من يسعى للرفعة في الحياة الدنيا، ومن هنا جاء الاختلاف الحقيقي بين البشر وجاء تقديم وتأخير العباد عن بعضهم البعض، قال تعالى: { إِنِّي أَمُنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ } 168، فالتكريم للعبد من الله أساسه عمل الإنسان وسعيه في الدنيا بالحق والخير وتأخير سعيه للدنيا وتقديم سعيه لله عزّ وجلّ.

وبما أن الإنسان بصفة عامة يقع تحت اختيارات كثيرة ومتنوعة في الحياة، فلا بد أن يملك الحكمة والعلم الكافيين لتقديم وتأخير الأشياء بعضها عن بعض ومن هنا يظهر ويتميز خلفاء الله، فنجدهم يؤخرون

167 الإسراء 21.

168 يس 25 . 27.

إرضاء البشر عن رضا الله، ويقدمون ما ينفعهم في الآخرة عن ما ينفعهم في الدنيا، فيكونوا مؤخرين لشهوات النفس وطلباتها الدنيوية، فلا يسعى لتوافه الأمور ويؤخر حق الخالق عليه، وسوف يعلم الإنسان يوم يقف بين يدي الله تعالى ما قدّم وما آخر، قال تعالى: {إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ يُنبَأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْفَىٰ مَعَاذِيرَهُ} {169}.

بذلك يكون من صفات خلفاء الله تعالى أنهم متأخرون في طلب الدنيا ومتاعها الزائل، لكنهم المسارعون في طلب الآخرة والسعي إليها، لعلمهم أن ما عند الله تعالى أبقى لهم، نزولا عند قوله تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفْلا تَعْقِلُونَ} {170}، وكذلك قوله تعالى: {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ} {171}، فكانوا سماعين لكلام الله زاهدين في الحياة الدنيا بما فيها، عيونهم وقلوبهم ممتدة شوقا للقاء الخالق الكريم، يرجون حلمه وعفوه ورحمته، يطمعون في صحبة رسولهم الكريم عليه الصلاة والسلام في جنة الخلد، تملئ قلوبهم الرحمة والحب، فيؤخرون حب الدنيا عن حب الآخرة، فالدنيا ما هي إلا هبة من الكريم ونعمة أهدانا إياها طالبا منا الحفاظ عليه، لذلك فخلفاء الله بالإضافة لا بد أن يكونوا على يقين أن من يتأخر عن الله يؤخره الله فلا فوز له في الآخرة بما شغله عنها في الدنيا من متاع زائل، يوقعه في الندم على ما فرط في الدنيا من وقت وعمل، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَّ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنْ

¹⁶⁹ القيامة 12 . 15.

¹⁷⁰ القصص 60.

¹⁷¹ الأعلى 17.

الصَّالِحِينَ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ {172، فالتأخير سيكون مطلب الإنسان الخاسر يوم القيامة، أملا منه بالنجاة مما يراه، ولكن المؤخر المطلق لن يؤخر الأجل الذي قدره هو عز وجل، قال تعالى: {يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجْلِ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {173.

واعلم أيها الخليفة الذي أراده الله على الأرض إنك إذا وصلت متأخرا إلى الحقيقة قد خسرت خسرانا كبيرا، كما خسر فرعون عندما أنزل الله تعالى عقابه عليه، عندها فقط أدرك متأخرا جدا أن الله حق وأنه لا إله إلا هو سبحانه وتعالى، فلم يحدد إلا الندم والعذاب بتأخير هذا الاعتراف الذي هو أصل كل النجاح والسعادة.

فشعورك بالاستسلام لله وخضوعك للرحيم المطلق الذي يمنحك راحة لن تجدها في مال أو ولد أو زوجة أو أي شيء آخر، لن تجده إلا بين يدي الله تعالى، وهذا ما يخسره الكافر، قال تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ أَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَعَافُونَ {174، فلا تؤخر أيها الخليفة شعورك بالسعادة، وهذا الشعور لا يأتي إلا ببحك لله، الذي يجب أن يرحمك فكيف لا يؤخرك رحمة بك؟.

وعليه فالمؤخر يؤخر لأجل أن يُقدم، يؤخر الظلم ليقدم العدل، ويؤخر الغضب ليقدم الرضا، ويؤخر الجهل (الظلام) ليقدم العلم (النور)، ويؤخر

¹⁷² المنافقون 9 . 11.

¹⁷³ نوح 4.

¹⁷⁴ يونس 90، 91.

الافتتال ليقدم الجهاد، ويؤخر الكره ليقدم المحبة، ويؤخر الحسد ليقدم المودة، ويؤخر العذاب ليقدم المغفرة، ويؤخر الكفر ليقدم الإيمان به واحداً واحداً لا شريك له ولم يكن له كفواً أحد، ويؤخر الفقر ليقدم الزكاة والصدقة والغنى، ويؤخر الركوع والسجود لغيره ويقدم الركوع والسجود له، ويؤخر الطلاق ويقدم الزواج، ويحقّ الحقّ ويبطل الباطل ولو كره المجرمون.

ولأنّ اجتناب إسحاق نبيا وهو هبة من الله تعالى فقد ذكر الله تبارك وتعالى إسحاق بمدحه والثناء عليه في أكثر من آية من القرآن الكريم فقد، جاء في مدحه ومدح أبيه وابنه صلّى الله عليهم وسلّم قوله تعالى: {وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ} 175.

وخصّه الله تعالى بالصّلاح وجمع البركة له ولأبيه في قوله تعالى: {وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ} 176.

وقد مدحه رسول الله صلّى الله عليه وسلم بقوله: "إنّ الكريم بن الكريم بن الكريم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم قال: ولو لبثت في السجن ما لبثت ثمّ، جاءني الرسول أجبت. ثمّ قرأ (فلما، جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) قال: ورحمة الله على لوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد

175 - ص 45 - 47.

176 - الصفات 112 - 113.

إذ قال (لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) فما بعث الله من بعده نبيا إلا في ذروة من قومه"177.

فهؤلاء الأنبياء الأربعة الذين مدحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، هم أنبياء من نسل واحد، ولا يوجد بين الناس أنبياء متناسلون غيرهم وهم يوسف ويعقوب وإسحاق وإبراهيم.

إنَّ إِسْحَاقَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِمْ كَمَا أَوْحَى لِبَقِيَةِ الْأَنْبِيَاءِ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}178.

لا شكَّ أنَّ دعوة إِسْحَاقَ بنِ إِبْرَاهِيمَ عليهما الصَّلَاةُ السَّلَامُ بما أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ كَانَتْ إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ وَإِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ بِشَرِيعَةٍ مَبْنِيَّةٍ عَلَى الْإِسْلَامِ لِيَبْلُغَهَا وَيَعْلَمَهَا لِلنَّاسِ، قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْئِيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}179.

وقد أرسله الله تبارك وتعالى إلى الكنعانيين في بلاد الشام وفلسطين الذين عاش بينهم.

ذكر الله تعالى نبيه إِسْحَاقَ بالصفات الحميدة وجعله نبيا ورسولا، وبرأه من كلِّ ما نسبته إليه الجاهلون أو المتعمدون ادعاء نسبه إلى عقيدة نفاها الله عنه، وأمر الله قومه بالإيمان به كغيره من الأنبياء والرسل، ونفى عنه وعمّن ذكرهم من الأنبياء اليهودية أو النصرانية بقوله تعالى: {أَمْ تَقُولُونَ

177 - سنن الترمذي، ج 11، ص 383.

178 - النساء 163.

179 - آل عمران 19.

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى
قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ
بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ {180}.

لقد بشرت الملائكة إبراهيم بغلام حلیم هو إسماعیل قال تعالى: {وَقَالَ
إِلَيَّ ذَاهِبْ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبُّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ
حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ
فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ
الصَّابِرِينَ {181}.

فصفة إسماعیل المميّزة له والغالبة على الصفات الأخرى التي يحملها أنّه
(حلیم) وهي صفة والده إبراهيم حيث يقول الله سبحانه وتعالى: {إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ لِحَلِيمٍ أَوْاهٌ مُّنِيبٌ {182}.

ثمّ بشرت الملائكة إبراهيم بغلام عليم هو إسحاق حيث قال تعالى:
{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا
قَالَ سَلَامٌ قَوْمٍ مُّنْكَرُونَ فَرَأَىٰ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ
أَلَا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ وَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ فَأَقْبَلَتْ
امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ {183}.

وصفة إسحاق المميّزة له والغالبة على الصفات التي يحملها هو أنّه
(عليم).

180 - البقرة 140.

181 - الصافات 99-102.

182 - هود 75.

183 - الذاريات 24-29.

وعلم إسحاق ومن ورائه يعقوب وقبله إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ، هذا العلم الذي وصل إلى بني إسرائيل أعرضوا عنه ونبذوه وراء ظهورهم، وكان من المفترض أن يفيد بني إسرائيل هذا العلم الإلهي الذي، جاءهم من نبي عن نبي عن نبي في حسن عبادتهم لله والتفكر في آياته، غير أنّ أكثرهم فاسقون.

لقد استغلوا هذا العلم في ماديّات ولم يتوجهوا إلى الله سبحانه وتعالى، بل أغرقوا أنفسهم في الماديّات وظلموا أنفسهم بما كانوا يكسبون.

أمّا نبي الله إسحاق فما ورد عنه في القرآن الكريم لم يصل إلى درجة التفصيل كما هو الحال مع بعض الأنبياء مثل موسى وسليمان وعيسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ، وإمّا كانت إشارات منها:

البشرى به:

قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا، جَعَلْنَا صَالِحِينَ} 184

الوحي إليه:

قال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا} 185

صلاح النبي إسحاق:

من الصفات التي ذكرها الله تعالى في حقّ إسحاق أنّه من الصالحين، والصلاح هو منتهى الصفات الحميدة التي لا يشوب صاحبها فساد رأي

184- الأنبياء 72.

185 البقرة 163.

أو اعتقاد لذلك مدح الله تعالى أنبياءه وعباده بهذه الصفة، وقد جاء في تعريفها اللغوي أنّ: "الصّلاح ضد الفساد صلح يصلح ويصلح صلاحاً وصلوحاً، وهو صالح وصليح والجمع صلحاء وصلوح وصلح وصلحون، ورجل صالح في نفسه من قوم صلحاء ومصلح في أعماله وأموره وقد أصلحه الله وربما كنّوا بالصالح عن الشيء الذي هو إلى الكثرة كقولهم هي مطرة سالحة، وهذا الشيء يصلح لك والإصلاح نقيض الإفساد والمصلحة الصّلاح والمصلحة واحدة المصالح والاستصلاح نقيض الاستفساد وأصلح الشيء بعد فساده أقامه"186.

فالصّلاح فضيلة يتحلى صاحبها بـ:

التوحيد

الإيمان

العقيدة

الأخلاق

ولذا، فقد خصّ الله تعالى أنبياءه وعباده المقربون بهذا الوصف فقال في حقّ عيسى صلى الله عليه وسلّم: { إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ }187.

إنّ عيسى صلى الله عليه وسلّم:

كلمة من الله تعالى.

186 - لسان العرب، ج 2، ص 516.

187 - آل عمران 45، 46.

وَحِيَّهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

من المقرَّبين عند الله تعالى.

مكلّم للناس في المهّد وكهلا.

فكلّ واحدة من هذه الصفات من العظمة والشرف بمكان، ومع ذلك فقد ختم الكلام بما وصفه به أن، جعله من الصالحين وعليه:

فإنه لا رتبة أعظم من كون المرء صالحا لأنه لا يكون كذلك إلا ويكون في، جميع الأفعال من الأوامر والنواهي مواظبا على:

النهج الأصح

الطريق الحقّ

السبيل الرشيد

وهذا النهج هو صلاح الدين والدنيا لأنّه يتناول، جميع أفعال الجوارح والقلوب، ومن الملاحظ في كثير من الآيات التي تتكلّم عن الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم، تذكر بعض التفاصيل عن صفاتهم ثمّ يردف ذلك بالصلّاح الذي يدل على أرفع الدرجات.

وأما قوله تعالى في يونس صلّى الله عليه وسلّم: {فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} 188. فهذا لا يعني أنه لم يكن صالحا، فكيف وهو النبي المصطفى، ولكن هذا يدل على:

أنّ الصّلاح يكتسب

الصّلاح درجة عالية لا يناها إلا أهل الاجتباء

صفة الصّلاح تنسلخ عمن يتصف بها

صفة الصّلاح تعود لمن انسلخت عنه

النبوة ثابتة لا تنسلخ

النبوة اصطفاء

الصّلاح اجتناء

فعندما اجتناه وجعله من الصّالحين عصمه من أن يفعل فعلا يكون تركه واجبا، وجعله من الصّالحين لأنّ الصّلاح إنّما يكون بجعل الله وخلقه وإن كان للعبد مدخل فيه بسبب الكسب بصرف إرادة، جزئية.

فهذا يوضح لنا معنى الصّلاح ودرجته ومكانته العالية، ولذا؛ فإنّ هذه الدرجة لسمو مكانتها وارتفاع شأنها وعظيم قدرها عند الله تعالى كانت مطلب كثير من الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم، لذلك طلبها سليمان عليه الصّلاة في قوله تعالى: {وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصّٰلِحِينَ} 189.

لقد أخبر الله تعالى أنّ إسحاق من الصّالحين الذين يؤدون العمل الصّالح ومن ثمّ يكون في العباد الصّالحين، ومع أنّ درجات الأنبياء أعظم من درجات الصّالحين إلا النبوة لا تنفك عن الصّلاح وإن انفك الصّلاح عن النبوة، ولذلك قال يوسف صلّى الله عليه وسلّم: {تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالحَقْنِي بِالصّٰلِحِينَ} 190.

علما أنّ يعقوب وإسحاق وإبراهيم صلّى الله عليهم وسلّمهم آباء يوسف وهم أنبياء، فهو لم يقل: الحقني بأبائي الأنبياء، وإنّما طلب

189 - النمل 19.

190 - يوسف 101.

للحاق بالصلحين التي هي من صفة آباءه الأنبياء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ، وعلى هذا يكون قد طلب الصّلاح التام وهو الذي لا يعصي الله ولا يهمل بمعصية وعلى هذا يكون طلب:

أن يجعله صالحا أبدا

أن يلحقه بالصلحين

الصّلاح صفة آباءه

آباؤه أنبياء

ومع علمه أنّ آباءه من أنبياء الله تعالى، كذلك هو كان نبيا، لأنّ طلب اللحق بالصلحين، جاء بعد أن رفع أبويه على العرش وذكر إيتاء الملك وأشياء أخرى تدل على نبوته حيث قال تعالى: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مَنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَآيَاتِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ} 191.

فالصلحون الذين استوت سريرتهم وعلانيتهم في الخير وصلحت أحوالهم عند الله تعالى فرضي عنهم، وهذه الصفة هي غاية المدح ويدل عليها النقل والعقل، أمّا النقل: فهو أن الله تعالى مدح بهذا الوصف الأنبياء والمرسلين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ

فقال بعد ذكر إسماعيل وإدريس وذو الكفل: {وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ} 192.

وقال مبشرا إبراهيم: {وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} 193.

191 - يوسف 101.

192 - الأنبياء 86.

193 - الصافات 112.

وذكر حكاية عن سليمان عليه السلام قوله تعالى: {وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ
فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} 194.

وأما العقل:

فيعلم أن الصّلاح ضد الفساد

وكلّ ما لا ينبغي أن يكون فهو فساد

سواء أكان ذلك:

في العقائد

أم في الأعمال

أم في الأخلاق

فإذا كان كلّ ما يحصل من باب ما يجب أن يكون فقد حصل
الصّلاح الذي يدل على أرفع الدرجات.

فالصالح هو الذي يكون صالحا في اعتقاده وفي عمله وسلوكه وتصرفاته
وكلّ ما يصدر عنه أو ما يكنه في قلبه ونيته.

والصّلاح فضيلة أخلاقية مشاعة يتصف الإنسان بها اختيارا بتوفيق الله
تعالى وذلك أنّ الإنسان يستطيع أن يكون صالحا بإرادته، ولا يستطيع
أن يكون نبيا لأنّ النبوة اصطفاء من الله تعالى.

والصّلاح درجات لدى الإنسان لا من حيث المكانة، وإنما من حيث
الخصوص أو الشمول وذلك أن يكون الإنسان:

صالحا في نفسه لنفسه

صالحا لنفسه ولأهله

صالحا لنفسه وأهله والآخرين

وهناك أسباب أخرى مما خص الله تعالى بها أنبياءه ورسله فوصفهم بأحسن الوصف ومدحهم بأجل الصفات بأنهم من الصالحين فقد، جرت سنة الله في وصف أنبيائه صلى الله عليهم وسلّم بأجل الصفات بعد النبوة فكان إسحاق من الصالحين:

حيث، جعلهم ورثة الأرض قال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} 195.

إبراهيم أبو الأنبياء منهم قال تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} 196.

بشر الله زكريا بنبي من الصالحين قال تعالى: {أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} 197.

عيسى منهم قال تعالى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ} 198.

{وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ} 199.

195 - الأنبياء 105.

196 - البقرة 130.

197 - آل عمران 39.

198 - آل عمران 45، 46.

199 - الأنعام 85.

بشر إبراهيم بإسحاق وهو منهم قال تعالى: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا
مِّنَ الصَّالِحِينَ} 200.

عندما اجتبي يونس، جعله منهم قال تعالى: {فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنْ
الصَّالِحِينَ} 201.

فهل بعد هذا استغراب في أن يصف الله تعالى نبيه إسحاق بأنه من
الصالحين، ونقف على بعض ما في الصّلاح من خلال قوله تعالى:
{لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ
يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ} 202.

فقد ذكرت الآية بعض صفات الصالحين التي تمثل عماد الإيمان
والعلاقة بين الإنسان وخالقه، والإنسان والمخلوقين في:

الإيمان بالله تعالى

الإيمان باليوم الآخر

الأمر بالمعروف

النهي عن المنكر

الإسراع في الخيرات

فمن حمل هذه الصفات فقد انتمى إلى من وصفهم الله تعالى بأنهم من
الصالحين.

200 - الصافات 112.

201 - القلم 50.

202 - آل عمران 113، 114.

إسحاق غلام عليم:

قال تعالى: {قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ} 203

وقال تعالى: {فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ

عَلِيمٍ} 204

وجعل الله تعالى إسحاق عليما، بأن العلم صفة ملازمة له لأنها من تمام النبوة التي لا ينفك عنها العلم بحال من الأحوال، وهذا العلم هو علم نسبي إلى علم الله تعالى، ومع ذلك فعلم الأنبياء وما، جاؤوا به عن الله تعالى إنما هو أصل العلم ولا يمكن أن يُدرك بالعقل دفعة واحدة، وإنما يكتسب، فبعضه:

. بالنقل عن النبوة كونه وحيا أوحاه الله إليهم بواسطة، جبريل عليه

السّلام

. أو كلام يكلم به رسوله بغير واسطة كما كلم موسى صلى الله عليه

وسلم

. أو يوحي الله بإذنه ما يشاء لمن يشاء

فعلم النبوة يختلف عن علم البشر كون الأنبياء صفوة الخلق فلا شك أنّ علمهم صفوة العلم، وإن كان الإنسان يمتلك علما في إدارة شؤونه الخاصة في الحياة ناتجا عن تجربته وتجارب أجيال سابقة عليه، فهو يتفاعل مع الحياة ومشكلاتها والكون وأسراره، ولكنّه بحاجة إلى من يرشده إلى طريق الحقّ ويصّره سبل الهداية ونور اليقين وصولا إلى الفطرة السليمة التي فطر الله تعالى عليها خلقه.

203- الحجر 53.

204- الذاريات 28.

فإسحاق كان العلم صفة من صفاته ومّا خصه الله به في إبراز هذه الصفة دون غيرها من الصفات الكثيرة التي يتميز بها الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم، وقد أبرز الله تعالى أهم صفة من صفات النبوة في إسحاق صلّى الله عليه وسلّم، فهو لم يصفه بالعلم مثل (عالم) حتى يتبين الفرق بين العلم وبين من يحمل العلم أو، جزءاً منه، فوصفه بأنّه عليم بعلمه وكليته ولكن الغاية ليست الشخص نفسه، وإنما الغاية التي يريد أن يؤكد عليها أن قضية العلم هي أساس القضايا دقيقها وجليلها في مسألة النبوة، وكلّما كانت القضية عظيمة احتاجت إلى علم يوازيها في العظمة من أجل إنجازها، وهذا العلم الذي يجب أن يوازي القضايا ويكافئها لا بدّ أن له مصدر يستقى منه، وهذا المصدر هو العلم الذي مصدره الله تعالى لذلك وصفه بأنه عليم بما علمناه من العلم وحيا أو تدريجاً:

إذ أنّ العقل البشري لا يقوى وحده على إدراك سنن الكون كاملة

لا يقدر بوعيه المحدود على فهم خبايا هذا الكون من الوجود

إذا فهم الحياة فإنه يحتاج من يفهمه معنى ما بعد الحياة

إذا فهم علم الظاهر فهو، جاهل ليفهم علم الباطن

من يفهم من علم الوجود فقد لا يفهم علم الغيب

ولهذا، فقد وهب الله لإسحاق خيراً كثيراً وفضلاً عظيماً بما علّمه من علم النبوة الذي تنبثق عنه مناهج الهداية التي حملها الوحي إليه، ومن هذا المنهج تعلم علمه.

وعليه: فقد أمدّ الله سبحانه وتعالى إسحاق بمنهج قويم ومسلك أمين هو العلم الذي يدلّه على سبيل الهدى وطرق الرشاد وصولاً إلى الفوز

المبين بما رزقه من علم النبوة المتوارث حيث قال تعالى: {فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ
خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِنِعْمَةٍ عَلِيمٍ} 205.

العلم يؤدي إلى البينة

البينة تؤدي إلى الإيمان

الإيمان يؤدي إلى الاستقامة

الاستقامة هي الطريق السوي

الطريق السوي هو سنة الله لعباده

هذه السنة أو القوانين الإلهية تفتح أمام العقل آفاقا

فالعلم يعني الإيمان اليقيني بالسنن الربانية التي تحكم الكون كلياً (في
دائرة الغيب المطلق لله تعالى).

أو سنة تحكم ظاهرة من الظواهر الكونية، جزئياً مما يعرفه الإنسان (في
دائرة المعرفة النسبية).

وأن السنن ذاتها تقوم على أساس أولي من ارتباط العلة بالمعلول أو
ارتباط النتيجة بالسبب ارتباطاً لازماً، وهذا يعني أن اجتماع أسباب معينة
يؤدي إلى نتيجة معينة في ظاهرة من الظواهر بما فطرها الله عليها،
وانطلاقاً من هذه الحقيقة يمكن أن يكتسب الإنسان قدرة معينة من
خلال العلم على التنبؤ بأمور معينة عنه، فعندما تتوافر لديه مجموعة من:

الأدلة

القرائن

المقومات

أو هذه الأسباب مجتمعة فإنها توصله إلى معرفة الحقائق اليقينية ومعرفة وجودها يقينياً عن طريق العلم الذي هو الأداة والسلطان والوسيلة للوقوف على حقائق الأشياء.

وهنا يجب أن نفرق بين أنواع العلم الكثيرة، ولكن الأمر الذي نحن بصدده من علم النبوة الذي علّمه الله تعالى إسحاق نوعان من العلم هما:

العلم الوقفي الذي يتمثل في:

آ . علم الوهب:

قال تعالى: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا} 206.

ب . علم الوحي:

قال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} 207.

ج . علم الوراثة:

قال تعالى: {وَوَرَّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ} 208.

العلم المكتسب ومصادره:

206 - الكهف 65.

207 - النساء 163.

208 - النمل 16.

بعد ذلك نقول: إن إسحاق كان عليماً كما وصفه الله تعالى في كتابه الحكيم، ولذا فهو قد فاق درجة العالم لأنه عليم وهو بعد ذلك عليم بمن دونه وهناك عليم من فوقه لقوله تعالى: {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَالِمٌ} 209

فالعلم المكتسب مصادره كثيرة منها:

آ . الأخبار السمعية:

قال تعالى: {وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ} 210.

ب . الأدلة الفكرية العقلية:

قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَنْ يَعْبُدُ يَخْلُقُهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} 211.

ج . المعاينة الحسية:

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ} 212.

وعندما قال الله تعالى عن إسحاق صلى الله عليه وسلم: (وبشروه بغلام عليم) فهذا لا يعني أن الغلمان غير إسحاق لا يكونون عالمين، ولكن أراد الله تعالى أن يميز العلم الخاص الذي علمه لإسحاق عن العلم

209 الرعد 76.

210 - المائة 27.

211 - الأحقاف 33.

212 - الأنعام 95.

العام الذي يعلمه، جميع الغلمان، لأنّ العلم الخاص هو دليل العلم العام،
ولتوضيح ذلك نقول:

إنّ الله تعالى خلق الإنسان وكرّمه بفضله، وقد أمدّه من علمه بقدر
علم الله بتحمل نسبة العلم، وجعل له:

عقلا

وسمعا

وبصرا

وفؤادا

وكذلك فإنّ الله تعالى، جعل الأرض للإنسان ذلولا، وسخر له الكون
وما فيه من نعمة له ووهبه قوى التعقل والتدبر والنظر وأعطاه الحياة
والوقت في الزمن، ثمّ كلفه برسالة الاستخلاف في الأرض.

ولكن الإنسان وهو يتفاعل مع الحياة ومشكلاتها، وينظر في الكون
وأسراره، والتاريخ وسننه وقوانينه، والحضارة ومحركاتها وما يؤثر فيها، هو
بحاجة إلى مرشد يبصره بطريق الحقّ ونور اليقين الذي يدلّه على مسالك
الرشاد، إذ العقل البشري على ما أوتي من علم عام لا يقوى وحده على
إدراك سنن الكون والحياة بما تحتوي من خير وشر، ولا يقدر بوعيه
المحدود أيضا على فهم خبايا الكون والحياة والوجود.

ولذا؛ فقد وهب الله لبني البشر خيرا آخر، وفضلا عظيما من أفضاله،
ذلك هو العلم المخصوص الذي يتمثل في علم النبوة الذي انبثقت عنه
مناهج الهداية التي حملها الوحي إلى الإنسان عن طريق الأنبياء والرسل
صلّى الله عليهم وسلّم.

إذن، قد أمد الله سبحانه وتعالى الإنسان بمنهاج قويم، ومسلك أمين
يدله على سبيل الفوز المبين ومن هنا كان إسحاق عليهما بما جهله
الآخرون من العلم وذلك بما علّمه الله تعالى وبشر به أباه إبراهيم عليهما
الصّلاة والسّلام أجمعين.

من

صفات النبي إسحاق

1 . إسحاق هبة من الله:

قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كَلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمَنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} 213.

لقد وهب الله تعالى إسحاق لإبراهيم وهبا دون مقابل رحمة منه تعالى لأنه هو الوهاب الذي يعطي الهبة، وقد جاء في لسان العرب: "وهب في أسماء الله تعالى الوهاب، الهبة العطية الخالية عن الأعواض والأغراض، فإذا كثرت سمي صاحبها وهابا، وهو من أبنية المبالغة. غيره الوهاب من صفات الله المنعم على العباد والله تعالى الوهاب الواهب وكل ما وهب لك من ولد وغيره فهو موهوب والوهوب الرجل الكثير الهبات، وهب لك الشيء يهبه وهبا ووهبا بالتحريك وهبة والاسم الموهب والموهبة بكسر الهاء فيهما ولا يقال وهبك، وأنه سمع أعرابيا يقول لآخر انطلق معي أهبك نبلا، ووهبت له هبة وموهبة ووهبا ووهبا إذا أعطيته، ووهب الله له الشيء فهو يهب هبة، وتواهب الناس بينهم وفي حديث الأحنف ولا التواهب فيما بينهم ضعة يعني أنهم لا يهبون مكرهين، ورجل واهب ووهاب ووهوب ووهابة أي كثير الهبة لأمواله والهاء للمبالغة، والموهوب الولد صفة غالبية وتواهب الناس وهب بعضهم لبعض والاستيهاب سؤال

الهبة واتهب قبل الهبة واتهبت منك درهما افتعلت من الهبة والانتهاب قبول الهبة"214.

بداية يخطر تساؤل على الذهن وهو لماذا قال: وهبنا له، وخصّ الهبة دون المنح أو العطية؟ ولم يقل:

. أعطيناها.

. منحناه.

إنّ كلّ كلمة من هذه الكلمات تعطي معنى معين غير مترادف وإن اشتركت جميعها في الأخذ والامتلاك، ولكن هذا الأخذ والامتلاك والعطية أمّا أن يكون:

جزئيا

أو كلياً

أو مؤقتاً

أو دائماً

أمّا المنح فهو أخذ الشيء إلى أجل للانتفاع به ثمّ رده بعد ذلك فقد جاء في لسان العرب: "المنحة مردودة والعارية مؤداة والمنحة أيضا تكون في الأرض يمنح الرجل آخر أرضا ليزرعها"215.

وأمّا العطاء فلا يصح إلا لشيء مادي يتم فيه التناول والتداول، "وقد أعطاه الشيء وعطوت الشيء تناولته باليد والمعاطاة المناولة"216.

214 - لسان العرب، ج 1، ص 803

215 - لسان العرب، ج 2، ص 607

216 - لسان العرب، ج 15، ص 68

فالوهاب الذي يعطي الهبة هو الله تعالى، والهبة عطاء الشيء بلا عوض، والله وهاب يعطي بلا عوض ولا مقابل ولا منّ ما يشاء لمن يشاء، قال تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الدُّكُورَ أَوْ يُرَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} {217}.

إنّ عطاء الله تعالى في الدنيا ابتلاء لاختبار عباده بما أنعم عليهم، وأمّا في الآخرة فهو إنعام وجزاء وتفضل على عباده بما كانوا يصبرون، ولأنّ إبراهيم من الصابرين فقد أنعم الله تعالى بهبته له أن رزقه إسحاق، قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ} {218}.

إنّ وهب الله تعالى وعطائه في الدنيا لعباده معلق بمشيئته ابتلاء للناس بحكمته، ليتعلق العبد بربه في الدعاء والطلب والرجاء مصداقا لقوله تعالى: {وَأَيُّ خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا} {219}.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ أُمَّامًا} {220}.

فالله عزّ وجلّ من أسمائه الحسنی الوهاب ومن صفاته أنّه يهب ما يشاء لمن يشاء وكيفما يشاء: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الدُّكُورَ} {221}.

217 - الشورى 49، 50

218 - الأنبياء 72

219 - مريم 5

220 - الفرقان 47

221 - الشورى 49

فإبراهيم إن وهب له الله تعالى شكر، وإن منعه صبر وازداد في التقوى والدعاء توحيدا لله في اسمه الوهاب وتعلقا بتحقيق ما يشاء وكان نتيجة شكر إبراهيم عندما وهب له إسماعيل قال: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} {222}.

فكان جزاء شكره من الله تعالى أن وهب له بعد إسماعيل، إسحاق ويعقوب وجعل في ذريته النبوة والكتاب، قال الله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} {223}.

فالوهاب من الله تعالى لا يتوقف عند حد، ولا يقتصر على أحد دون أحد طالما أنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعون الله تعالى رغبا ورهبا، ولذا، فقد استجاب الله تعالى لعبده زكريا، عندما كان ينادي ربه نداء خفيا، حيث قال تعالى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} {224}.

إن نعم الله تعالى على عباده الظاهرة والباطنة والدينية والأخرية لا تحب على الله في شيء فما يعطيه إنما هي هبات دون مقابل، وهي من الكثرة بحيث لا يدونها قلم ولا يحصيها حساب، قال تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ} {225}

وهبات الله تعالى كامنة في الأنفس وفي سائر المخلوقات، نراها ظاهرة بادية في سائر الآيات، هي نعم وعطاء وجود وهبات أنعم بها الله تعالى

222 - إبراهيم 39

223 - العنكبوت 27

224 - الأنبياء 90

225 - النحل 18

من اسمه الوهاب سبحانه وتعالى، حيث نقف على جزء بسيط من هذا الوهب:

قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ} 226.

وقال تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} 227.

فالوهب والهبة من الوهاب الذي يهب النعم لمن يشاء من خلقه، قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا} 228.

وقال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا} 229.

وقال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ} 230،

فالهبة من الوهاب سبحانه وتعالى، هو الذي يكثر العطاء بلا عوض، ويهب ما يشاء لمن يشاء بلا غرض، ويعطي الحاجة بغير سؤال، فقد وهب إسحاق لإبراهيم صلى الله عليهما وسلّم بغير سؤال ولا طلب.

إنّ الهبة من مخلوق لمخلوق إنما يكون عمادها والقصد منها ومبتغاها غالباً ما ينصبّ على الدنيا ومباهجها وذلك أنه يدخلها أشياء كثيرة من الطمع الإنساني مثل:

. حب المفاخرة.

. غريزة حب التملك.

226 - الأنعام 84

227 - ص 39

228 - مريم 50

229 - مريم 53

230 - الأنبياء 72

. الميل إلى الغنى والثراء.

. التمتع بمباهج الدنيا وملذاتها.

. التكاثر في الأموال والأولاد.

هذه الأمور تغري الموهوب بالتوسع والزيادة في أسباب الكسب حلاله وحرامه، فلا يبالي بأكل أموال الناس بالباطل من ربّا وسرقة وغصب واختلاس وغش ونحو ذلك إلا ما رحم ربّي، وهذا يترتب عليه حب التسلط والتعالي والتعاضم فيستكبر ويتجبر على الخلق ويحقرهم ويسخر منهم، وقد يكون الوهب من مخلوق إلى مخلوق من أهم الأسباب التي تدفع بالنفس الإنسانية إلى الاستزادة من أنواع ما وهب بصرف النظر عن الطرق التي يستحوذ عليها ممّا تشتتبه نفسه فيلجأ إلى:

. الغصب.

. هضم الحقوق.

. السطوة.

. إضاعة حقوق الله تعالى.

أما الهبة من الله تعالى لنبي من أنبيائه فهي تختلف عن هبة مخلوق لمخلوق لأنه قائمة على:

. أداء حقوق الله تعالى.

. أداء حقوق الخلق.

. ترتيب منازل الخلق.

. إقامة حدود الله والمحافظة عليها.

. تعظيم شعائر الله.

. إظهار عبادته.

. لزوم طاعته.

. تبليغ رسالته.

يترتب على ذلك تحقيق الوعود في أنه يعلم ما لا يعلم أحد من خلقه حسب ما صرح بذلك لملائكته فقال تعالى: {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 231.

إنّ الغاية الإلهية ومراد الله تعالى لخلقه أن الإنسان لا يحتاج إلا إلى الله تعالى لما وهب لخلقه من نعم على تفاوت هذه النعم بين إنسان وآخر، ولكنهم جميعهم يملكون على قدر حاجتهم بما علمه الله تعالى فقدّره لهم، وأراد للإنسان أن يكون غنيا:

. بالبدن.

. بالنفس.

. بالروح.

وعلى هذا فإنّ الوهب هو منّة من الله تعالى يمنّ بها على من يشاء من عباده، فقد كان إسحاق هبة من الله تعالى لإبراهيم صلّى الله عليه وسلّم، فقد أتى الله تعالى إبراهيم الحجّة ووهب له إسحاق ويعقوب، قال تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأِهِ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كَلًّا هَدَيْنَا} 232.

231 - البقرة 30

232 - الأنعام 83، 84

وعليه:

وفي لسان العرب:

الوَهَّاب: من صفات الله المنعم على العباد.

والوَهَّوبُ: الرَّجُلُ كَثِيرُ الْهَبَاتِ.

والهبة: العطية الخالية من الأعواض والأغراض، فإذا كثرت سمي صاحبها وهاباً²³³.

وفي منهاج الحلبي الوهاب: هو "المتفضل بالعطايا والمنعم بها لا عن استحقاق عليه"²³⁴.

قال ابن سيده: الوهاب هو من "وهب كلَّ شيءٍ وهبه وهباً، ووهوب ووهابة كثير الهبة لأمواله"²³⁵.

وقال الأمام الطبري: الوهاب هو معطي عباده التوفيق والسداد للثبات على الدين وتصديق الكتاب والرسول وهو من يهب لمن يشاء من مُلك وسلطان وغيره.²³⁶

أمّا الأمام الغزالي فقال: "الهبة هي العطية الخالية من الأعواض والأغراض فإذا كثرت العطايا بهذه الصفة يسمى صاحبها جواداً وهاباً"²³⁷.

²³³ لسان العرب المحيط، ج 3، ص 990.

²³⁴ المنهاج للحلبي. ج 3، ص 125.

²³⁵ ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث. ج 5، ص 231.

²³⁶ الطبري، جامع البيان. ج 3، ص 125.

²³⁷ أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. بيروت، دار الكتاب العلمية، ص

ويقول الخطابي: الوهاب هو الذي يجود بالعتاء عن ظهر يد من غير استثابة²³⁸.

والوهاب في نونية ابن القيم جاء على الآتي:

وكذلك الوهاب من أسمائه فانظر مواهبه مدى الأزمان

أهل السماوات العلى والأرض عن تلك المواهب ليس ينفكان²³⁹

الهبة هي العطية الخالية من الأعواض والأغراض، فإذا كثرت سمي صاحبها: وهّاباً²⁴⁰.

ويقول أحمد عبد الجواد: "القهار الجوّاد المنعم المفضل بالعطايا، كثير النّوالِ دائم المعروف على جميع خلقه، وسع الخلق بوجوده ورحمته"²⁴¹.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: "أنّ رسول الله كان إذا استيقظ في الليل قال: لا إله إلا أنت سبحانك اللهم أني أستغفرك لذنبي وأسألك برحمتك، اللهم زدني علما ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب"²⁴².

الوّهّاب هو الفعّال لما يُريد، فهو الذي يهب لمن يشاء ما يشاء كيف يشاء، ذرية صالحة ذكورا أو إناثا، أو حكمة أو حكما أو مالا حلالا.

الوّهّاب كثير العطايا وهو من يعطي ولا ينتظر من وراء ما يُعطي شيئا. ولو كان ينتظر شيئا لاستوقف ما يهبُ حيث لا أحدا لديه ما يعطي

²³⁸ شأن الدعاء للخطابي، ص 53.

²³⁹ النونية، ص 146.

²⁴⁰ يوسف المرعشلي، والله الأسماء الحسنى. بيروت. دار المعرفة، 2003، ص 136.

²⁴¹ أحمد عبد الجواد، والله الأسماء الحسنى فادعوه ها. القاهرة. دار الريان للتراث ص 59.

²⁴² سنن أبي داود، ج 14، ص 416.

للمعطي المطلق، وذلك لأنه لم يكن من الذين خُلقوا على الحاجة. فلو كان لا يعطي إلا بمقابل لاستوقف عطائه عن كلّ الذين أعطاهم ولم يعطوه شيئاً، ولو كان الأمر كذلك لاستوقف عطائه عن الذين كفروا به وأشركوا. فمقابل ماذا يهبّ لهم الرزق والبنين والملك والعلم، هل يُعطهم هذا لأجل أن يشركوا ويكفروا به؟ أم من أجل أن يعبدوه؟ أم مقابل ماذا؟

لم يكن بمقابل. ولكن لأنهم خلقه وعباده كما جاء في قول عيسى عليه الصّلاة والسّلام في قوله تعالى: {إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَعْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {243}.

وهذا لا يعني أنّهم سيتركون هكذا، بل لإعطائهم الفرص فهو يُهمّل ولا يُهمّل مصداقاً لقوله تعالى: {فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا} {244}.

ولذا فإنّ الوهبّ المطلق: هو الغلاب المطلق، الذي لا يقدر على مغالبتة أحد ولو اجتمع الثقلان بشأنه. فهو الغالب بهباته ألاّ محدودة، وعطاياه المتنوعة، وحسناته المتعددة، وغفرانه للذنوب، وعفوه وتكفيره عن السيئات والخطايا. إنّه الذي يهب الحكمة والحكم، والعلم والرزق، وكلّ شيء لمن يشاء. ومع أنّه يعطي كلّ ذلك إلا أنّ البعض يكفر به ويُشرك.

قال تعالى: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} {245}. في هذه الآية الكريمة مطلب المؤمن من ربه لأنّ يُثبت قلبه على الإيمان ولا يحيد عنه، ومع أنّ هذه الآية سابقة

²⁴³ المائدة، 118.

²⁴⁴ الطارق، 17.

²⁴⁵ آل عمران، 8.

على أيام الردة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنها إلا وكأنها تحتويها حيث العلاقة بين ما تدل عليه وبين الذين زاغت قلوبهم بعد الإيمان من بعد موت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان هذا الدعاء في أفواه المؤمنين حتى لا تضعف النفوس وتدخلها الظنون، فانتشر بين المؤمنين هذا الدعاء لله الوهاب الذي يهب الرحمة على من يشاء دون منة ولا انتظار مقابل.

وإزاحة القلوب تعني: ميلها وحيادها عن الحق، فالبعض بعد موت الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ولو وارتدوا إلى ما كانوا عليه من شرك وكفر، أي أنهم انحرفوا عن الطريق المستقيم وعادوا إلى الطريق المعوج. ولأنه طريق معوج فهو في حاجة للإصلاح مما جعل أبوبكر يسلك نهج الإصلاح وتقويم الأمور حتى لا يعم الفساد وتعود الأحوال إلى ما كانت عليه من ظلمة وجهالة.

وفي قوله (وهب لنا من لدنك رحمة) تضرع دعائي غائي يأمل به المؤمن أن تعمه الرحمة هبة من الله تعالى. وذلك لإيمان الداعي بأنه تعالى هو واسع الرحمة مصداقا لقوله تعالى: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} 246.

فهب لنا، تعني: أمنحنا وارزقنا عطاء من غير حساب يا من ترزق من تشاء من غير حساب. ومن (لدنك، تعني) من عندك أي من ملكك ورحمتك الواسعة التي تنعم بها على من تشاء من عبادك.

وقوله (إنك أنت الوهاب) تأكيد على أنه لا وهاب غيره، أي لا معطي غيره بدون قصد وغاية أو منة؛ وتدلل على الرغبة الشديدة في الدعاء والالتجاء إليه وتؤكد على عدم قصد الغير (إنك أنت) ولا سواك.

فأنت الوهاب: واسع العطاء والفضل لمن يدري ولمن لا يدري سبحانه
لا إله إلا أنت الوهاب.

عن أم سَلَمَةَ رضي الله عنها، أنّ النبي كان يقول: "يا مقلب القلوب
ثبت قلبي على دينك ثم قرأ الآية" 247 (ربنا لا تُرغ قلوبنا بعد إذ هديتنا
وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب).

والموهوب من العباد هو الذي له صفات وملكات متنوعة ويجيد أو
يحسن التصرف فيها، ممّا يجعله متميزا على أقرانه أو متميزا في جيله.
يدرك معطيات الأمر ويحلل متغيراته ويستنتج الصواب في الزمن الصواب،
ويعمل بمهاراته المتنوعة على إظهاره من فكرة إلى موضوع ليشغل به حيزا
ويملاً به فراغا حتى يستمده الآخرون من بعده.

وبما أنّه موهوب، إذن فمن ورائه وهّاب، وإلا من أين جاءت المواهب،
ولذا فالوهاب مصدر الهيبة التي جاءت في اللغة من المصدر يهب. ولأنّه
الوهاب فهو يهب لمن يشاء ما يشاء، ممّا يجعله هو الآخر يهب من ما
وهب إليه الوهاب الأعظم. ولهذا فالإيهاب صفة حسنة استمدت من
الوهّاب المطلق حتى أصبحت قيمة بين المستخلفين من العباد في دائرة
الممكن غير المتوقع.

قال تعالى: {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِرٌ رَّحْمَةٍ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ أَمْ هُمْ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ} 248 في هذه الآية
جاءت (أم) استغرابية استفهامية لأجل الرد استهزاء على ما يقوله
المشركون من كباثر ويفعلون، فما هي حجّة هؤلاء فيما يقولون على الله
ورسوله وأيضا فيما يقولونه عن آلهتهم التي اتخذوها أربابا من دون الله

²⁴⁷ سنن الترمذي، ج 13، ص 21..

²⁴⁸ ص، 9، 10.

تعالى وهي من تراب ولا روح فيها، حيث لا تنفع ولا تضر ولا تسمع
ولا تحس ولا تفرح ولا تغضب؟

فهل هؤلاء وما يدعون يملكون خزائن الرحمة التي مفاتيحها عند الله
العزیز الوهاب حتى يقولوا ما يفترون؟ فهؤلاء وما يعبدون من دون الله لا
يستطيعوا أن يخلقوا بعوضة ولو اجتمعوا، ولذا لا يليق بمن خلق في
أحسن تقويم وأريد به لأن يرث الأرض ويستخلف فيها، ولا يسفك
الدماء بغير حق، ويتقي الله ربّه، أن يتخذ مع الله إلهاً آخر. قال تعالى:
{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ
ظَهِيرًا} 249 وقال عز وجل: {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ
إِنكًا} 250.

قال تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ
قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ
الْوَهَّابُ} 251 في اعتقادنا فتنة سليمان فتنة مُلك الذي يتعلق أمره
بالخاتم الذي به سرا، حيث ضياعه جعل الملك يضيع من سليمان
صلوات الله وسلامه عليه، إلى أن وجده بعد ضياع فعاد له الملك وأزيل
من كان متربعا على كرسي الحكم جسدا لأيام معدودة دون أن يعمل
شيئا بأمر الملك والحكم مصداقا لقوله (جسدا) أي صورة فقط ولا
صلاحيات لها. و(ثمّ أناب) تاب إلى الله تعالى أي حمده وشكره على ما
وهب له من فضل ونعم بإعادة الخاتم إليه بعد ضياع؛ ثمّ قال: (ربّ اغفر
لي) على الأسباب التي جعلتني أضيع الحكم بإضاعة الخاتم. ثمّ تلاها
قائلا: (وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي) الوهب عطاء لا

249 الفرقان، 55.

250 العنكبوت، 17.

251 ص، 34، 35.

يؤخذ، ولذلك قال: (هب لي) ولم يقل أعطني أو أرزقني أو امنحني؛ وذلك لأن الوهب يبقى ولا يزول إلا بزوال الحاكم الموهوب إليه الحكم، وهذا ما جرى مع سليمان عليه الصّلاة والسّلام وحكمه.

ولذا علينا أن نستقرأ المطلقية من اسمه الوهّاب، فهو الذي إن وهب بث المطلقية فيه حيث لا يعترضه عارض ولا يحول بينه حائل حتى النهاية، أو أن ينزعه منه نزعا إن دخل الحكم الموهوب منه في دوائر الفساد، ولذلك فهو يؤتي الحكم لمن يشاء مصداقا لقوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 252.

وقد يتساءل البعض: عن السرّ الذي من وراء قوله (لا ينبغي لأحدٍ من بعدي)؟ السرّ إنه يريد مملكا لا يزول إلا بزواله، أي ربّط بقاء الملك ببقائه وزواله بزواله، فإذا ما وهب له الله ملكا فلا يأمل أن ينزعه عنه أو منه نتيجة إيمانه بأنه قادر على أن يؤتي الملك لمن يشاء وعلى أن ينزعه ممن يشاء مصداقا لقوله (تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء).

وقوله أنت الوهاب: تعني لا غيرك قادر على أن يستجيب لهذا المطلب أو هذا الترجي والأمل، ولوجود الأمل في قلب سليمان قال أنت الوهاب أي لا شكّ لي في أنك لا تحب لي مملكا لا يكون لأحدٍ من بعدي، وهذا لا يعني أن سليمان يعلم بعلم الغيب، بل يعني وثوق الإيمان في قلب سليمان عليه الصّلاة والسّلام.

ومع أنّ غالبية العباد المراد استخلافهم في الأرض يقصرون تفكيرهم على ما هو متوقّع إلا أنّ القلة والذين منهم سليمان لا يقصرون تفكيرهم في دائرة الممكن المتوقّع فقط، بل يمدونه إلى دائرة الممكن غير المتوقّع.

252 آل عمران، 26.

ولهذا كان الإيمان راسخا في قلب سليمان بأن الوهاب الأعظم إن دعوته مخلصا له الدين استجاب لك بتوبةٍ أو غفرانٍ أو هدايةٍ أو يُهبِكَ رحمةً ممّا هو أكبر. ولهذا دعاه بما هو أكبر فاستجاب له الوهاب الأكبر بأن وهبه ملكا لم يكن لأحدٍ من بعده.

الوهاب هو الذي يهب ما يشاء لمن يشاء بدون توقُّع إذا ما استثنينا الأنبياء والرسل والصالحين الذين تمتد عقولهم في دائرة الممكن لتُؤسِّسَ المتوقَّع وغير المتوقَّع اللذين يخترقهما الله بعلم الغيب.

في ما يتعلق بالأمر المتوقَّع لا تحدث المفاجآت إذا ما وقع الأمر أو حدث، بل المفاجآت والاستغرابات تقع إذا وقع ما هو غير متوقَّع وفقا لحسابات العباد، ولذا فالعباد المؤمنون برسالة محمد يتوقعون دائما إعطاء الزكاة وأخذها من قبل من هو في حاجة، وهكذا الصدقات تعطى في دائرة الممكن المتوقَّع لمن هم في حاجة إليها؛ وهكذا يدخل الصوم والصلاة والحج في دائرة المتوقَّع في المجتمعات المؤمنة. أمّا ما يهبه الوهاب تعالى فهو الذي يحدث في الزمان والمكان غير المتوقَّعين ممّا يجعل المفاجآت والاستغرابات مصاحبه له في عقول العباد.

وعليه: فالهبة فعل محض ولا تقع إلا بعلم الوهاب الذي يملك الأمر الذي إن صدره وقال له كن، فيكون. ومع ذلك بما أن الوهاب اسم وصفة، إذن فاستمداد هذه الصفة لا يخرج عن دائرة الممكن المتوقَّع.

فإذا عُدنا لنميز بين ما يُعطى فيؤخذ، وبين ما يُوهب فيكون مع الأمر (كن) نقول الزكاة والصدقة بين البشر يؤخذان ممن يُعطي، مع احتوائهما لزمن الانتظار حتى يأتي وقت استخراجهما أو إعطائهما ممّا يجعلهما يقعان معا في دائرة الزمن المتوقَّع. أمّا الرحمة فتوهب ولا تعطى كما هو

حال الزكاة والصدقات، ومع أنّ للرحمة علاقة بالأمل إلا أنّها لا تأتي إلا في الزمن غير المتوقع.

وبالنسبة للوهّاب بالإضافة فهو كما يزكي ويتصدق هو أيضا يهب لمن يشاء ما يشاء بإذن الوهاب الأعظم والسبب لأنّه يستمد صفة من صفاته الحسان التي خلقه عليها في أحسن تقويم. ومّا يقع في دائرة الهبة بالنسبة للخليفة هو كأن يعطي شهادة حقّ في الزمن غير المتوقع، أي في الزمن الذي يظن فيه البعض بإدانة المتهم في الزمن ذاته يأتي شاهدا ليبراً أو يُدينه من غير ظلم وفي غير مقابل يُنتظر فهي هبة أعطيت للعدل ولقول الحقّ. وهكذا الحال مع من ينقذ غارقاً أو مظلوماً أو يعتق عبداً ويجرّه دون انتظار مقابل.

يُحكى أن الشبلي سأل بعض أصحاب أبي علي الثقفي رحمه الله فقال: "أي اسم من أسمائه يجري على لسان أبي علي أكثر؟ فقال الرجل: اسم (الوهاب) فقال الشبلي: لذلك كثر ماله"253.

قال تعالى: {وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}254. أي من كلّ ما دعوتم وطلبتم وهب لكم وأعطاكم، و(من كلّ ما سألتموه) تدل على أشياء أربع:

الشيء الأول: أنّه يملك أكثر ممّا سألتموه، وهو لم يعطكم إلا ما سألتكم،

والشيء الثاني: أنّه يملك أشياء أخرى وأنتم لم تسألوه عنها.

253 مجدي صور الشورى، القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة. مكتبة العلم، 1999،

ص 467.

254 إبراهيم، 34.

الشيء الثالث: ولأنّ باب العطاء لم يقفل ما دتمت تسألوه، فإن سألتم ومتى ما تسألون سيأتيكم ممّا تسألون سواء بالمزيد ممّا سألتم منه تعالى، أو ممّا لم يسبق لكم أن سألتموه عنه.

الشيء الرابع: ولأنّ سؤالكم محدود بالنسبة لما يملك فإنّ باب الهبة هو الآخر مفتوح فسيهب لمن يشاء منكم ما يشاء ممّا لا تتوقعون.

أمّا قوله (وإن تعدوا نعمة الله لا تُحصوها) النعمة جاءت مطلقة، غير متناهية بحدود ولذلك مهما ظن العبد بأنه استكثر على ربّه العظيم سؤالاً فهو لم يسأل إلا القليل فليسأل فباب رحمته لا يُسد ولا ينضب.

ومها ظن الإنسان أنه فكّر في كلّ شيء أو قادر على أن يفكر في كلّ شيء سيجد نفسه غافلاً وقاصراً عما يفاجئه في الدائرتين الآتيتين:

دائرة علم الغيب:

هي الدائرة التي لا يعلمها إلا هو حيث مهما فكّرنا فلن نفكر فيما لم يكن لنا به علم أو دراية. قال تعالى: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ} 255. تحتوي هذه الآية على اعتراف المؤمن العالم بعلم الغيب الذي لا يعلمه. أي أنّه يعلم بما أعلمه الله به بأن هناك بعث وحساب وثواب وعقاب وغيب، ولكنه لا يعلم بما سيكون حيث ما سيكون من عند الوهاب هو علم غيب مصداقاً لقوله تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} 256. فنحن نعلم بأنّ الساعة آتية، ولكننا لا

255 الأنعام، 50.

256 الأنعام، 59.

نعلم متى، ولا نعلم الكيفية التي ستكون عليها أو تأتي لنا بها، ولذا لا نعلم بما لا نعلم، فالذي يعلم بما لا نعلم هو العليم الحكيم.

دائرة الممكن:

الممكن هو الذي (لا شك في حدوثه، أو ظهوره كلما توفرت معطياته أو شروطه).

ولهذا لا يعد الممكن مستحيلا، ولأنه غير مستحيل فهو سيقع بطبيعة الحال وفقا لما نتوقع أو وفقا لما لا نتوقع. فما يبدو متوقعا من شخص ما قد لا يكون كذلك من شخص غيره

فالإِنسان مهما توقع سيجد نفسه قاصرا على أن يتوقع كل شيء مما خلق مصداقا لقوله تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} 257. وقوله تعالى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} 258 في اعتقادنا الذين لا يؤمنون بهذا الأمر الذي تحويه هذه الآية الكريمة لا يعدونه أمرا متوقعا. أمّا بالنسبة للمؤمنين فيعدونه أمرا متوقعا في دائرة الممكن، وذلك لأن الوهَّاب الأعظم وهب لعباده المؤمنين المعرفة الإعجازية التي جعلتهم يسلِّمون بأمر المقدر الإلهية المطلقة، ولذا فهم يؤمنون بأنه قادر. أي بما أن الله تعالى خلق الأرض والسماوات العلا إثباتا، إذن بطبيعة الحال من يقدر على خلق الشيء يقدر على خلق مثله عددا، وذلك لأن الأمر لا مستحيل بالنسبة له، ولم يعد صعبا بل إن كانت هناك صعوبة أو استحالة وفقا لما نفكر به على مستوى العقل البشري أن تكون في الخلق الأوّل. فقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ

²⁵⁷ النحل، 17.

²⁵⁸ ياسين، 81.

يَنْزِلُ الْأَمْرَ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا {259}. تدل على أنه قادر على خلق أي شيء، حيث لا شيء أعظم خلقا من خلق السماوات والأرض التي في عددها تماثل مع السماوات السبع مصداقا لقوله (ومن الأرض مثلهن). وعليه الصعوبة والاستحالة أن تخلق الشيء أو تصنعه، ولا صعوبة أو استحالة في أن تضاعفه عددا.

مكونات دائرة الممكن:

دائرة الممكن تتكوّن من (المتوقّع وغير المتوقّع) وفقا للآتي:

المتوقّع:

هو الذي (بحدوثه أو ظهوره أو وجوده لا تحدث المفاجأة ولا الاستغراب).

ولهذا معطيات حدوث المتوقّع أو ظهوره متوفرة بين أيدي الباحثين، ممّا يجعل صحة إثباته (هو كما هو) وعليه إذا وقع لا تحدث المفاجأة ولا الاستغراب والدهشة.

والمتوقّع يمكن أن يكون موجبا، ويمكن أن يكون سالبا.

الموجب المتوقّع: كطاعة الوالدين، وإظهار الزكاة في وقتها والتصدق بأنواعه؛ فبالنسبة للمسلمين هذه من المتوقّعات الموجبة مثلها كمثل الإخلاص في العمل، والتمسك بالعبادة والقيم والفضائل الاجتماعية والإنسانية.

²⁵⁹ الطلاق، 12.

السالب المتوقَّع: العش على سبيل المثال وتطيف الميزان وشهادة الزور وأكل أموال النَّاس بالباطل والسرقة بشكل عام، والاعتصاب وغيره من السلوك السالب المتوقَّع.

غير المتوقَّع:

هو الذي لا تتوفر معطيات أو شروط حدوثه أو ظهوره بين أيدي البحاثة ومع ذلك قد يقع، ممَّا يجعله في حالة تساوي نسبي مع المتوقَّع في دائرة الممكن، ولهذا إذا ما وقع تقع المفاجأة أو الاستغراب.

ولذا، يقع (غير المتوقَّع) أو يحدث دون قراءات أو حسابات سابقة، أو يقع نتيجة قصور في القراءات والحسابات السابقة على وقوعه، ممَّا يجعله يقع (كما هو) إثباتا.

وعليه، ينبغي أن يتم التعرف على غير المتوقَّع وعلى علله ومسبباته لاحقا ليتم التعرف على نقاط الغفلة أو القصور التي لم تؤخذ في الحساب المسبق.

فغير المتوقَّع يمكن أن يكون موجبا ويمكن أن يكون سالبا، فمن الموجب غير المتوقَّع على سبيل المثال: من كنت تعتقد بأنه سيخونك كان أول من حمى ظهرك عندما تعرضت للخطر.

أمَّا السالب غير المتوقَّع أن تجد من كنت تعتقد أن يكون حاميا لظهرك أول الخائنين لك.

ولذا فالممكن ليس بمستحيل.

المستحيل: هو الذي لا إمكانية لوصوله أو بلوغه عبر الزمن. ولذا فإن كل ما هو غير مستحيل يقع في دائرة الممكن.

وعليه:

- . لا ظهور للأشياء ما لم تكن في دائرة الممكن.
- . لا كمون للأشياء ما لم تكن في دائرة الممكن.
- لذلك على من يراد له أن يكون خليفة في الأرض أن لا يغفل عن إظهار مواهبه وفقاً للقاعدة (كلّ ما ليس بمستحيل فهو ممكن).
- ولذا فإن المستحيل من اختصاصات الخالق.
- أما الممكن من اختصاص المخلوق.
- الممكن له معطيات وله مؤشرات، ويقع في الزمان والمكان كلّما تهيأت له الظروف المناسبة لظهوره.
- إذن الممكن ليس مستحيلاً.
- وبما أن الممكن ليس بمستحيل.
- إذن حظ الخليفة من الاسم الوهاب هو:
- . أن يُفكّر حتى يكتشف مواهبه، ويخطط ويعمل بلا تردد.
- . أن يتأكد قطعاً للشكّ أن كلّ شيء ممكن.
- . لا ييأس إن فشل في المحاولة الأولى لإظهار مواهبه.
- . أن يُقيّم ما يقوم به من جهد حتى لا يستمر في الخطأ وهو لا يدري.
- . أن يكرر المحاولة باجتياز ما وقع فيه من أخطاء.
- . أن يثق بنفسه أنه قوة فليقبل بتحدي الصعاب.

. أن لا يلحقه شكّ في مواهبه التي وهبها له الله تعالى وأن يتمسك بالحقّ قولاً وعملاً وأن يتحدى الصعاب فهي الهشة التي لا تصمد أمام المتوكّلين على الوهاب الأعظم.

. أن يثق بأنّه لا وجود للمستحيل في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع. ولذا فإنّ القاعدة هي: (كلّ ما هو متوقّع وغير متوقّع ممكناً).

بما أنّ كلّ ما هو متوقّع وغير متوقّع ممكناً. إذن بالنسبة لبني الإنسان فالممكن مؤسس على قاعدة. وغير الممكن مؤسس على استثناء وذلك نتيجة اختصاص الوهاب المطلق به.

ولهذا فالمتوقّع استقرار وفق حسابات أو معطيات أو مؤشرات. أمّا غير المتوقّع فهو المتاح لمن لم يضعه في خانة الاستثناء.

وعليه:

لو لم يكن المتوقّع في دائرة الممكن، ما كان لأحد أن يتوقعه. وكذلك لا يمكن أن يحدث أو يظهر غير المتوقّع، ما لم يكن في دائرة الممكن.

وبما أنّ كلّ شيء ممكن، إذن فلماذا الاستغراب؟

الاستغراب: لحدوث أو ظهور غير المتوقّع، بدلاً ممّا هو متوقّع. أي ظهور ما لم يكن في الحساب.

لذا: فالعبد الذي يفكر في المتوقّع فقط، في معالجة الظواهر أو المشاكل، قد يواجهه غير المتوقّع فعليه أن يفكر مرتين قبل أن يقرر.

فعلى سبيل المثال: قيل لأحد الأصدقاء أنّ الشيخ الفلاني أو العلامة الفلاني أو عالم علوم الفقه والدين الذي تعرف عنه كلّ خير قد قدّم على

أفعال لا أخلاقية مع أحد أقاربه قبل خمس سنوات من هذا العام،
فأجاب على الفور وبكلّ سرعة. هذا ليس ممكناً. أنا لا أصدق. وطلب
الدليل والبرهان.

مع أنّ الأمر قد وقع قبل خمس سنوات من هذا التاريخ إلا أنّ صديقنا
لا زال لم يُصدّق، وبالنسبة له وكأن الأمر لم يقع بعد. وعندما أثبت له
دليلاً وبرهاناً قاطعاً دخل في دائرة الاستغراب وكأنه لم يُصدّق.

وعليه:

. فكّر في المتوقّع.

. فكّر في غير المتوقّع.

. خطط في دائرة الممكن.

. لا تستغرب.

. تطلّع فإنّ كلّ شيء ممكن.

ولذا فالوَهَابُ بالإضافة مهما امتلك من المواهب فهو على المستوى
البشري يؤمن بالقاعدة التي تقول: (لا تتاح الأشياء للمخلوق إن لم تكن
ممكّنة) وفي مقابل ذلك يؤمن بالقاعدة التي تنص على أنه (لا مستحيل
على الوَهَابِ المطلق) فكلّ شيء بالنسبة له ممكن.

هذا صحيح. ذلك لأن المخلوق هو محدود المقدرة.

أمّا الوَهَابِ المطلق فهو القادر على كلّ مطلق. ونحن بني الإنسان لا
نخلق مستحيلاً، ولكننا نؤمن بأنّه لا يخرج عن دائرة الممكن بالنسبة
للوهاب تعالى، ويخرج عنها بالنسبة للوهاب بالإضافة.

وعليه فالمستحيل يُخلق عن الخالق الأعظم، والنظر إليه والتفكير فيه وبلوغه يحدث في دائرة الممكن من قبل المخلوق الأفضل. ولهذا يقول الله تعالى: { أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ } 260

ولذا فإنَّ الموهوب لا يغفل عن دائرة الممكن والتفكير فيها، والعمل وفقا للقواعد التي تحتويها أو تتضمنها أو تشير إليها، حيث لا مستحيل في كلِّ أمرٍ ممكن.

وعليه يعمل الموهوب على الآتي:

. إظهار الممكن.

. إنجاز الممكن.

. بلوغ الممكن.

. التخطيط وفق الممكن.

. التطلُّع وفق الممكن.

وبما أنَّ كلَّ شيءٍ ممكن.

إذن فلماذا الاستغراب؟

الاستغراب هو حدوث غير المتوقَّع في الزَّمن الذي ينتظر فيه ظهور المتوقَّع. أي ظهور ما لم يكن في الحسبان، وعليه يجب على المؤمن أن يضع في حسابه كلَّ ما هو ممكن حتى لا يفاجأ. فعلى سبيل المثال: البحث عن العمل لو لم يكن ممكنا، ما كان البحث عنه. ولهذا البحث عن العمل ممكنا، والحصول عليه ممكنا. وأيضا عدم الحصول عليه ممكنا.

²⁶⁰ العاشية، 20.

هذا الأمر هو المتوقع؛ لكن إذا قُدِّمت لك الإهانات التي لم تكن في الحسبان، وأنت تبحث عن فرصة عمل، فهذا الأمر بالنسبة لك غير متوقع.

أما في دائرة المستحيل على المستوى البشري فإنه من غير الممكن أن:

. نأتي بالشمس من المغرب.

. ندمج الشمس في القمر.

. يطير الإنسان من غير جناحين.

. نفكر إن فقدنا عقولنا.

. ومن غير الممكن أن نحیی الموتی.

وقد يتساءل البعض: ما الفرق بين الممكن والمستحيل؟

- الممكن، قابل للإثبات والاكتشاف، أي أنه في حاجة لمن يثبته ويبرهن على معطياته ومبرراته. ولذا فهو قابل للإثبات والنفي والرفض، والظهور والكمون والشكّ والمقارنة والثبات والاهتزاز، وقابل للدراسة والبحث والتقويم.

أما المستحيل فمثبت. وهو الذي نعلم به ولا نعرفه، فعلى سبيل المثال:

. نعلم بيوم الحساب ولكننا لا نعرفه ولا يمكن لنا ذلك.

. الشمس تشرق وتغرب ولن نستطيع تغيير أمرها أو تبديله.

. القمر يعكس الضوء ولن نستطيع إخفاء الضوء عنها.

. الموتى لا يعودون إلى الحياة ولن نستطيع إيقاف الموت عنّا.

. المستحيل مع أنه موجود إلا أنه لا ينفى.

. عندما يكون اليوم السبت فإن الأحد سيأتي غدا وفقا لعلمنا ولكن قد لا يأتي الأحد واليوم الغد الذي يحتويه إذا صدر له الأمر كن من عالم الغيب.

إذن المستحيل: هو الذي لا يمتلك العباد أمره حيث خروجه عن دائرة الممكن وفق حساباتنا وقدراتنا واستعداداتنا وطاقاتنا.

إذن المتوقع وغير المتوقع هما اللذان يقعان من قبل المخلوق أو من طرفه. والمستحيل هو الذي يقع من قبل الخالق.

ولذا فكلاهما يحدث، وفقا لتوقعاتنا. إلا أن الممكن يتحقق بأيدينا والمستحيل ما لم تستطع أيدينا على فعله.

وعليه المستحيل نتوقعه ولكن وقوعه من خارجنا أمّا الممكن نتوقعه ويحدث من داخلنا.

بناء على ما تقدم هل يمكن لنا أن نفرّق بين الصعب والمستحيل؟

الصعب فعل يُنفى ويُثبت، ولهذا فهو ممكن، وبالرغم من أنه ممكن إلا أنه ليس سهلا. ولذا فهو في حاحه لبذل الجهد، مع إعطاء الزمن الكافي والإمكانات الكافية. والمستحيل هو الذي لا يتحقق وذلك لانعدام مقومات وجوده أو إثباته.

وعليه: من المستحيل أن يكون الإنسان إلهًا. ومن الصعب أن يصبح الإنسان عالما.

وبما أنه من الصعب أن يصبح الإنسان عالما، إذن فمن الممكن أن يكون.

قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ} 261. أي كيف يمكن له الولد وامرأته عاقر لو لم يهبه الله إياه؟ ولذا قال: (وهبنا له إسحاق) للتأكيد على أن أفعال المستحيل بيده وبإمكانه إظهارها متى ما يشاء، للذين لا تمتد قدراتهم وقواهم خارج دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع).

وإسحاق الذي وهبه الله تعالى لإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وهب له إمكانية الإنجاب فأنجب ولد له من بعده هو يعقوب عليه الصلاة والسلام. (وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب) تدل هذه الآية الكريمة على أن النبوة التي سبقت إبراهيم لم يتم اصطفاؤها من بيت واحد، إلا من بعده حيث أصبحت النبوة والرسالات في ذريته عليهم جميعا الصلاة والسلام. وهذا الأمر هو الذي جعل إسحاق نبيا مثلما إبراهيم نبيا وكذلك جعل من يعقوب حفيدا لإسحاق ونبيا. إذن الفرع الذي من صلب إبراهيم هم الذين خصّهم الله باصطفاء الأنبياء منهم مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ} 262. فالإبراهيم هم الذين يؤولون إليه في حالتين:

الحالة الأولى: أنهم من صلبه.

والحالة الثانية: أنهم من دينه مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} 263 وقوله تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} 264.

261 العنكبوت، 27.

262 آل عمران، 33، 34.

263 آل عمران، 95.

264 آل عمران، 67.

وهكذا هو الحال مع الذين من بعده من آلا بيته وهم:

آل عمران وآل ياسين، وآل موسى وهارون، وآل داود، ومحمد. قال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} {265} وعليه لقد ذكر القرآن آل نوح وآل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل موسى وآل هارون وآل داود ثم ذكر أهل البيت في هذه الآية فكان المقصود به نساء الرسول محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وكذلك لم يبق له ولد ذكر حتى ينجب ممّا يدل على انقطاع الاصطفاء من بعد محمد الذي يعود كما يعود الأنبياء من قبله إلى آل بيت إبراهيم. وعليه فإن المقصود من آل البيت هم الذين من صلب إبراهيم وهم الذين أسلموا لله رب العالمين.

وعليه من يريد أن ينسب نفسه إلى آل البيت ينبغي أن يتوفر فيه
شرطان:

الشرط الأول: أنه من الذين يؤولون إلى إبراهيم دما.

الشرط الثاني: أنه من الذين يدينون بدين إبراهيم وهو الإسلام حيث إبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما. ولذا فالبيت الذي يجمع المسلمين هو الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهم الصلاة والسلام مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {266}، والسر من وراء بناء البيت هو طمأنة قلوب المؤمنين وتأمينهم من كل خوف وذلك لأنه بيت توحيد لا بيت شرك، ولهذا فالتوحيد يؤدي إلى الاطمئنان ويحقق الأمن والشرك لا يحقق إلا الخوف قال عز وجل: {وَإِذْ

²⁶⁵ الأحزاب، 33.

²⁶⁶ البقرة، 127.

جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ {267} وقوله تعالى: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّن خَوْفٍ} {268}.

ولأنّ ما وهبه الله تعالى لإبراهيم عليه الصلّاة والسّلام لا ينقطع فقد أضاف (وأتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة من الصالحين) أي أنّه كسب الدنيا بما عمل دعاء متصلا مع الأنبياء والصالحين والذين هم يؤمنون بقوله جلا جلاله: (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما).

قال تعالى: {فَلَمَّا اعْتَرَاهُمُ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا} {269} فلما هاجر إبراهيم من أجل دينه وحيدا وهب الله تعالى له ولدا هو إسحاق، وهب له ولد هو يعقوب عليهما الصلّاة والسّلام حتى لا يكون وحيدا وبقيت النبوة فيهم إلى الرسالة الخاتمة التي وهبها الله تعالى رحمة لمحمد عليه الصلّاة والسّلام، وبقيت الرسالة هداية للعالمين وبقي البيت لله وحده ماثبة وآمنا.

قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا} {270} وذلك استجابة لسؤال موسى عليه الصلّاة والسّلام في قوله تعالى: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ

²⁶⁷ البقرة، 125.

²⁶⁸ قريش، 3، 4.

²⁶⁹ مريم، 49، 50.

²⁷⁰ مريم، 53.

كثيراً وَتَذَكَّرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا {271} لذا كانت الاستجابة هبة من رحمته على موسى عليه الصلوة والسلام.

قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} {272}. فالوهاب المطلق مثلما وهب هارون لموسى عليهما الصلوة والسلام وهب سليمان لداود عليهما الصلوة والسلام، وبالتالي بما أن باب الوهب مفتوح لمن يصدر الأمر له رحمة من الرحمن الرحيم فلا يستطيع أحد من العباد غلقه. وبهذا الوهب سينتصر الإسلام حتى يعم المعمورة وحينها يثق الإنسان بأنه في الأرض خليفة.

قال تعالى: {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} {273}. أي أنّ يحيى عليه الصلوة والسلام كان استجابة لدعاء زكريا عليه الصلوة والسلام وهبة من الله تعالى عليه بالرغم من أنّ زوجه عاقر ولهذا قال (أصلحنا له زوجه) حتى أنجبت يحيى الذي وهبه الله تعالى لزكريا، حتى لا يتركه منفردا لا ولد له ليرثه من بعده، ولأن الوارث المطلق هو الله قال زكريا: (وأنت خير الوارثين) ببقائك الدائم الذي لا يماثلك فيه أحد من خلقك سبحانه أتوب إليك، لا إله إلا أنت الحي الدائم.

وحظ الخليفة في الأرض من هذا الاسم والصفة الحسنة أن يهب الطاعة مخلصه لله تعالى، وأن يهب الطاعة للوالدين في غير معصية الله، حتى أنه يخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وأن يهب الطاعة للحقّ

²⁷¹ طه، 29 . 35.

²⁷² ص، 30.

²⁷³ الأنبياء، 89، 90.

والعدل وأفعال الخير الحسان، وأن يهب الاحترام للآخر ولا يجادله إلا بالتي هي أحسن.

وحظ الخليفة من اسمه الوهاب أيضا: أن يستمد منه الفضيلة في العطاء غير المحدود جُهدا أو فكرة أو قولا أو مالا، ودون مقابل عائد منتظر. وألا يخلط أمر ما يتصدق به من صدقات وزكاة مع ما يهبه وهبا دون منة منه أو انتظار ثواب عاجلا أم أجلا.

فالعبد الوهاب هو المستخلف بالإيمان الذي يُمكنه من أن يعطي ولا يمنن، ويعطي ولا ينهر، ويعطي ولا يندم، ويعطي ولا ينتظر ممن أعطى شيئا عاجلا أو أجلا. وأن يستثمر مواهبه التي وهبها إليه الوهاب الأعظم فيما يفيد العباد ويحقق لهم الأمن والسلام ويجعلهم على الوحدة والمحبة والوثام لا على الفرقة والشقاق والصدام.

إنّ المواهب التي يهبها الوهاب الحقّ لبعض من عباده لا ينبغي أن تطمس أو تُجحد، بل يجب أن توهب للآخرين وتنقل مع المعارف والعلوم لتنمي قدراتهم واستعداداتهم فيما يفيد وينفع ويترك أثرا طيبا بين الناس.

وعليه فالوهاب هو الذي وهب لنا الحياة وهو الذي سخر لنا الفلك تجري بأمره في البحر بما ينفع الناس، ووهب لنا الماء فجعل منه كلّ شيء حيا، ووهب لنا الرزق وجعلنا النافقين منه، وهو الذي أرسل الرياح مبشرات ليذيقنا من رحمته التي وهبنا منها رحمة، وجعل الرياح والسحاب مسخرات بين السماء والأرض لقوم يفقهون، وأحل لنا ما تشتهيهِ الأنفس من ثمار وشراب ولحم طير وصيد بر وبحر، ووهب لنا من أنفسنا أزواج ورحمة لنسكن إليها، ووهب لنا ذرية صالحة وفضل كبير.

وعليه، يوضع اسم الله تعالى (الوهاب) ضمن الصفات التي تتحقق فيها صفة الهبة والعطاء وهي (البر، الكريم، الواسع). هذه الأسماء تتقارب معانيها، وتدل كلها على اتصاف الرب، بالرحمة، والبر، والجود، والكرم، وعلى سعة رحمته ومواهبه التي عمّ بها جميع الوجود بحسب ما تقتضيه حكمته. وخص المؤمنين منها، بالنصيب الأوفر، والحظ التام، إذ يقول تعالى: {وَكَتُبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدُنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} 274

(الوهاب) هو المتفضل بالعطايا المنعم بها لا عن استحقاق عليه، فلا يستحق أن يسمى وهابا إلا من تصرف مواهبه في أنواع العطايا فكثر نوافله ودامت، والمخلوقون إنما يملكون أن يهبوا مالا ورزقا، ولا يملكون أن يهبوا شفاء لسقيم ولا ولدا لعقيم ولا هدى لضال ولا عافية لذي بلاء، والله الوهاب سبحانه يملك جميع ذلك وسع الخلق جوده ورحمته فدامت مواهبه واتصلت مننه وعوائده ومنها "المعطي والمانع" 275.

واسم الله تعالى (الوهاب) هو مصدر كل هيبة، والهبة هي العطية الخالية من العوض والغرض، فالهبة أن تجعل من ملكك لغيرك بغير عوض، يقال وهبته هبة وموهبة وموهبا، قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كَلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} وقوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} 276 أما قوله تعالى: {قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا

274 - الأعراف 156

275 - الأسماء والصفات، ج 1، ص 138

276 - إبراهيم 39

زَكِيًّا} 277 فنسب الملك إلى نفسه الهبة لما كان سببا في إيصاله إليها، ويوصف الله تعالى بالواهب والوهاب بمعنى أنه يعطي كلاً على استحقاقه²⁷⁸، ولا تكون الهبة حقيقية إلا إذا كانت من الله تعالى، إذ لا مالك بالمطلق سواه، والمالك هو القاعدة الأساسية لكل هبة أو عطية فلا يكون هناك هبة أو عطاء من لا يملك، إذ يقول تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} 279 هذه الآيات الكريمة بسياقاتها المتعددة الدالة على ملك الله تعالى، تعظم في أنفسنا عظم ملك الله تعالى، وتحيل إلينا كل الصور التي وردت من المادة اللغوية (وهب) في القرآن الكريم والتي تمثل مجموعها تشكلاً معرفياً يحيل لنا دلالات متعددة ومتنوعة أو مختلفة، ابرز ما يسم هذه الدلالات إنها تركزت على ملك الله تعالى وقدرته في الهبة والعطاء، وفي قضايا مهمة جداً، ومن هذه القضايا هي قضية الذرية، التي تشغل حيزاً كبيراً في الفكر البشري، فهي أصل الاستمرار وبقاء النوع، فضلاً عن ذلك تعد أحد الثمار المتبقية في الدنيا، يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام: "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"²⁸⁰. هنا تتضح صورة الذرية المطلوبة والمرجعيات التي تحيل عليها، وهذه الصورة تبقى ملازمة للخليفة يطلبها حثيثاً مما يؤصل فيه فكرة الذرية التي تخرج من نطاق استمرار النوع إلى تشكل من

²⁷⁷ - مريم 19

²⁷⁸ المفردات في غريب القرآن، ج 1، ص 533

²⁷⁹ - آل عمران 26 - 27

²⁸⁰ - صحيح مسلم، ج 8، ص 405

تشكلات المغفرة التي يسعى لها، لكن هذا لا يتحقق للجميع، إذ يقول تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} {281} النص القرآني هنا يحيل إلى تشكلات مختلفة من الهبة، فكلها تختلف وترسم صورة سعة ملك الله تعالى ونفوذ تصرفه في الملك والخلق لما يشاء، والتدبير لجميع الأمور، والهبة المتحققة هنا تجري وفق مشيئة الله تعالى وحكمته، فالثنائية التي يركز عليها استمرار النوع هي الذكر والأنثى وعدم الاستمرار العقم، والأمور هنا تعود إلى قاعدة واحدة وهي الزواج، يقول تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} {282} ومن هذه القاعدة ينطلق الاستمرار وعدمه، فمن الخلق من يهب له الله تعالى إناثا، ومنهم من يهب له ذكورا، ومنهم من يزوجه، أي: يجمع له ذكورا وإناثا، ومنهم من يجعله عقيما لا يولد له. وفي كل هذه الأحوال الثلاث يترتب الأمر وفق علم الله تعالى، فانه عالم بما يصلح لكل واحد منهم وهم لا يعلمون سبحانه إنه ربّي، فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء، وبقدرته في مخلوقاته. وتتضح صورة علم الله تعالى في رزق الأزواج بالذرية الصالحة وعدمها بقوله: {فَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ إِذَا أَقْبَلَ فَقَدْ قَتَلَتْ نَفْسًا رَكْبَةً بَعِيرٍ نَفْسًا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا} {283}، وهنا قتل الغلام رغم انه إحدى الهبات الثلاث، إذ يتجلى الأمر ليحيل لنا علم الله تعالى بما يصلح للخلق، إذ يقول تعالى: {وَأَمَّا الْعُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَحَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِيَهُمَا رَهْمًا

281 - الشورى 49 - 50

282 - الروم 21

283 - الكهف 74

خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا} 284 هنا ترسم لنا ملامح صيغة (يهب) التي تمثل الارتكاز في النص القرآني لقوله تعالى: {يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ} إلا أنّ دلالتها هنا موجودة وان لم ترد في النص القرآني، إذ أنّ الهبة تحققت هنا بالذكر، لكن هذه الهبة لم تستمر بل قل تغيرت ورسمت من جديد ضمن إطار الرحمة المتحققة للأبوين، ممّا يعزز هنا فكرة الرحمة المصاحبة للهبة. وهذا يحيلنا إلى قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ أُمَّامًا} 285 هنا تتجسد صفة المؤمن الباحث عن الجنة، وبطريق هو يختاره دون باقي الطرق، فضلا عن ذلك أنّ هذه الصفة تعنى بانتشار الإسلام وتكثير أتباعه فيدعون الله أن يرزقهم أزواجا وذريات تقرّ بهم أعينهم، فالأزواج يُطعنهم بإتباع الإسلام وشرائعه؛ فقد كان بعض أزواج المسلمين مخالفات أزواجهم في الدين، والدريبات إذا نشأوا نشأوا مؤمنين، وقد جُمع ذلك لهم في صفة (قرة أعين). فإنها جامعة للكمال في الدين واستقامة الأحوال في الحياة إذ لا تقرّ عيون المؤمنين إلاّ بأزواج وأبناء مؤمنين 286. هنا نجد الترابط المعرفي المتزامن مع الفعل (هب) الذي يرسم أطر تشكليه متعددة تسير ضمن تيارين كل واحد منهم يتكئ على الآخر من أجل الوصول إلى نهاية يتمناها المؤمن منذ أن عرف الشهادتين وتخيل الجنة كما صورت له في القرآن الكريم، إذ يقول تعالى: {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} 287 وطلب الهبة جزء من السعي الموصل إلى مرضاة الله تبارك وتعالى.

284 - الكهف 80، 81

285 - الفرقان 74

286 - التحرير والتنوير، ج 10، ص 126

287 - الإسراء 19

نلتمس من السياقات المتعددة التي وردت فيها لفظة (وهبنا) أن الهبة فيها كانت ذرية للأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام، يقول تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كَلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ {المُحْسِنِينَ} 288 وقوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} 289 إلا لموسى عليه الصلّاة والسّلام فإنّ الهبة كانت أن وهب الله تعالى له أخاه هارون عليه الصلّاة والسّلام، يقول تعالى: {وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا} 290 والهبة المتحققة هنا سبقها سؤال من موسى عليه الصلّاة والسّلام لله تعالى تضمن أن يكون هارون وزيراً له، إذ يقول تعالى: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا} قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى} 291، والهبتان المتحققتان تدلان على حكمة الله تعالى في تيسير دعوته، فكلّ الهبات عدا هبة موسى عليه الصلّاة والسّلام جرت ضمن تشكّل عمودي مستمر لا ينقطع يسير تترى وختاماً، قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} 292.

288 - الأنعام 84

289 - ص 30

290 - مريم 51 - 53

291 - طه 25 - 36

292 الفرقان، 74.

قال تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ كُلًّا مَّا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولًا كَذَّبُوهُ فَأَتَيْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} 293
 فهنا يحدث تشكلاً ملازماً ومستمرًا للرسول عليهم الصلاة والسلام، وهو العقوبة المتحققة المستمرة التي لا تنقطع، فكُلَّمَا بعث رسول إلى القوم الذين أرسل إليهم، كذبوه ووقفوا بوجه دعوته بكلِّ الوسائل، فأهلكهم الله تعالى والحقهم بمن تقدمهم من المهلكين، وجعلهم أخباراً وأحاديث يتحدث بها النَّاسُ، فهنا يحصل التزام بين إرسال الرسل وبين العذاب المتحقق، وكلَّ الأمرين في حالة استمرار إلى أن تتحقق الدعوة التي يريدتها الله تبارك وتعالى كما يشاء لها أن تكون عليه سبحانه إنه القادر.

أما هبة موسى عليه الصلاة والسلام، فتختلف عن باقي الهبات باستثناء هبة زكريا عليه الصلاة والسلام، فهي تشبهها إذ سبقت بطلب، وطلب موسى عليه الصلاة والسلام اشتمل على أمور كثيرة ذكرها وكلَّها تتعلق بهارون عليه الصلاة والسلام، البداية كانت موحية بأمر عظيم الجلل وهو المواجهة التي يجب أن تتحقق مع فرعون بوصفه رأس الكفر والجبروت، وهنا نعود إلى سؤال موسى عليه الصلاة والسلام، فهو في مجمله يصب في صالح دعوته المرتقبة لفرعون الذي تمرد وزاد على الحد في الكفر والفساد والعلو في الأرض، والقهر للضعفاء، حتى إنه ادعى الربوبية والألوهية، فقد أحس أنه يحتاج إلى أمور تعينه وتكون سبباً في إصلاح المرسل إليهم، فكانت البداية بشرح الصدر، لأن في سعته تحمل للأذى الذي قد يتعرض له، وقد يكون أذى قولي أو فعلي، لأن الصدر إذ ضاق، لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم. وهنا نتذكر قول الله تعالى لنبية محمد عليه الصلاة والسلام، يقول تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ

وَاسْتَعْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُتَوَكِّلِينَ {294}.

أما قوله تعالى: {وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي} 295 فهنا صورة التيسير غير محددة فهي مطلقة يريد موسى عليه الصلاة والسلام كل الطرق الموصلة لتحقيق الهدف المنشود أو المأمول، ثم بعد ذلك يعرض عيبا فيه (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي) وكان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام، واللسان بطبيعة الحال هو أداة مهما في التواصل والتفاهم والحوار والجدل، إذ أن مهمته تتطلب هذه الأداة فلا بد أن تكون مهياة كي تؤدي عملها المرتقب، ففيه المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني. ثم يأتي بعد ذلك السؤال الأخير والمهم: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي} وهنا تكمن نقطة مهمة في الاختيار فضلا عن المؤازرة والمساعدة وهي أن الاختيار أرادته لأخيه هارون عليه الصلاة والسلام فذلك من باب البر وأحق بالبر القرابة، {وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي} ولم يكتفي موسى عليه الصلاة والسلام بالمشاركة لهارون معه بالأمر بل الإشارك بالنبوة، بأن يجعله الله تعالى نبيا رسولا مثله. فكانت الإجابة من الله تعالى: {قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى} أي أعطيت جميع ما سألت، فكل ما سأله موسى عليه الصلاة والسلام يصب في صلب دعوة الله تعالى، فهو على معرفة تامة بالأمر الذي يريد القيام به وما يتطلبه.

قال تعالى: {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} 296 هذه الآية تمثل

294 - آل عمران 159

295 طه 26.

296 - الأنبياء 89 - 90

صورة من صور الدعاء، والدعاء هو العبادة، وهنا ندخل في قضية مهمة وهي آداب الدعاء وأسباب الاستجابة، فلنتعرف على آداب الدعاء وأسباب الإجابة:

- 1- النية الخالصة في طاعة الله تعالى.
2. الإخلاص في طاعة الله قولاً وعملاً.
- 3- الجزم في الدعاء واليقين بالإجابة.
- 4- الإلحاح في الدعاء وعدم الاستعجال.
- 5 - الدعاء في الرخاء والشدة.
- 6- لا يسأل إلا الله وحده.
- 7 - الاعتراف بالذنب والاستغفار منه والاعتراف بالنعمة وشكر الله عليها.
- 8 - التضرع والخشوع والرغبة والرغبة.
- 9 . التوسل إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وعليك بمعرفة أن لكلّ صفة من صفات الله وأسمائه التي لا تحصى استجابة فادعوه بالصفة التي هي ذات علاقة بالموضوع الذي تدعو إليه.
- 10 - أن يكون الداعي طعامه ومشربه وملبسه حلال.
- 11 - أن يكون مصلحاً في الأرض.
- 12 - أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

13 - الابتعاد عن جميع المعاصي 297.

فبعد التعرف على آداب الدعاء وأسباب الاستجابة نعود إلى دعاء زكريا عليه الصلوة والسلام ونحلله وفق ما ذكر من آداب الدعاء وأسباب الإجابة، نجد أن النص القرآني علق سبب الاستجابة بقوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} هنا أثنى الله تعالى عليهم، فقد كانوا يبادرون إلى الخيرات ويفعلونها في أوقاتها ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها، إلا انتهزوا الفرصة فيها، وكان سؤالهم في الأمور المرغوب فيها من مصالح الدنيا والآخرة، ويهربون غضب الله تعالى، وكانوا خاضعين متذللين لله تعالى.

أما علاقة الأسماء الحسنى بالدعاء فنلتمس ذلك في دعاء زكريا عليه الصلوة والسلام، فقد أختار اسما من أسماء الله الحسنى يتعلق بمضمون دعائه، وهو اسم (الوارث) (وَزَكْرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) وجملة (وأنت خير الوارثين) ثناء لتمهيد الإجابة، أي أنت الوارث الحق فاقض عليّ من صفتك العلية شيئا 298 فزكريا عليه الصلوة والسلام فكّر في أمر الدعوة ومن يقيم مقامه في نصح العباد وتوجيههم نحو الله تعالى، فالدعوة تحتاج إلى استمرار، وهذا الاستمرار يتضمن البقاء، فقوله: {وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} أي: خير الباقيين، فذكر صفة من صفات الله عند سؤاله إعطاء ما هو من جنسها، وهذا الأمر تحقّق أيضا للنبي أيوب عليه الصلوة والسلام بعد أن مسه الضر، يقول تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَيْبَى مَسْنَى الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى

297 - الدعاء وبلية العلاج بالرقى الكتاب والسنة، ج 1، ص 4

298 - التحرير والتنوير، ج 9، ص 201

لِلْعَابِدِينَ} 299. وهذا الأمر لا يقتصر على الأنبياء بل يشمل كل الخلق، يعنى أن أسماء الله الحسنى تتردد بين ثنّيات دعاء الخلق فيقع الاختيار عليها وفق النقص الحاصل لديهم، فالمحتاج للرأفة والرحمة يكون في دعائه (الرّحمن - الرّحيم - الفتاح - اللطيف - الرؤوف - الودود) والمحتاج للهبة والعطاء يكون في دعائه (الوهاب - البر - الكريم - الواسع) وكذلك بقية أسماء الله الحسنى.

والخليفة يتسم بطبائع عديدة ومن بين هذه الطبائع السعي المتواصل بتحصيل كثير ممّا يرى فيه تحقيق حاجة في النفس، أو مطلب من مطالب الحياة، من الأمور المادية أو المعنوية، العاجلة أو الآجلة، بوصفه نفساً إنسانية، إذ يقول تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً} 300 ولما كان تحقيق ما ترجوه هذه النفس مرتبطاً بالواقع بقضاء الله تعالى وقدرته ومرهونا بإرادة الله تعالى وقدرته، ولا يتم إلا بعطائه وهبته، فهنا لا بدّ من التوجه إلى الله تعالى، فهو الرّب المتفضل على عباده بالعطاء، وهو الذي يحقّق ما يريدون، قال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَدُوٌّ فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} 301.

وحظ الخليفة من اسم الله تعالى (الوهاب) أن يتخلق بشيء ممّا يدل عليه قدر استطاعته، في الحدود والمقاييس البشرية، فيكون وهاباً كريماً،

299 - الأنبياء 83، 84

300 - الكهف 46

301 - غافر 60، 61

واسع العطاء مما تفضل الله تعالى عليه من مال أو جاه، وذلك بالبدل السخي في أبواب البر التي حضته على البدل فيها شريعة الله تعالى.

واسم (الوهاب) في حق الله تعالى يدل على البذل الشامل، والعطاء الدائم بغير مكلف ولا عرض ولا عوض، وكل من يعطي سواه وإنما يعطي بعوض أو عرض في الدنيا، أو في الدين عاجلاً أم أجلاً، فإذا لا يصور الهبة ولا يصح الوهاب إلا في الله وحده، لأن الهبات قدر منه سبحانه على عباده في دنياهم وآخرتهم دون انقطاع ولا نفاذ بل في نماء وازدياد، من ذلك قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} 302 هذه صورة من صور النماء التي بينها الله تبارك وتعالى لعباده، هذا بيان للمضاعفة التي ذكرها الله في قوله {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} 303 وهنا قال: (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله) أي: في طاعته ومرضاته، وأولها إنفاقها في الجهاد في سبيله (كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة) وهذا إحضار لصورة المضاعفة بهذا المثل، الذي كان العبد يشاهده ببصره فيشاهد هذه المضاعفة ببصيرته، فيقوى شاهد الإيمان مع شاهد العيان، فتتقاد النفس مدعنة للأتفاق سامة بما مؤملة لهذه المضاعفة الجزيلة والمنة الجليلة، (والله يضاعف) هذه المضاعفة (لمن يشاء) أي: بحسب حال المنفق وإخلاصه وصدقه وبحسب حال النفقة وحلها ونفعها ووقوعها موقعها، ويحتمل أن يكون (والله يضاعف) أكثر من هذه المضاعفة (لمن يشاء) فيعطيهم أجرهم بغير حساب (والله واسع) الفضل، واسع العطاء، لا ينقصه نائل

302 - البقرة 261

303 البقرة 245.

ولا يخفيه سائل، فلا يتوهم المنفق أن تلك المضاعفة فيها نوع مبالغة، لأن الله تعالى لا يتعاضمه شيء ولا ينقصه العطاء على كثرته، ومع هذا فهو (عليم) بمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها، فيضع المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته³⁰⁴.

وختامًا: { رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا }³⁰⁵.

اللهم يا الوهاب هب لنا الرزق الحلال والمملك الحلال وهب لنا الصحة والعافية وهب لنا القوة والبركة في كل قول وفي كل فعل وعمل، اللهم هب لنا سلطان العلم والحكمة والتقوى والهيبة، وهب لنا القدرة على تفادي المخاطر وكيد الكائدين وحسد الحاسدين ومكر الماكرين وسحر الساحرين إنك أنت ربنا الوهاب سبحانه ما أعظم شأنك سبحانه جلّ جلالك.

اللهم هب لنا نور ينير دروبنا وبصائرنا، وهب لنا قول يكون حجة لنا لا حجة علينا، وهب لنا سمعًا لا تضيق به أنفسنا، وبصر لا يغفل عن رؤية جمالك، وعقل لا يقصر عن معرفة معجزاتك، ولسان يذكرك كثيرًا ويسبح بحمدك ويشكر كثيرًا، اللهم هب لنا الفطنة التي تمكننا من قول الحقّ وفعل الحقّ وتجنب الزلات إنك سميع قريب مجيب الدعوات سبحانه أنت الوهاب جلّ جلالك، اللهم هب لنا الفوز على وسوسة الشياطين من آبالسة الإنس والجنّ، وهب لنا حفظة كرام يحيطون بنا وبما نملك، اللهم هب لنا الثقة التي بها نكون ثابتين على طاعتك وعبادتك وهب لنا من الصالحين أنصارًا، وهب لنا صحة الأنفس والابدان وسلامة العقل واللسان وسلامة العمل والفعل. نحمدك يا وهاب يا من جعلتنا

³⁰⁴ - تفسير السعدي، ج 1، ص 112

³⁰⁵ الفرقان، 74.

من الذين يدعونك واحداً واحداً ولا يشركون بك شيئاً، وندعوك يا وهاب باسمك الأعظم (الله) أن تجعل في ألسنتنا القوّة والقدرة وفي سمعنا القوّة والقدرة، وفي بصرنا القوّة والقدرة، وفي جميع حواسنا ومشاعرنا أنت القوّة والقدرة سبحانه جلّ جلالك.

2. إسحاق نبي:

إنّ النبوة من عند الله تعالى ليس للإنسان فيها خيار أو تدخل وعلى هذا فهي تدخل في الاصطفاء، والإنباء بما علم غيب لا يظهره الله إلا على أيدي الأنبياء والمرسلين بطرق الوحي أو التكليم كما قال تعالى: { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ } 306.

إنّ إسحاق نبي بشري حيث أنّ الملائكة الكرام بشرت به إبراهيم قبل أن يخلقه الله تعالى بأن جعله نبياً، قال تعالى: { وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ } 307 فهو نبي بشري.

وقد منّ الله تعالى على إبراهيم بأن جعل نبي الله إسحاق هبة لإبراهيم حيث قال تعالى: { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } 308.

إنّ من تكريم الله تعالى لإبراهيم فضلاً عن اصطفائه ورسالته ونبوته، فقد جعل في ذريته النبوة والكتاب، فكان وهب الله تعالى أن رزقه إسحاق ليكون نبياً وهباً لإبراهيم قال تعالى: { فَلَمَّا اعْتَرَاهُ وَهَابٌ وَإِسْحَاقُ قَالَ إِنِّي ذُرِّيَّتٌ خَلَقْتَنِي وَأَنْتَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } 309

306 - الشورى 51

307 - الصافات 112

308 - العنكبوت 27

مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا {309} فقد جعل
إسحاق نبيا، ثم من بعد ذلك استحقّ الإنباء فكان نبيا، والنبى موحى
إليه بما يشاء الله لعباده من التوحيد والصّلاح والخير، ولذا؛ فالنبى ينبئ بما
نُبيء به من عند الله تعالى.

إسحاق نبى من أنبياء الله تعالى بدلالة النصوص القرآنية، وهو وإن
كان نبيا، فإنما هو مبعوث بشريعة أبيه إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم، لأننا
نجد يوسف بن يعقوب صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين يقول: {وَاتَّبَعْتُ
مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَشْكُرُونَ} {310}.

وهذا يدلّ على أنّه ليس بالضرورة أن يكون لكلّ نبى كتاب ورسالة،
وإنما يبعث أنبياء كثيرون برسالة واحدة، فقد أنزل الله تعالى على إبراهيم
الصحف التي بلغها إلى الناس وقد عمل على تبليغ هذه الصحف وملة
إبراهيم جميع أبنائه من إسحاق إلى يوسف، حتى بعث الله تعالى موسى
وأنزل معه التوراة.

ثم إنّ الرسالة السماوية وإن تعددت كتبها وصحفها، فإنّ جوهرها
وحقيقتها واحدة لأنّها من الواحد الأحد، ولذلك جمع الله تعالى ما أنزله
على أنبيائه ورسله باسم واحد لهذه الدلالة حيث قال تعالى: {كَانَ
النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ} {311} أنّ الله ذكر بعث
النبیین وأنهم جاءوا بالبشارة والندارة وأنزل معهم الكتاب، وطالما أنهم

309 - مريم 49

310 - يوسف 38

311 - البقرة 213

يحملون التبشير والإنذار والكتاب، فهم مكلفون بالتبليغ، والتبليغ لا يكون إلا من رسول أو نبي، وإسحاق بلغ أبناءه وقومه بما أمر به الله تعالى من صحف إبراهيم وملة إبراهيم.

إنّ الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين يأتون بأشياء من أمور التفصيل في الحلال والحرام، أو يقودون الناس ببلاغ ووحى من الله سبحانه وتعالى.

وعلى هذا فالذين فرقوا بين النبي والرسول يقولون: إن الرسول هو من جاء بشرع جديد إلى قوم كافرين، والنبي هو من بُعث بشريعة رسول قبله ليحدثها أو معه ليلغها، ويحيي معالمها، فهذا مأمور بالبلاغ الجديد المستأنف لقوم كفار، وهذا مأمور بالبلاغ للمؤمنين الذين ينتمون إلى شريعة سابقة، ولكنهم غيروا وبدلوا وضلوا وانحرفوا.

إنّ الله تعالى بعث الأنبياء لكي يكونوا حملة الخير والصّلاح للناس، ولما كان الإنسان بطبعه يرى الخير والصّلاح من زاوية المنفعة والفائدة التي تعود عليه وما زكّب به من شهوات النفس وميلوها وهواها فإنّ الخير والصّلاح ينظر إليه بشكلٍ جزئيّ يضر بالآخرين، لذلك كانت الأنبياء هي الوسيلة التي تضع الناس على المحجّة البيضاء والنبي دليل البشر إلى المعرفة الله تعالى ومراده تعالى للوصول إلى السعادة والخير، فالنبي هو الوسيلة التي يبعثه الله تعالى إلى عباده.

إنّ الإيمان بالنبوة هو عملية تواصل بين الله تعالى وبين المجتمع الإنساني عن طريق الأنبياء، وذلك من خصائص الدين الحقّ، والنبي هو الإنسان الذي يختاره الله ليقوم بأداء رسالة معينة، وقد وجدت مذاهب كثيرة تؤمن بالله وتنكر النبوات، وتزعم أنّه لا حاجة لوجود النبي؛ لأنّ ما أتى به

الأنبياء موافق للعقل، ففي العقل غنى عنه، أو مخالف له فلا حاجة لنا به، والعقل عندهم طريق الاستدلال.

غير أن الذي نردّ به على هؤلاء أننا لا نستطيع بالمنطق التجريبي والرياضي التوصل إلى حقائق ما وراء المادة والغيبيات، وبذلك يكون العقل قاصرا عن أداء ما يرجون منه في هذا الجانب، ولذا وجب بعث الأنبياء ضرورة للإخبار بما يغيب عن العقل أو أنّ العقل قاصر على إدراكه بنفسه، ولذا فالعلم الصحيح من هذا الجانب في ذات الله وما يكون بعد الموت من أوصاف الآخرة والحساب ونيل الجزاء من ثواب وعقاب، وكلّ ما يتعلق بعالم الغيب، فلا يستطيع العقل إدراكه بفردّه لأن ذلك لا يعرف إلا عن طريق الأنبياء.

إنّ قضية النبوة لا يمكن أن يحلّ محلها العقل المنطقي أو الفلسفي، ولا يستطيع هذا العقل مهما أوتي من ذكاء وحجّة أن يكون بديلا أو يأتي بديل عن الخطاب الديني، لأنّه إذا حكمنا معايير العقل النظري في الخطاب الديني فلا مناص من هذا التناقض بين الاثنتين، لأنّ عالم الغيب والإلهيات التي يتحدث عنها الدين، لا يمكن أن تختبر على صعيد العقل الفلسفي والمنطق الوضعي، ومن هنا وجب الأخذ بضرورة الفصل والتمييز بين الخطابين، (الخطاب الديني والخطاب العقلي المحض). ومع الاعتراف بشرعية كلّ من الخطابين في مناقشة القضايا، وجب أيضا ضرورة ألا تحاكم أيّ قضية إلا في صورة معايير النسق الذي تنتمي إليه. ومن ثمّ فالإيمان بالغيب قضية صادقة على صعيد العقل النقلي الذي أتى عن طريق النبوة، ولا يمكن أن تنطبق معايير العقل الفلسفي على هذه القضايا لقصوره تجاهها.

والنبوة ليست محصورة بنبي محدد، وإنما هي ظاهرة موجودة عند جميع الأقسام والأمم قال تعالى: { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ } 312.

والنبوة تثبت بالمعجزة، وهناك شهادات لا يمكن الطعن فيها على وجود هذه المعجزات، ومن ثم لا مهرب لنا من قبولها. فإذا سلمنا بذلك، فتلك هي بداية شرعية الخطاب الديني الذي قُبل على أساسه. فإذا سلمنا بشرعية هذا الخطاب فعلينا فيما بعد ألا نحاكمه إلا في ضوء المعايير التي يقدمها.

فالنبوة صفة جليلة قائمة على العلم والحكمة والمعرفة، ولا يمنحها الله تعالى إلا لأصفيائه من خلقه ممن تميزوا بنقاء الفطرة، وصفاء السريرة، ونفاذ البصيرة مع العناية الإلهية به والفضل الرباني عليه كون النبي من صفوة خلق الله تعالى.

ولذا، نجد يعقوب بن إسحاق بدلالة النبوة أنه يعلم من الله تعالى ما لا يعلمه غيره ويؤكد على ذلك في أكثر من موضع، فقد قال: { قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } 313.

وأكد على أنه يعلم ما لا يعلمه غيره مرة ثانية بسبب من النبوة، قال تعالى: { فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } 314.

وعلى هذا فالنبوة اصطفاء واجتباء وهبة من الله تعالى لمن يشاء من خلقه، ولا يمكن لأحد أن يكون نبيا أو أن يصل إلى مرتبة النبوة عن

312 - فاطر 24

313 - يوسف 86

314 - يوسف 96

طريق العقل في البحث والتفكير والدراسة والتأمل والتدبر، ومهما أوتي الإنسان من صفات العقل الموجبة، فهو يستطيع أن يكون كذابا، ولكنه لا يستطيع أن يكون نبيا بأن يهيب نفسه لتلقي النبوة، فالنبوة لا تنال بالاستعداد والتمرين والممارسة، وإنما هي فضل من الله يؤتيه من يشاء.

وأبسط ما يدل على أنّ النبوة خارجة عن الذات هي أنّ ظاهرة الوحي معجزة خارقة لسنن الطبيعة، ولا صلة لها بالتأمل العقلي أو الاستعداد النفسي. إنّ الوحي أو الإلهام الذي هو من صفات النبوة خارج عن الذات الإنسانية، وموقف النبي منها هو موقف المتلقي الذي لم يكن له أيّ دخل لا في المعنى ولا في المضمون ولا في القبول ولا في الرفض. فالنبوة هي قبول النفس الإنسانية الوحي من الله تعالى لحقائق المعلومات والمعقولات عن جوهر بجوهرها دون تردد ولا تدخّل.

وعليه فالنبي هو الذي يتصف بالرحمة والمودة والحلم والصبر والحكمة والرشد.

3 . إسحاق عليم:

إنّ إسحاق خصه بالعلم منذ أن بشرت به الملائكة مصداقا لقوله تعالى: {قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ} 315.

وقال تعالى: {فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ} 316.

وجعل الله تعالى إسحاق عليما، بأن العلم صفة ملازمة له لأنّها من تمام النبوة التي لا ينفك عنها العلم بحال من الأحوال، وهذا العلم هو علم نسبي إلى علم الله تعالى، ومع ذلك فعلم الأنبياء وما جاؤوا به عن الله

315 - الحجر 53

316 - الذاريات 28

تعالى إنما هو أصل العلم ولا يمكن أن يُدرك بالعقل دفعة واحدة، وإنما يكتسب، فبعضه:

. بالنقل عن النبوة كونه وحيا أوحاه الله إليهم بواسطة جبريل عليه السلام

. أو كلام يكلم به رسوله بغير واسطة كما كلم موسى صلى الله عليه وسلم

. أو يوحي الله باذاه ما يشاء لمن يشاء

فعلم النبوة يختلف عن علم البشر كون الأنبياء صفوة الخلق فلا شك أنّ علمهم صفوة العلم، وإن كان الإنسان يمتلك علما في إدارة شؤونه الخاصة في الحياة ناتجا عن تجربته وتجارب أجيال سابقة عليه، فهو يتفاعل مع الحياة ومشكلاتها والكون وأسراره، ولكنه بحاجة إلى من يرشده إلى طريق الحقّ ويصّره سبل الهداية ونور اليقين وصولا إلى الفطرة السليمة التي فطر الله تعالى عليها خلقه.

فإسحاق كان العلم صفة من صفاته ومما خصه الله به في إبراز هذه الصفة دون غيرها من الصفات الكثيرة التي يتميز بها الأنبياء عليهم الصلوة والسلام، وقد أبرز الله تعالى أهم صفة من صفات النبوة في إسحاق صلى الله عليه وسلم، فهو لم يصفه بالعلم مثل (عالم) حتى يتبن الفرق بين العلم وبين من يحمل العلم أو جزء منه، فوصفه بأنه عليم بعلمه وكليته ولكن الغاية ليست الشخص نفسه، وإنما الغاية التي يريد أن يؤكد عليها أن قضية العلم هي أساس القضايا دقيقها وجليلها في مسألة النبوة، وكلما كانت القضية عظيمة احتاجت إلى علم يوازيها في العظمة من أجل إنجازها، وهذا العلم الذي يجب أن يوازي القضايا ويكافئها

لابدّ أنّ له مصدر يستقى منه، وهذا المصدر هو العلم الذي مصدره الله تعالى لذلك وصفه بأنه عليم بما علمناه من العلم وحيا أو تدريجا:

إذ أنّ العقل البشري لا يقوى وحده على إدراك سنن الكون كاملة

لا يقدر بوعيه المحدود على فهم خبايا هذا الكون من الوجود

إذا فهم الحياة فإنه يحتاج من يفهمه معنى ما بعد الحياة

ولهذا؛ فقد وهب الله لإسحاق خيرا كثيرا وفضلا عظيما بما علّمه من علم النبوة الذي تنبثق عنه مناهج الهداية التي حملها الوحي إليه، ومن هذا المنهج تعلم علمه.

وعليه: فقد أمد الله سبحانه وتعالى إسحاق بمنهج قويم ومسلك أمين هو العلم الذي يدلّه على سبيل الهدى وطرق الرشاد وصولا إلى الفوز المبين بما رزقه من علم النبوة المتوارث حيث قال تعالى: {فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ} 317.

فالعلم يوصل إلى الإيمان

الإيمان يؤدّي إلى الاستقامة

الاستقامة هي الطريق السوي

الطريق السوي هو سنة الله لعباده

هذه السنة أو القوانين الإلهية تفتح أمام العقل آفاقا

فالعلم يعني الإيمان اليقيني بالسنن الربانية التي تحكم الكون كلّيا (في دائرة الغيب المطلق لله تعالى).

أو سنة تحكم ظاهرة من الظواهر الكونية جزئياً مما يعرفه الإنسان (في دائرة المعرفة النسبية).

وأنّ السنن ذاتها تقوم على أساس أولي من ارتباط العلة بالمعلول أو ارتباط النتيجة بالسبب ارتباطاً لازماً، وهذا يعني أنّ اجتماع أسباب معينة يؤدّي إلى نتيجة معينة في ظاهرة من الظواهر بما فطرها الله عليها، وانطلاقاً من هذه الحقيقة يمكن أن يكتسب الإنسان قدرة معينة من خلال العلم على التنبؤ بأمور مغيبة عنه، فعندما تتوافر لديه مجموعة من:

الأدلة

القرائن

المقومات

أو هذه الأسباب مجتمعة فإنها توصله إلى معرفة الحقائق اليقينية ومعرفة وجودها يقينياً عن طريق العلم الذي هو الأداة والسلطان والوسيلة للوقوف على حقائق الأشياء.

وهنا يجب أن نفرق بين أنواع العلم الكثيرة، ولكن الأمر الذي نحن بصدده من علم النبوة الذي علّمه الله تعالى إسحاق نوعان من العلم هما:

العلم الوقفي الذي يتمثل في:

آ . علم الوهب:

قال تعالى: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا} 318.

ب . علم الوحي:

قال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} 319.

ج . علم الوراثة:

قال تعالى: {وَوَرَّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ} 320.

العلم المكتسب عن طريق:

آ . الأخبار السمعية:

قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَمَمْ يُتَقَبَّلُ مِنَ الْآخَرِ} 321.

ب . الأدلة الفكرية العقلية:

قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} 322.

ج . المعاينة الحسية:

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ} 323.

319 - النساء 163

320 - النمل 16

321 - المائدة 27

322 - الأحقاف 33

323 - الأنعام 95

وعندما قال الله تعالى عن إسحاق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وبشروه بغلام عليم) فهذا لا يعني أن الغلمان غير إسحاق لا يكونون عالمين، ولكن أراد الله تعالى أن يميز العلم الخاص الذي علمه لإسحاق عن العلم العام الذي يعلمه جميع الغلمان، لأنّ العلم الخاص هو دليل العلم العام، ولتوضيح ذلك نقول:

إنّ الله تعالى خلق الإنسان وكرّمه بفضله، وقد أمدّه من علمه بقدر علم الله بتحمل نسبة العلم، وجعل له:

عقلا

وسمعا

وبصرا

وفؤادا

وكذلك فإنّ الله تعالى جعل الأرض للإنسان ذلولا، وسخر له الكون وما فيه خدمة له ووهبه قوى التعقل والتدبر والنظر وأعطاه الحياة والوقت في الزمن، ثمّ كلفه برسالة الاستخلاف في الأرض.

ولكن الإنسان وهو يتفاعل مع الحياة ومشكلاتها، وينظر في الكون وأسراره، والتاريخ وسننه وقوانينه، والحضارة ومحركاتها وما يؤثر فيها، هو بحاجة إلى مرشد يبصره بطريق الحقّ ونور اليقين الذي يدلّه على مسالك الرشد، إذ العقل البشري على ما أوتي من علم عام لا يقوى وحده على إدراك سنن الكون والحياة بما تحتوي من خير وشر، ولا يقدر بوعيه المحدود أيضا على فهم خبايا الكون والحياة والوجود.

ولذا؛ فقد وهب الله لبني البشر خيرا آخر، وفضلا عظيما من أفضاله، ذلك هو العلم المخصوص الذي يتمثل في علم النبوة الذي انبثقت عنه

مناهج الهداية التي حملها الوحي إلى الإنسان عن طريق الأنبياء والرسل عليهم الصلّاة والسّلام أجمعين.

إذا قد أمدّ الله سبحانه وتعالى الإنسان بمنهاج قويم، ومسلّك أمين يدلّه على سبيل الفوز المبين ومن هنا كان إسحاق عليهما بما جهله الآخرون من الغلامان بما علّمه الله تعالى وبشر به أباه إبراهيم عليهما الصلّاة والسّلام أجمعين.

وعليه:

فالعليم اسم من أسماء الله الحسنى، وصفة من صفاته الكريمة، وهي الصّفة التي استمدّ منها إسحاق صفته الحميدة، قال تعالى: {وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ} 324 وقال تعالى: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} 325 وقال عزّ وجلّ: {وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} 326.

في لسان العرب: "العليم هو الله العالم بما كان وما يكون قبل كونه" 327.

قال الخطابي: "العليم هو العالم بالسر والخفايا التي لا يدركها علم الخلق" 328.

قال الأمام الغزالي: "العليم هو المحيط علما بكلّ شيء، ظاهره وباطنه، دقيقه وجليله، أوله وآخره، عاقبته وفتاحته" 329.

³²⁴ النساء، 12.

³²⁵ البقرة، 127.

³²⁶ المائدة، 76.

³²⁷ لسان العرب المحيط، ج الثاني، ص 870.

³²⁸ محمد حسين، شرح أسماء الله الحسنى. مرجع سابق، ص 41.

³²⁹ أبي حامد الغزالي، المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. مصدر سابق، ص 61.

وفي أسم العليم قال ابن القيم في نونيته:

وهو الذي أحاط علما بالذي .. في الكون من سرٍ ومن إعلان

وبكلّ شيء علمه سبحانه .. فهو المحيط وليس ذا نسيانٍ

وكذلك يعلم ما يكون غدا... وما قد كان والموجود في ذا الآن

وكذلك أمر لم يكن لو كان.. كيف يكون ذاك الأمر ذا إمكان³³⁰

العليم: "الذي خلق الخلق هو أعلم به، وهو القوّام عليه والمدير له بعلمه المحيط، وإرادته النافذة وقدرته المنفذة"³³¹ وفي ذلك يقول الدكتور محمّد بكر إسماعيل: "إن الله عزّ وجلّ يفتح أبواب العلم لمن يشاء من عباده، ويستوي في ذلك المؤمن والكافر، إلا أن الكافر قد يفتح الله عليه أبواب العلم بالدنيا، ولا يفتح عليه من العلوم الأخروية شيئاً، ولو فتح له باباً منها لأسلم"³³².

العليم: صفة يمكن استمدادها من قبل المستخلفين في الأرض ويمكن أن تُهب لهم هبة من العليم المطلق ممّا يجعلهم علماء في دائرة النسبية.

العليم: هو المدرك لما يخلق قبل خلقه، والمدرك لأمره أثناء خلقه، وهو الذي لا تخفى عليه خافية فيما جرى قبل الخلق وأثنائه، وهو المدرك لمن أراد أن يتذكر أو يهتدي للحقّ الذي به هو أعلم. إنه مصدر العلم الناقل من الظلمة إلى النور. العلم الذي لا يقتصر على الأبصار فقط بل العلم الذي يمتد إلى البصيرة فيدرك إدراكاً. العلم الذي تستنبطه العقول وتستدل عليه بالحجّة والبرهان والآية الدالة على الإثبات بالمطلق.

³³⁰ حصة بنت عبد العزيز، شرح أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته الواردة في الكتب الستة. الرياض .

دار القاسم للنشر، ص 180.

³³¹ محمد بكر إسماعيل، أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها. مرجع سابق، ص 84.

³³² المرجع السابق، ص 86.

العليم المطلق: هو السابق على العلم حيث لا علم إلا منه، ولذا لا يستمد العلم إلا من عليم. فالعليم هو السابق على كلّ سابق ولا سابق عليه. فهو الذي يعلم بما يحدث قبل أن يحدث، وهو الدائم الذي ينهي ولا يُنهي.

أمّا العليم بالإضافة فهو المؤقت الذي لا يبقى مهما أمّ من علم من علمه الواسع، ولذا فالعلم الدائم للحجى الدائم والعلم المؤقت للعليم المؤقت (الخليفة).

والعالم: هو المدرك لأمر الغيب والشهادة، وهو الذي يحيط بكلّ شيء علما، والمحتوي لكلّ والجزء والمتجزئ منه، فيسع كلّ شيء ولا شيء يسعه.

والعالم بالإضافة: هو المتمكن من العلم الذي أظهره عليه العالم المطلق مباشرة كما هو حال الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أو كالمؤمنين الذين اهتموا بالعلم الذي أظهره لهم الرسل والأنبياء وبما تركوه لهم من علوم ومعجزات وكتب محفوظة.

والعالم: هو الباقي الذي لا تخفى عليه خافية في السماوات والأرض.

ويتساءل الشيخ الشعراوي عن علم الغيب بقوله: "ما الغيب الذي أراد الله أن نؤمن به؟ ويجب على ذلك بقوله: إنه الغيب الذي لا يكون مصدره إلا الله سبحانه وتعالى، ذلك أنّ الإيمان لا يمكن أن يتعلق بشيء محسوس أبدا. فلا يقال على سبيل المثال: أنا أوؤمن بأن الشمس ساطعة، أو أنا أوؤمن بأن القمر يكون بدرا في منتصف الشهر العربيّ. فهذه حقائق ماثلة وليس بغيب. ويقول في رواية عن سيدنا عمر رضي الله عنه قال ما معناه: بينما نحن جلوس عند رسول الله إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، وشديد سواد الشعر، ووضع ركبته على ركبتي رسول الله

ووضع يديه على فخذي رسول الله، وسأل السائل رسول الله: ما الإيمان؟ أجاب رسول الله: أن تؤمن بالله (وهو غيب)، وملائكته (وهو غيب)، ورسله (وهو غيب)، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره (وهو غيب) وأضاف السائل سؤالاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ومتى تقوم الساعة؟ أجاب الرسول: (ما المسؤول بأعلم من السائل) وأنصرف الرجل، فقال الرسول: أتعلمون من كان هذا الرجل؟ قلنا: لا نعلم يا رسول الله. أجاب الرسول: (إنه جبريل جاء ليعلمكم أمر دينكم)"333.

وعلم الغيب: هو العلم الذي لا تدري به عقول وأذهان من يُسألون أو يتساءلون. وهو العلم المتعلق بالزمن وفقاً للآتي:

. ما يتعلق بعلم الغيب بالزمن المستقبل: من حيث أنه العلم الذي لم يأت زمن ظهوره بعد، ولا شواهد له في الزمن الآن. إنه العلم الذي سيحدث وتظهر معطياته وبراهينه بقوة علام الغيوب في الزمن المستقبل دون أن يعلم بها أحد، قال تعالى: {يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}334. بطبيعة الحال بما أنّ يوم الجمع لم يأت بعد فهو يُعدُّ علم غيب إلى أن يُنفى بعلمه يوم يأتي في الزمن الآتي.

. ما يتعلق بعلم الغيب بالزمن الماضي: فعلى سبيل المثال: زمن بداية الخلق مع أنه وقع في الزمن الماضي إلا أنه غير معلوم بالنسبة لمن خلق، ولذا فأمره أمر علم غيب الذي لا يعلمه إلا علام الغيوب؛ وكذلك ما وقع في الزمن الماضي مع أن الخالق أحصاه وعده عداً إلا أنّ العقل البشري لا يُدرك منه إلا القليل، ولذلك فهو يجهل الكثير منه، ممّا يجعل

³³³ محمد متولي الشعراوي، أسماء الله الحسنى. مرجع سابق، ص 240. ونص الحديث في صحيح

مسلم، ج 1، ص 28.

³³⁴ المائة، 109.

المجهول منه في عداد علم الغيب الذي لا تُخفى عليه خافية. قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} 335. لقد علم العليم آدم الأسماء كلها، أي الأسرار كلها، ثم طلب من الملائكة التي لم تعلم بها أن تنبأه بها فعجزت عن ذلك. فالذي يتضح من هذه الآية أن الأسماء لم تعد من علم الغيب بالنسبة لآدم بعد أن علمه وأعلمه الله بها، ولكنها علم غيب بالنسبة للملائكة التي لم تعلم بها بعد مثلما علم بها آدم صلوات الله وسلامه عليه. ولذا فعلم الغيب أصبح بالنسبة لآدم علما ظاهرا، ويعدده كما نحن نعدده من علم الماضي. ولكن الملائكة الكرام في الزمن الذي طلب الله فيه منهم أن ينبئوه بالأسماء التي سبق أن علمها لآدم يعد الأمر بالنسبة لهم علم غيب، وظل العلم الذي أنبأهم به آدم علم غيب خلال الفترة الممتدة من علم آدم به إلى زمن ما قبل إنبائهم وإظهارهم عليه.

. ما يتعلق بعلم الغيب في الزمن الآن الحاضرة: إنه العلم الذي يحتوي الآتي:

1. ما لا نتذكره من أحداث وقصص وآيات قد وقعت في الزمن الماضي.

2. ما لا نفكر فيه وسيحدث لا محالة في الزمن المستقبل.

ولذا فعلم الغيب في الزمن الآن هو العلم الإعجازي الذي لا تدركه عقولنا ومعارفنا ولا تستوعبه ذاكرتنا ولا نحيط به شيء. وهو العلم الذي

³³⁵ القيامة، 31. 33.

إن سؤلنا عنه لا تكون عندنا إجابة له بشيء برغم حدوثه في الماضي أو ظهوره الذي سيحدث في المستقبل.

والأصل في العلم هو الغيب، والاستثناء منه هو الظهور، وإلا ما معنى أنّ الله خلق الشيء من لا شيء؟ أنه يعني قد خلق الله ممّا لا نعلم شيئاً نعلمه، أي أننا عُلِمنا ممّا لا نعلم علماً. ووسيلة الاطلاع على علم الغيب هي الرسالات التي نزلت على الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، الذين بُعثوا لأُممهم وقراهم وشعوبهم ومن بعث للكافة جميعهم مبشرين ومنذرين ومحرضين وفاعلين للخيرات، فقد بدأ علمنا من العلم الذي أظهر الله عليه أبونا آدم عليه الصلّاة والسّلام الذي اصطفاه الله بالعلم ممّا خلق وخصّه بالمعجزة التي جعلت الملائكة تسجد له طاعة لأمر الله في الاصطفاء. وهكذا جاءت المعجزات ونزلت بعلمها على بقية الرسل الذين منهم نوح وآل إبراهيم وآل يعقوب وإسحاق وإسماعيل ويوسف وموسى وعيسى ومحمّد عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه.

وبما أن علم الغيب هو الأصل، والظهور هو الاستثناء، إذن من حقّ الجميع أن يقولوا صدق الله العظيم فيما قال: (وما أتيتم من العلم إلا قليلاً)، وصدق الله العظيم فيما قال: (وقل ربّي زدني علماً). وبناء على هاتين الآتين الكريمتين، تتأكد المعطية التي تقول: (إنّ الاستثناء جزاء قليل من كلّ كثير) ولهذا فالاستثناء هو ما أُتينا من العلم إلا القليل، وهذا يدل على أنّ العلم الوفير هو علم غيب وهو القاعدة، ممّا يستوجب على المؤمن أن يسعى والأمل معه وهو ويقول: ربّي زدني علماً من علمك الواسع يا عالم بأسرار الغيب يا لمّجيب.

وعلامّ الغيوب: هو المدرك لما لا تدركه العقول إلا بعلمٍ منه. وعلامّ صفة مبالغة في العلم بالدليل والحجّة والبرهان والآية. والعلامّ: هو الذي تسبق معرفته بالشيء قبل أن يكون شيئاً.

والعلم: محتوى ومضمون لكامن وظاهر، يُعَلِّم من عالم ويُستمد من
عليم حكيم.

وللعلم علاقة مباشرة بالحكمة، والسمع والخلق والعزة والقدرة والفتح
والخبرة وفقا لما جاء في قوله تعالى في الآيات التالية:

1 . علاقته بالحكمة مصداقا لقوله تعالى: { قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا
إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } 336.

2 . علاقته بالسمع كما قال تعالى: { وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ } 337.

3 . علاقته بالخلق كما قال تعالى: { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ
الْعَلِيمُ } 338.

4 . علاقته بالعزة، مصداقا لقوله تعالى: { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى
يُؤْفَكُونَ } 339.

5 . علاقته بالقدرة، قال تعالى: { يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ
الْقَدِيرُ } 340.

6 . علاقته بالفتح، قال تعالى: { قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا
بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ } 341.

³³⁶ البقرة، 32.

³³⁷ الأنفال، 61.

³³⁸ الحجر، 86.

³³⁹ الزخرف 9.

³⁴⁰ الروم 54.

³⁴¹ سبأ، 26.

7 . علاقته بالخبرة، قال تعالى: {وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأُكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ} 342.

والعليم بالإضافة هو الملم إلمامًا بالعلوم التي أظهره عليها العليم المطلق، مما يجعله يعلم ما لم يعلمه غيره وفي هذه خصوصية لمن يصطفاهم الله لسرٍّ من أسراره وحكمة من حكمته كما هو حال يوسف عليه الصلوة والسلام في قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} 343.

ولأنَّ أمر الأسرار والحكم التي من وراء العلم ليس هينا فيتولى الله اختيار وتفضيل من هم متهيئون لهذه المهمة الصعبة فيصطفاهم لها، ويعلمهم ما لم يعلموا إظهارًا، فتصبح رؤاهم سابقة على حدوث الفعل، أي أنَّ المعلومة التي تتعلق بأمرٍ سيحدث يتم اطلاع البعض عليها حتى يصبحوا أهل قدرة على الأنباء بما قبل حدوثها وإن حدثت فهم لها خير مفسرٍ. ووفقا لهذه القاعدة كان يوسف عليه الصلوة والسلام خير مفسر للأحاديث، التي علمه العليم تأويلها. وقوله (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب) يقصد بالنعمة النبوة التي أخص بها الله آل إبراهيم والذين جاءوا من أصلاهم إسحاق ويعقوب ويوسف وآخرين من بعدهم ومن بينهم موسى وعيسى ومحمد عليهم جميعا الصلوة والسلام.

وفي قوله (إنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) فهي تدل على علمه وحكمته من وراء العلم الذي أظهره الله ليوسف والنبوة التي أتمها عليه كما أتمها من قبل على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق.

342 التحريم، 3.

343 يوسف، 6.

وفي آية أخرى يقول تعالى: { كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } 344. فإذا نظرنا لخاتمة هذه الآية (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) نلاحظ أنّ العلم الذي علّمه الله ليوسف هو علم الخصوص للعموم أي خصّ الله به يوسف ليظهره للمستهدفين به من قومه، وليبقى من بعده آية تروى مع قصص الأنبياء كما نحن في هذه الموسوعة نحلل ونفسّر ونروي.

ولنعود لقوله (وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض) أي بعد ما رماه أخوته في الجب لا لذنّب إلا لأن محبته في حالة تميّز عند أبيه صلوات الله وسلامه عليهما أصبح في محبة الملك، الذي اشتراه حتى تمكّن من بيت التخطيط والمال، ممّا جعل سمعته قدوة حسنة لدى الملك وفي محيطه الاجتماعي القريب والبعيد. وإلى يومنا هذا بين أيدينا آية.

وقوله (وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) ولنمكنه من معرفتها وكشف أسرارها وتفسيرها لمن يتعلق الأمر بهم أو ذوي العلاقة، وهذه حكمة خصّ بها الله تعالى يوسف عليه الصّلاة والسّلام.

وتأويل الأحاديث: التمكن من التعرف على عللها وتفسيرها وفقا للأحداث المتعلقة الأمر بها، وهي أيضا كما يقول القرطبي: تأويل الرؤيا والكلام وأحاديث الأمم ودلائل التوحيد 345.

وقال تعالى: { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } 346. بلوغ الأشد، بلوغ النضج والاكتمال العقلي والبدني

³⁴⁴ يوسف، 21.

³⁴⁵ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء التاسع، ص 190.

³⁴⁶ يوسف، 22.

والاستعداد لحمل المهمة التي ستناط به من رب العالمين. حينها آتاه العليم سرا ففضى له بالحكم في سلطان الملك وآتاه النبوة، ثم آتاه علما نافعا به تمكّن من تأويل الأحاديث. وهكذا ربنا يُكرم الذين يتولاهم بإحسان، ولذا فالمحسنون هم الذين يكثرون من أفعال الخيرات الحسان ويتمسكون بصفات الله تعالى في أقوالهم وأفعالهم وسلوكياتهم، وهكذا كان يوسف عليه الصّلاة والسّلام خليفة الله في الأرض ليصلح فيها ويعمر.

وقال تعالى: { رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّي بِالصَّالِحِينَ }³⁴⁷. يوسف عليه الصّلاة والسّلام قد عرف أنه لم يؤت الملك وتأويل الأحاديث بالمطلق، بل أوتي شيء من الملك ومن تأويل الأحاديث مصداقا لقوله تعالى { وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا }³⁴⁸ أي أنّ الكمال لله وحده ولهذا لا يمكن أن يكون أحد ممثلا له في شيء، ومع ذلك فالذي يُراد له أن يكون خليفة في الأرض يُراد له أن يسعى ويبحث ليزداد علما من علم العليم الذي بيده مفاتيح العلم، ولذا قال تعالى: { وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا }³⁴⁹ أي زدني إلماما وفهما ومعرفة بما أحطت به علما.

وقوله (فاطر السماوات والأرض) خالقهنّ من لا شيء نعرفه سبحانه على كلّ شيء قدير، ومن هذا الأمر كانت الفطرة التي خلق الله عليها طبيعة الأشياء كما هي عليه في الوجود، والفطرة ترتبط بخالقها ولا ترتبط بمن سواه، ولذلك خلق السماوات والأرض على الفطرة رحمة للعباد.

³⁴⁷ يوسف، 101.

³⁴⁸ الإسراء، 85.

³⁴⁹ طه، 114.

وقوله (أنت وليّ في الدنيا والآخرة توفي مسلماً والحقني بالصالحين) تحتوي هذه الآية الكريمة على أمر التسليم المطلق لله تعالى في الدارين، والمراد من وراء ذلك طلب المناصرة والعون على مغالبة النفس وأهوائها ومغالبة الصعاب، وطلب الرحمة والمغفرة حيث الكمال لله وحده. وتُظهر هذه الآية رغبة يوسف في الالتحاق بمن سبقه من الصالحين رضوان الله وسلامه عليهم.

وعليه فالعليم هو مصدر العلم من الأدق إلى الأدق منه والأشمل، وهو الذي لا تخفى عليه خافية فأينما تكون لا تخفى عليه فهو خالقها وخافيتها حتى يظهرها على من يشاء من عباده متى ما شاء. قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} 350. علّم آدم الأسماء كلها: أظهره على الأسرار وعرفه بمسمياتها دون لبسٍ أو غموضٍ حتى أنه المّ بها إلمامًا وإدراكًا تامًا غير منقوص، وإظهار عدم معرفتها خضع حضور الملائكة للاختبار بطلبه أن ينبئوه بالأسماء إن كان لهم علم بها، فقالوا: سبحانك، وفي هذا القول كما قال القرطبي تنزيه الله تعالى عن أن يعلم الغيب أحد سواه 351. وقوله (لا علم لنا إلا ما علمتنا) أي لا علم لنا بشيء لم تُظهرنا أو تطلعنا عليه، فأنت سبحانك العليم بكلّ اسم ومسمى.

وقوله (إنك أنت العليم الحكيم) في هذه الآية تحديد لأسم الله الذي لا يحده حد ولا تحوطه نهاية بأنه هو العليم الحكيم، أي أن العلم والحكمة أسمين من أسمائه الحسنی وصفتين من صفاته الكريمة.

³⁵⁰ البقرة، 32.

³⁵¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الأول. ص 287.

قال تعالى: {فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ} 352. لقد كان إبراهيم خائفاً من الملائكة الذين لم يعلم بأمرهم وهم على هيئة بني آدم وليؤمنهم أعد لهم طعاماً يليق بضيافتهم.

وفي هذا الشأن قال عمرو بن دينار: قالت الملائكة لا نأكل إلا بثمن. قال: كلوا وأدوا ثمنه. قالوا: وما ثمنه؟ قال: تسمون الله إذا أكلتم وتحمدونه إذا فرغتم. فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: لهذا اتخذك الله خليلاً. وبشروه بغلام عليم هو إسحاق الذي سيولد له من زوجته سارة، وله من العلم ما يجعله عليماً من علم الله عليه 353.

قال تعالى: {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} 354. بعد أن علم العليم آدم بأسمائهم قال له أنبئهم بها فأنبئهم، وذلك ليثبت لهم بأن آدم هو اعلم من علمه منهم، وفي هذا الأمر تفضيل كبير لآدم على بقية من خلق، وبهذا التفضيل أصبح بنو آدم هم المستخلفون في الأرض. مصداقاً لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 355.

وعليه فبأسباب العلم التي ميّز بها العليم آدم جعله بها خليفة في الأرض ليعمرها ولا يفسد فيها ولا يسفك الدماء وبهذه الحجّة (حجّة العلم) كان الاستخلاف في الأرض، وعلينا أن نقول العلم الذي وهبه الله

352 الذاريات 28.

353 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الجزء السابع عشر، ص 46.

354 البقرة، 33.

355 البقرة، 30.

وعلمه لآدم هو سبب الاستخلاف، ولذا فمن كان على علمه تعالى كان خليفة، ومن لم يكن على علمه تعالى فليس له علاقة بالاستخلاف في الأرض ولكنه من المخلفين عليها. ولأنّ الملائكة مؤمنون فكان حال قلوبهم يقول وهم ينفذون أمر السجود لآدم: سبحانك جل جلالك ما فعلت هذا باطلا، وذلك ليستغفروا على قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك). وبسجودهم هذا كانوا يظهرون إيمانهم وتسليمهم لقوله (إني اعلم ما لا تعلمون). والعلم الذي يعلمه الله ولا تعلمه الملائكة هو أن الله يعلم أن آدم وحده هو القادر على الأنباء بالأسرار التي علمه إياها. ولذا فإن الذين يفسدون في الأرض من بني آدم ويسفكون الدماء فيها بغير حقّ هم ليسوا بخلفاء، وذلك لأن الخلفاء في الأرض هم المصلحون فيها. مصداقا لقوله تعالى: {وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ} 356. وقوله تعالى: {وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} 357 من الآيتين السابقتين يبرز وضوح العلاقة بين الأرض والاستخلاف فيها على الإصلاح، ويتضح في الوقت ذاته أنه لا علاقة للاستخلاف مع من يفسد فيها.

وقوله (إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتمون) تحتوي هذه الآية على أربع قضايا من علم الغيب:

. القضية الأولى علم غيب السماوات: السماوات مليئة بالأسرار ولم يكشف أمرها بالتمام، فنحن بنو آدم من المستخلفين في الأرض تمكناً من أن نلم بشيء من علوم الأرض ولم نتمكن إلا بالقليل القليل من علوم السماوات التي لا نعلم إلا بعددها (سبع سماوات) وما يحيط بها من

³⁵⁶ الشعراء، 151، 152.

³⁵⁷ الأعراف، 142.

كواكب ومدارات فلكية ولكن أين بداياتها ونهاياتها بالتحديد الدقيق وعلى ماذا تحتوي وأين الحياة فيها فهذه في معظمها علم غيب لا يعلمه إلا العليم بأمر خلقها سبحانه عزّ وجلّ. فأمر السماوات أمر علو طبقي من السماء الدنيا التي تحيط بكوكبنا وهي تحمل في مداراتها ما لا يستطيع بشر إحصاءه من المصابيح العاكسة للضوء ليلا حتى يتمكن الإنسان من مشاهدتها وملاحظة حركتها وهي تتألاً من اتجاه إلى اتجاه وذلك ليرينا بعض من آياته العظام.

إذا كان أمر السماء الدنيا هكذا فما بالنا بأمر السماوات التي لم يتم كشفها بعد، وكما سبق أن قلنا لا علم لنا إلا بعددها إبلاغاً خبيراً، أمّا ما هي عليه وكيف هي بالتمام فهذا الأمر لا زال علم غيب، والحكمة من وراء إبلاغنا بالعدد دون أن يظهرنا على مكوناته هو لكي نفكر ونسعى ونبحث ونتعرف ونتطلع إلى ما خلق الخالق العظيم لنجله ونعبده ولا نشرك به أحداً. وإلى أن يظهرنا الله عليها أو على بعض منها سيظل علمها علم غيب.

قال تعالى: {أَمْ تَرَوُا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا} 358. يا الله سبحانه ما أعظم شأنك أشهد أنك لم تكن في حاجة لمن يعبدك، وأشهد أن من يعبدك هو في حاجة إليك، لقد خلقت كل هذا ولا زلت تخلق فليؤمن من يؤمن وليكفر من يكفر لا إله إلا أنت. أنت الذي خلقتنا وأنت الذي تعلم بحالنا، وأنت الذي يُتَوَدَّدُ إليه فنستغفره ونؤمن به ونفوز برحمته، ونحن منّا من يعتقد بأنه لا ضرورة لذلك ويطغى، هؤلاء حالهم يا الله كحال الكتكوت في البيضة قبل أن يخرج منها، فهم يظنون كما هو يظن، أنه لا عالم أكبر وأوسع وأعظم من العالم الذي يحوطه بجدار البيضة.

³⁵⁸ نوح، 15، 61.

ولأجل أهمية التوضيح بالمقارنة بين من يدرك وبين من لا يدرك على مستوى ما خلقت يا واحد يا أحد يا من لا يقارن بأحد، أعيد على القراء الكرام كتابة جزءٍ من قصة عالم الكتكوت التي اقتبستها من كتابنا المعنون بـ(البستان الحلم) والتي تطرقنا إليها في الكتابة عن اسم المهيمن.

قصة الدجاجة التي احتضنت بيضها بالدفء لتغرس في أفراخها حنان الأمومة الذي يملأها من احتضان أمها لها في الزمن الماضي، وقبل يوم واحد من اكتمال نضج الكتاكيت في البيض أخبرتهم الدجاجة الحاضنة بأن غدا ينتظرهم بخيرات كثيرة وسيتنقلون بأرجلهم في البستان تحت ظلال الأشجار نهارا وينامون على أغصانها ليلا، فسأل أحد الكتاكيت أمه: هل هناك عالم أوسع وأفضل من العالم الذي نحن نعيش فيه؟

فأجابته بنعم.

وما هو يا أمي؟

عالم الحياة الواسعة بين الكتاكيت والكائنات الأخرى وفي وسط الحظائر والبساتين تُقدّم لكم الخدمة من أياد البشر المفضلين عليكم في الخلق.

أنه من الصعب التصديق يا أمي بأن المفضلين علينا هم الذين سيقدمون لنا الخدمة.

ها أنا يا أبنائي أحدثكم من العالم الواسع والعقلاء فيه هم الذين يوفرّون لي الغذاء والمأوى والتدفئة اللازمة للبقاء.

ولكن يصعب علينا التصديق بما أننا لا نراك وإياهم.

إنكم سترون غدا بعد خروجكم إلى عالمنا الواسع ما لم يسبق لكم رؤيته، سترون الشمس والقمر والنجوم لتعرفوا المواقيت كغيركم من المخلوقات الأخرى، وستعرفون من يمشي سويا ومن يمشي مُكبًا على وجهه، وستميزون بين الطائر والزاحف كما تميزون بين اليابسة والماء، بعدها تعرفون أن ما قلته لكم هو الحقّ.

نحن لا نُصدِّق ما تقولين ولا نرغب في الخروج إلى عالمكم الذي تدّعين بأنّه أوسع من عالمنا الذي يملأنا بالاستقرار كما تملأنا الراحة والطمأنينة فيه.

أنتم وعالمكم الذي تدّعون باتساعه كلِّكم من أحشائي، وأنا في هذا العالم لم نشبع نهم ثعلب.

ومن هو هذا الثعلب؟

عدوي وعدوكم.

بما أنّ الأمر هكذا، إذن يبدو أنكِ مُصرة على بيعنا بلا ثمن.

لا، لم أقصد يا أبنائي ولكن عليكم أن تعرفوا أن لكلّ بداية ونهاية، حياتكم داخل البيضة لها بداية ونهاية، وحياتكم في عالمنا ستكون لها بداية ونهاية، ولكلّ أسباب، ومن بينها العداء الطبيعي بيننا وبين الثعالب.

ولهذا نحن لن نخرج حتى لا نكون تحت رحمة الثعالب وتكون لنا النهاية، ونحن على يقين أنّه لا يمكن أن يوجد عالم أوسع وأفضل من العالم الذي نعيش فيه.

غدا سيأتي وخروجكم سيأتي إلا إذا وقعت لن.

وما هو سر لن هذه؟

أن تموتوا داخل البيض أو أنّ غدا لن يأتي عليّ وعليكم أو يحدث عالم الغيب أمرا.

في الفجر صاح الديك كعادته فاستمعت الفراخ في عالمها إلى صوته فتساءلت: وما هذا الصوت المدوي يا أمّاه؟

صوت أبيكم يعلن عن فرحته بموعد خروجكم من زناناتكم الانفرادية إلى الحياة الطبيعية ليراكم بأمر عينيه تأكلون الحب وتلتقطون الحشرات كما يفعل هو، وسأفرح أنا مثله.

أنه من الغرابة أن تفرحا بخروجنا من العالم الواسع الذي لا يشاركنا فيه أحد إلى عالمكم الذي تشارككم فيه الثعالب.

ستخرجون بالقوة لا بالإرادة.

سنصرخ ونبكي.

الصراخ والبكاء لا يوقف قدوم المستقبل وصراخكم هذا هو سبب تكسير البيض الذي يخرجكم إليه (إلى المستقبل).

صُراخ... صُراخ... يُكسّر البيض من شدة الصراخ، ما هذا النور؟ وما هذه الأرجل التي تحملنا؟ وما هذه المساحات الشاسعة؟ وما هذا الليل الطويل؟ ومن ذا الذي يُقدّم لنا الخدمة ويسهر على راحتنا؟

بكاء... بكاء وفرحة... فرحة... صدقت يا أمنا صدقت، ولكن أين الغذاء؟

ها هو يملأ الأرض.

ولكن كيف يؤخذ؟

افعلوا مثل ما أفعل، اضربوا مناقيركم في الأرض فأنا لا ارضع.

إنَّ ما نستنتجه من هذه القصة اللطيفة هو أن الذي يجهل الأمر لا يدرك عاقبته فحاله كحال الكتكوت في البيضة قبل أن ينضج للخروج، وهؤلاء هم الذين لا يدركون ما يُلاحظ وذلك لقصر عقولهم على ما يُحس به أو يُبصر. وهكذا حال الذين يظنون بأن ما على الأرض لا يساويه شيء آخر، ولا يوجد ما هو أعظم منه، بل أن بعضهم يظن لا وجود لشيء خارج الأرض والسماء الدنيا، فلا خالق ولا جنة ولا سماوات سبع ولا حساب ولا عقاب إلى أن يفاجئوا كما فوجئ الكتكوت يوم أن خرج بالقوة من البيضة. والفرق بين أمرهم والكتكوت هو أن الكتكوت وجد العالم الواسع بمقارنة عالمه داخل البيضة مع العالم الذي تمتد الأرض فيه حتى تلامس السماء، أمّا أولئك البعض الذين عرفوا وأنكروا أو أنّهم ظنوا ولم يدركوا أو أنّهم عرفوا وأشركوا هؤلاء ومن هم على مثلهم ليس لهم مناقير ليضربوا بها الأرض؛ فيوم أن تُطوى السماوات وتُنقص الأرض من أطرافها سيجدون كلّ ما فعلوه محضرا ولا تظلم نفس بذنب لم تقترفه.

ويومها يصبح الحقّ للذين آمنوا بأن يعيدوا على الذين أشركوا وكفروا ما قاله الله تعالى في كتابه العزيز: (الم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا وجعل القمر فيهنّ نورا وجعل الشمس سراج)؟ يومها لا تنفعهم الإجابة وهم بما عملوا حطب في نار جهنم.

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} 359 بطبيعة الحال خالق الأشياء لا تُخفى عليه خافية، ولهذا تُعد عملية الخلق معلومة للخالق ومجهولة لمن سواه، ممّا يجعل أمر علمها أمر غيب على من لم يكن بخالق. قال تعالى: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنْ

³⁵⁹ آل عمران، 5.

السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ
مَسْحُورُونَ {360.

علم الغيب مع أنه حقيقة إلا أن المشركين ناكرون له، وللمغالبة جاء
بقوله: (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما
سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا) أي لو جئنا بهم صعودا مع أبواب السماء المفتحة
لصعودهم ورأوا بأمهات عيونهم الحقيقة لأنكروها وكأن عيونهم فاقدة
للبصر الذي به رأوا ملائكة السماء وشاهدوا معجزاته العظام لأنكروا
وهم يصرون على الكفر. ومع أن في السماء علما معلوما ظاهرا
كالنجوم والكواكب والنجوم ومنازلها الواسعة التي تحتوي الشمس والقمر ومدارهما
الفلكية، إلا أن معظم ما في السماء هو علم غيب ولم يؤت الخليفة منه
إلا قليلا. قال تعالى: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا
بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} 361 بناء على هذه
الآية نحن بنو آدم المؤمنون حقا نعتقد بأن لكل بداية نهاية، مصداقا
لقوله تعالى: (كما بدأنا أول خلق نعيده) ولذا فالأمر الطبيعي كما
بُسطت الأرض وسُطحت في البداية فهي ستعود إلى الحالة التي كانت
عليها قبل أن تبسط وتسطح مطوية حالها كحال الصحيفة المطوية في
اليد الواحدة مصداقا لقوله تعالى: {وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} 362 والغيب في هذا الأمر هو متى ستطوى؟ لا
أحد يجيب. وكيف تطوي في يمينه مع التشبيه بطي السجل للكتاب؟
وكيف حال يمينه هذا الأمر لا يعلمه إلا الله عالم الغيب والشهادة الذي
لا نراه ولا نتخيله في أي صورة فهو المصور المطلق الذي لا يُصوَّر
بالمطلق.

³⁶⁰ الحجر، 14 . 16.

³⁶¹ الأنبياء، 104.

³⁶² الزمر، 17.

. القضية الثانية علم غيب الأرض: الأرض هي الكنز الكبير وبيت الكسب الممتلئ بالوفرة لمن أراد أن يكسب منها حالاً، وعلى أديمها نعيش فنحرث ونزرع ونحصد ثم نأكل، ومن باطنها نستمد الكنوز المتنوعة من ماء وذهب أسود واصفر وجميع أنواع المعادن النفيسة، ومع ذلك وُزِعَت الأرزاق على العباد في سهولها وجبالها وصحاريها وبحيراتها وبحارها ومحيطاتها ونباييعها ووديانها وأنهارها، وإذا ما غضبت وتزلزلت قذفت بقوتها الحجارة والصخور الصماء ويران البراكين على رؤوس الذين يُسدوا فيها ولم يحسنوا إصلاحها.

قال تعالى: { إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ } 363. علم الزلزلة من علم الغيب من حيث متى ستهتز الأرض وتزلزل، وفي أي مكان بالتحديد، ومدى قوة زلزلتها؟ وما هي الخسائر المترتبة على ما تُلحقه الزلزلة من دمار؟ فالذي يعلمها قبل أن تُظهر مؤشراتها هو العليم المطلق. أما العليم بالإضافة لا يعلم أمرها إلا بعد أن يصدر لها صاحب الأمر أمر الزلزلة حينها تبدأ في حالة امتداد وثوران قابلان للقياس والرصد بالعلم الذي تمكّن العليم بالإضافة من معرفته من العليم المطلق. فالذي لا يعلم بأمر الزلزلة يفاجئ بزلزلتها وهي تخرج أثقالها وتقذفها مع براكينها بعيداً مما يجعله يتساءل: ما لها؟ أي ما الأمر؟ وما الذي يحدث؟ أسئلة استغرابية حتى يعلم أنها الزلزلة أو يُخبر بأمرها في يوم من الأيام ليحجب على استفساراته الاستغرابية عن حالة الأرض وما المّمّ بها بقول الذين يعلمون بأن ربك هو الذي أوحى بأمره للأرض بأن تتزلزل، يومها يعلم الناس إنّ زلزلة الأرض من علم الغيب.

³⁶³ الزلزلة، 1. 8.

أما المؤمنون المستخلفون فيها فهم يدركون يقينا إن أمرها من أمر الغيب الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل.

وقال تعالى: {وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ} 364. أهواء المشركين تظن أن في الأرض آلهة متعددة وليس إلهما واحدا، ولأنه لا إله إلا الله فلا وجود لآلهة إلا قولا وشركا وكفرا، فلو كانت في الأرض آلهة لكان الاختصام والمواجهة بينهم على من يصدر الأمر، ولمن يُصدر؟، ومن الذي يطيعه؟؛ ولو كان الأمر كذلك لفسدت السماوات والأرض بالأوامر المختلفة للآلهة، فالحمد لله الواحد الأحد الذي لم يكن له والد ولا والدة ولا ولد، ولا صاحبة ولم يشاركه في الملك أحد سبحانه.

. القضية الثالثة علم غيب الظاهر (ما تبدو): ما تبدو تعني ما تُظهرُونَ وتُعلنون وهي أيضا تعني ما يبدو لكم ظاهرا؛ فالله يعلم أمره قبل إعلانه وبعد، حيث لا سر عن علام الأسرار والحكم التي من ورائها. قال تعالى: {إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} 365 وكان بكل شيء عليما: تدل على أسبقية علمه بالأشياء بالمطلق.

قال تعالى: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 366 مع أننا نؤمن به يقينا ونعرف صفاته الحسان يقينا إلا أننا لا نراه بأمهات أعيننا، وذلك لأنه لم يكن مادة مجردة ولا روح مجردة بل هو الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، فهو الذي نعلمه ونُدركه ونُخافه ونتقيه ونسجد له ونركع، ولا نسجد ولا نركع لسواه، هو الله الذي يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، وهو الحي الباقي

³⁶⁴ المؤمنون، 71.

³⁶⁵ الأحزاب، 54.

³⁶⁶ الحديد، 3.

الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، خلق كلَّ شيءٍ ويحيط بكلِّ شيءٍ علماً سبحانه لا إله إلا هو الواحد القهَّار.

وفي علم الظاهر قال تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ} 367{ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ} جاء في هذه الآيات شواهد للظاهر مع استفسار عن الكامن الذي من ورائه وهو أننا نظرنا إلى الإبل والسماء والجبال والأرض ولمسنا منها ما لمسنا وعرفنا منها ما عرفنا ونظرنا ومشينا وشرَّبنا ولبسنا وبنينا، ولكن هل نستطيع أن ننظر إلى الكيفية التي بها وعليها خُلقت لأجل أن نعرف؟ إنَّه من حقِّنا أن نسعى لنعرف، ولكن كلِّما عرفنا منها شيئاً آمناً بأنَّ أمر الكيفية التي عليها وبها خلقت هو أمر غيب؛ ولأنَّه أمر غيب، لذا فنحن لأمر الغيب ليس بناظرين. وهكذا حال المخلوقات وفقاً لما تنص عليه القاعدة: (المخلوق لا يرى خالقه في الدنيا والخالق يرى ما خلق).

القضية الرَّابِعة علم غيب الباطن (ما تكتُمون): الكتمان الإخفاء وعدم الإباحة بالسرِّ الذي ليس بسرِّ على من يعلمه، قال تعالى: {فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَمَ يُبْدِيهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ} 368 أي أنَّه أخفاها ولم يظهرها لهم مع أنه شعر بذنبهم نحوه بما رموه به من سرقة، وهو لم يكن من السَّارقين، إلا رميا بغير حقِّ يوم أن أخذ الصنم من جدِّه أبي أمه وكسره 369. ومع أنَّ أخذ الصنم وكسره ليس بعمل باطل إلا أن إخوته كانوا من الظانين به، لا لشيء إلا لحب أبيه له وكأنَّه المفضَّل عليهم، فما قام به يوسف عليه الصَّلَاة والسَّلَام هو

³⁶⁷ العاشية، 17 . 21.

³⁶⁸ يوسف، 77.

³⁶⁹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء التاسع، ص 239.

عمل حقّ وفعل حقّ، وليس بفعل سرقة. فالسرقة سرُّها أن تُخفى ويتم الاحتفاظ بالمسروق للفائدة الشخصية غير المشروعة، وهذا ما لم يحصل مع يوسف والصنم الذي أقدم على تكسيره. إنه عمل خير من قبل من كانت النبوة فيهم.

قال تعالى: {يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ} 370 ما يخفونه في أنفسهم هو الذي يعلمه العليم الحكيم، فهم يعلنون الإيمان ويخفون في صدورهم حقيقة أمرهم وهو الشرك والكفر والتكذيب، وهم على هذه الحالة يظهرون للرسول بأنهم من الذين آمنوا ويخفون له في أنفسهم ما لا يظهرونه وهو الشرك بالله تعالى.

وعلم الغيب هو العلم المدرك لما لا يُدرك، وهو ينقسم على جزأين:

الجزء الأول: كل ما خلقه الخالق هو يعلمه، وهو العلم الذي لم يطلّع مخلوق عليه، فهذا الجزء علمه يقع في دائرة الغيب المحاطة بالاستحالة. فمع أنه علم كامل بالإنجاز الخلقى، إلا أنه بالنسبة لبني آدم هو خارج دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع، وسيظل أمره مستحيلا إلى أن يخرج أو يخرج شيء منه من دائرة المستحيل ويدخل في دائرة الممكن، التي من بعدها يتم التعرف عليه أو التعرف على شيء منه. وهذا الأمر لن يتم إلا إذا أراد العليم المدرك لما خلق أن يظهرنا عليه أو يظهرنا على شيء منه.

الجزء الثاني: هو الذي لم يُخلق بعد وسيخلق لا محالة هو الآخر علم غيب لا يعرفه إلا الذي سيخلقه حيث لا مستحيل أمامه، فهو الذي إذا أراد شيء أن يكون، يقول له كن فيكون، سبحانه أنه على كل شيء قدير وبكل شيء عليم. وعليه لا ينبغي الاستغراب لأن الله على كل شيء قدير وبكل شيء محيط وعليم.

³⁷⁰ آل عمران، 154.

الاستغراب حدوده محيط دائرة الممكن، التي هي في حدود العلم البشري، الذي يمتد ويتقيد بالقدرة والاستعداد، أمّا دائرة المستحيل فهي الدائرة التي لا يمكن أن يدخلها العلم البشري، وذلك لأنّ أمر علمها أمر غيب، والغيب لا يعلمه إلا علّام الغيوب. ولذا فمحيط دائرة الممكن أبعاده نسبية. أمّا محيط دائرة المستحيل فأبعاده مطلقة.

قال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} 371. ولتبيان ما تضمنه هذه الآية الكريمة علينا أن نعرف دلالة المعنى لكلّ من العالم، والغيب حتى ندرك دلالة عالم الغيب:

العالم: هو المدرك للزمان والحركة وما يُحتوى فيهما.

والغيب: على وجه الاختصاص هو ما يعلمه الخالق ولا يعلمه المخلوق.

وعالم الغيب: هو الذي بيده المشيئة، وهو الذي لا يتمكن مخلوق من الاطلاع على علمه مهما سعى، إلا من ارتضى بمشيئته من يشاء من الرسل، وفي هذا الأمر كان الاستثناء في قوله (إلا من ارتضى من الرسل) وهم الذين تهيئوا بمشيئته للاطلاع على ما يؤتيهم من علم الغيب بعد أن يحيطهم تعالى بحفظه يرعونهم برعايته من كلّ وسوسة وخوف، فأمر الأنبياء والرسالات ليس بهين إنه الأمر الذي تهنّز له السماوات والأرض وتخشع، ولذلك يحاط الأنبياء والرسل بملائكة كرام يفعلون ما يؤمرون، لا يكلّون ولا يملّون يعملون طاعة لله وهم يروننا ونحن لا نراهم.

وقوله (ليعلم أن قد ابلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كلّ شيء عددا) إنّ إحاطة الملائكة الحفظة الكرام بالأنبياء ليُمكنوا من إتمام

³⁷¹ الجن، 26. 28.

رسالاتهم للناس رحمة. مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} 372. وقال قتادة ومقاتل: "ليعلم محمد أن الرسل قبله قد ابلاغوا رسالات ربهم كما هو يفعل. وقيل ليعلم محمد أن قد أبلغ جبريل إليه الرسالة. وقيل: ليعلم الرسل أن الملائكة بلَّغوا رسالات ربهم. وقال ابن جبير: المعنى، ليعلم الرسل أن ربهم قد أحاط علمه بما لديهم فيبلغوا رسالاته" 373.

قال تعالى: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلامَ الْغُيُوبِ} 374 يقذف يرمي فيصيب، أي أن الله تعالى يُظهر الحجة وهي البيان الحق ليرمي به الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

والحجة دائما بيد من يعلم، ولا يمكن أن تكون الحجة بيد من يجهل. وعلام الغيوب هو الذي لا تُخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض سبحانه انه بكل شيء محيط وعلى كل أمر قدير.

قال تعالى: {يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرسل فيقول ماذا أحببتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب} 375. اليوم الذي يجمع فيه الله تعالى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم هو يوم الغيب الذي لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى، وفي ذلك اليوم سيُسألون بقوله (ماذا أحببتم)؟ فستكون إجابتهم واحدة لأنهم رسل: سيقولون ليس لنا إجابة إلا التي تعلمها أنت. أي أنهم لا يجيبون إلا بما سجله عنهم المكلفون بهم من الملائكة الكرام الذين لا يظلمون أحدا، ولأنهم يؤمنون بالملطق إنَّ ما سجله الحفظة هو الحق الذي يعلمه عنهم فكانت إجابة التسليم بعلمه أصدق مما لو أجابوا

³⁷² الانفطار، 10 . 12.

³⁷³ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء التاسع عشر، ص 29.

³⁷⁴ سبأ، 48.

³⁷⁵ المائة، 109.

بغيرها اجتهادا مع شيء من النسيان، فكانت إجابة الأيمان المطلق هي:
(لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب). ولا علم لنا لا تعني الإنكار، بل
تعني الاعتراف بأن ما يعلمه عنهم هو الحق، وهم في هذا الأمر ليس لهم
إلا الطاعة والتصديق.

قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ
اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا
لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي
نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا
اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ
أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} 376. هاتان الآتان
تؤكدان على ما جاء في الآية (109 من سورة المائدة) التي سبق
الاستشهاد بها، حيث تماثل إجابة عيسى عليه الصلاة والسلام مع إجابة
الرسول بما فيهم عيسى صلوات الله وسلامه عليهم حين أجابوا بقولهم: (لا
علم لنا إنك أنت علام الغيوب). ولذلك كان التماثل بإجابة عيسى
حين سأله الله تعالى: (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون
الله)؟ فكانت الإجابة: (قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي
بحقّ إن كنت قلته فقد علمته) وهذا الأمر يدل على ثبات أقوال الرسول
مع أفعالهم، ولهذا كانت إجاباتهم الصادقة بما فعلوا وليس بما سيقولون
أو يجيبون، وما فعلوه هو بين يدي الله تعالى في سجلات الصادقين
المكلفين بهم من السائل.

وللتأكيد قال عيسى: (تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك إنك
أنت علام الغيوب) تتضمن هذه الآية الطاعة والتسليم المطلق لعلم الله
الذي لا يكون مجالا للمقارنة بعلم البشر حيث لا كمال إلا لله تعالى،

³⁷⁶المائدة، 116، 117.

ولهذا أكد عيسى عليه الصلّاة والسّلام على علم الله المطلق ودرأيته بما في نفسه وهو الأدق والأوضح ممّا يعلمه عيسى عن نفسه. ولزيادة التأكيد تأكيد عيسى على قصوره عن معرفة ما في نفس علام الغيوب.

وفي التفاسير لقوله: (تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك) تعلم ما في غيبي ولا نعلم ما في غيبك، وقيل: المعنى، تعلم ما أعلم ولا اعلم ما تعلم. وقيل: تعلم ما أريد ولا نعلم ما تريد. وقيل تعلم ما في سري ولا أعلم ما في سرّك³⁷⁷.

ولزيادة التأكيد قال: (ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربّي وربكم) بما أنه قال لهم ما قاله الله فالله الأعلم بما قال، ولذا فهو يعلم بأن عيسى لم يقل لهم إلا ما قاله تعالى، وهو أن يعبدوا الله ربهم وربّه مخلصين له الدين. وكما أكد عيسى عليه الصلّاة والسّلام على علم الله المطلق بكلّ أمر، أكد على انه كان شهيدا عليهم أثناء فترة تكليفه بالرسالة، ولم يكن بشهيد عليهم بعد وفاته، حيث أن فترة ما بعد وفاته تُعد بالنسبة له في علم الغيب ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى. ولذلك قال: (وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كلّ شيء شهيد).

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} 378 تحتوي هذه الآية الكريمة على ثمانية علوم هي:

1. علم السّاعة الذي لا يعلمه إلا هو. (إنّ الله عنده علم السّاعة).

³⁷⁷ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء السادس، ص 376.

³⁷⁸ لقمان، 34.

- 2 . علم الغيث الذي لا ينزله إلا هو سبحانه وتعالى . (ويُنزل الغيث).
 - 3 . علم الأرحام لا يعلم تمامه وكماله إلا هو . (ويعلم ما في الأرحام).
 - 4 . علم النفس وما تخفي في باطنها لا يعلمه إلا هو . (وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت).
 - 5 . علم الاكتساب والجزاء ثوابا أو عقاب في الآخرة لا يعلمه إلا هو . (ماذا تكسب غدا).
 - 6 . علم الزمن المطلق الذي سينقلنا إلى يوم غدٍ علم غيب . وهو الزمن المستنبط مما تحويه الآية بداية من الساعة إلى ما ستكسبه النفس غدا).
 - 7 . علم الموت ومكانه الذي يعرفه الجميع ويؤمنون به لا يعلمه إلا هو . (بأي أرض تموت).
 - 8 . علم الخبرة والدراية التامة لا يعلمه إلا هو : (إن الله عليم خبير).
- ومع أنَّ الله هو عالم الغيب والشهادة، إلا انه يُظهر على علمه من يشاء من رسول، وما يظهره من علم لرسول يشاءه يظهره على يديه للآخرين ليعلموا أنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا، وليعلموا أن وراء العلم عليم يعلم ما في السماوات وما في الأرض فإن أرادوا علما فعليهم بالتوجه إلى عالم الغيب الذي بيده مالا يعلمون، مصداقا لقوله: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُم مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ رَصَدًا لِّيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} 379.

³⁷⁹ الجن، 27، 28.

قال تعالى: {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى} 380 بطبيعة الحال الذي أنشأنا من الأرض هو اعلم منا وذلك وفقا للقاعدة التي تقول: (منشئ الأشياء أعلم من الأشياء ذاتها)، ولذلك لا يُعقل أن يكون الشيء المنشئ أدري بأمره من الذي أنشأه. وللتوضيح الذي أنشاء الجنين في بطن أمه هو أعلم بالجنين من الجنين نفسه، فالجنين هو المنشئ بالقوة، حيث لا رأي له في نشأته ولا صورته ولا نوعه، فهذا الأمر بيد من أنشأه إنشاء. ولأنّ أمر الخلق بالمطلق هكذا وفقا لقاعدة: (منشئ الأشياء أعلم من الأشياء ذاتها)، إذن فمن أين لنا أن نزكي أنفسنا. والتزكية: الظهور، أي إظهار ومدح النفس وإعطائها صبغة ليس لها، وهذه لا تعد من القيم المفضلة عند الله تعالى ولا من القيم المفضلة في أخلاق المؤمنين. فهي تحمل العيب على حساب الاستقامة بعلم الله تعالى.

ولذا فمن يتوجه بالإيمان إلى عالم الغيب ليزيده علما من علمه يزدده حتى يرفعه درجة، ومن يطلب المزيد ليزيده ليرفعه إلى درجة من العلم أكبر، وهكذا ينبغي أن يكون الخليفة في الأرض دائما يطلب المزيد العلمي الذي يظهره على الآيات العظام ويُمكنه من العمل الذي به تُصلح الأرض ولا تُفسد. قال تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} 381. الدرجات مراتب من العلم لا يتمكن منها إلا من يطلع عليها ويدركها لأجل أن ينقلها للآخرين ليتمكنوا من المزيد العلمي الذي يفيدهم في حياتهم ومآتهم ويوم بعثهم.

380 النجم 32.

381 المجادلة، 11.

ولذا فمن مهمة الخليفة أن يسعى بكلّ جهده وأساليبه الأخلاقية إلى إظهار علم الله الذي أظهره عليه ليكون بين الناس ألفة ومحبة وعملا صالحا يرضاه. ولذلك لا ينبغي أن يُحجب العلم الذي هو من عند الله عن عباد الله، ومن يحجب علمه عن عباده مهما أُوتي من درجات العلم فلن يبقى على درجته إن لم يسع لتعميمه، فالذي يُسقط العالم من درجات علمه هو أن يحجب ما ظهر عليه من علم منه تعالى عن الذين يُراد لهم أن يكونوا خلائف في الأرض، وليتخذوا الرُّسل قدوة حسنة لهم في ذلك، فهم الذين ظلوا على أعلى الدرجات بما بذلوه من جهد في سبيل التبشير والدعاية والإنذار والتحريض على القول الحقّ والفعل الحقّ والسلوك الحقّ طاعة لأمر الله تعالى، {قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ} 382. ولذلك لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فالذين يعلمون يُظهرون ما أظهرهم الله عليه للعباد حتى يؤمنوا ويهتدوا إلى الحقّ والسبيل السليم. والذين لا يعلمون هم يجهلون وهم في حاجة لمن يظهرهم من الظلمات إلى النور ليروا الحقّ ويتبينوه من الباطل. قال تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} 383.

ومع أنّه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إلا أن العبد المؤمن هو الذي دائما يذكر ربّه بإيمانه فيما يقول وفيما يعمل، ولذا فالعلم الذي به يكسب العباد يجب أن يُدرك ويُبلغ بالحلال لا بالحرام، ولا ينبغي أن يغش المؤمن بعلمه أي إنسان في مشربته ومأكّله ومركوبه، وفي الحديث: (فمن غشنا ليس منا) أي لا ينبغي أن تغش بما عرفت من علم المكاسب والطعام الذي منه يتغذى البشر، ولا تغش الدواء الذي به

382 الملك، 26.

383 الزمر، 9.

يعالجون أمراضهم ومرضاهم، ولا تسهم بعلمك فيما يُدمر الخلق والخلائق، فالعلم النافع هو الذي ينفع الناس ولا يضرهم، فإن كان الناتج من وراء العلم ضرر، فإن هذا العلم لا يعد بالعلم الحق، إنه العلم الباطل الذي يستوجب أن يُبطل بعلم الحق النافع.

ومع أنّ الخليفة يسعى دائما لأن يستمد صفة العلم من العليم الحكيم، إلا أنّه يعلم ويؤمن بأنّ ما أتته أو سيؤتته من علم لم يكن إلا قليلا، مصداقا لقوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} 384.

العليم اسم من أسماء الله الحسنى متضمن للعلم الكامل الذي لم يسبق بجهل ولا يلحقه نسيان، العلم الواسع المحيط بكلّ شيء جملة وتفصيلا سواء ما يتعلق بأفعاله أو أقواله 385.

قال تعالى: {قَالَ عَلِمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى} 386، فعلم العليم محيط بكلّ شيء لأنه خالق كلّ شيء فهو أعلم به، ولأنه حي قيوم انتفت عنه صفات النقص من سهو ونسيان وغير ذلك، ومن انتفت عنه هذه الصفات امتلك العلم التام المطلق، فعلى الخليفة أن يكون عارفا عالما يحيط من حوله يعرف عنهم دقائق الأمور، يسعى للذكرى وعدم النسيان والانتباه وعدم السهو لأنّ هذه الصفات هي ما تجعله عليما بالإضافة.

والعليم الواسع العلم المحيط قدر المقادير بعلمه الواسع فكانت بأمره كاملة تامة في فعلها وأثرها على الناس، فالأجرام السماوية دقيقة الحركة

384 الإسرائ، 85.

385 المجلي شرح القواعد المثلي، شرح القواعد المثلي في الأسماء والصفات الحسني، لابن عثيمين

386 طه 52.

وشديدة التأثير في حياة الناس قدرها العليم بعلمه مقادير نافعة فقال تعالى: {وَالشَّمْسُ بَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} 387، فتصور أن الشمس كانت أقرب إلى الأرض أو أبعد لاشكَّ سيحدث ما لا يحمد عقباه من حر شديد بسبب القرب ومن برد شديد بسبب البعد، وسيكون هذا ضد إرادة العليم في الاستخلاف وإعمار الأرض وحاشاه أن يكون التناقض في أفعاله. ثمَّ تصور أن تكون حركة الشمس والقمر في غير هذه الأفلاك، لاشكَّ أن المتغيرات الحاصلة بناءً على ذلك ستكون كثيرة ومن أهمها ضياع واختلاف المواقيت التي جعلها العليم لتنظم حياة الناس، ولأن العليم سابق علمه على كلِّ علم وهو علام الغيوب، فخلق كلَّ شيء بحسبان وبمقدار من الدقة والنظام، قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ} 388.

وقد وردت إضافة حركة الأفلاك والأجرام إلى العليم سبحانه في عدة مواضع في القرآن الكريم، وما تضمنه من فلق الإصباح وجعل الليل سكناً وإجراء الشمس والقمر بحساب لا يعدوانه وتزيين السماء الدنيا بالنجوم وحراستها وأخبر أن هذا التقدير المحكم المتقن صادر عن عزته وعلمه ليس أمراً اتفاقياً لا يمدح به فاعله ولا يثنى عليه به كسائر الأمور الاتفاقية 389.

وهو العليم الكامل في علمه، فهو "العليم المحيط علمه بكلِّ شيء: بالواجبات، والممتنعات، فيعلم تعالى نفسه الكريمة، ونعوته المقدسة،

³⁸⁷ يس 38-40.

³⁸⁸ القرة 189.

³⁸⁹ المجلي، مرجع سابق، 4، 13.

وأوصافه العظيمة، وهي الواجبات التي لا يمكن إلا وجودها، ويعلم الممتنعات حال امتناعها، ويعلم ما يترتب على وجودها لو وجدت. كما قال تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} 390، وقال تعالى: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ} 391، فهذا وشبهه من ذكر علمه بالممتنعات التي يعلمها وإخباره بما ينشأ عنها لوجدت على وجه الفرض والتقدير ويعلم تعالى الممكنات، وهي التي يجوز وجودها وعدمها ما وجد منها وما لم يوجد مما لم تقتض الحكمة إيجاده، فهو العليم الذي أحاط علمه بالعالم العلوي والسفلي لا يخلو عن علمه مكان ولا زمان ويعلم الغيب والشهادة، والظواهر والبواطن، والجلي والخفي، قال الله تعالى: {أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 392، والنصوص في ذكر إحاطة علم الله وتفصيل دقائق معلوماته كثيرة جدا لا يمكن حصرها وإحصاؤها وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه لا يغفل ولا ينسى، وأن علوم الخلائق على سعتها وتنوعها إذا نسبت إلى علم الله اضمحلت وتلاشت، كما أن قدرتهم إذا نسبت إلى قدرة الله لم يكن لها نسبة إليها بوجه من الوجوه، فهو الذي علمهم ما لم يكونوا يعلمون، وأقدرهم على ما لم يكونوا عليه قادرين. وكما أن علمه محيط بجميع العالم العلوي والسفلي، وما فيه من المخلوقات ذواتها، وأوصافها، وأفعالها، وجميع أمورها، فهو يعلم ما كان وما يكون في المستقبلات التي لا نهاية لها، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ويعلم أحوال المكلفين منذ أنشأهم وبعد ما يميتهم وبعد ما يحييهم، قد أحاط علمه بأعمالهم كلَّها

390 الأنبياء 22.

391 الأنبياء 91.

392 التوبة 115.

خيرها وشرها وجزاء تلك الأعمال وتفاصيل ذلك في دار القرار، فالله تعالى هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والإسرار والإعلان، وبالواجبات، والمستحيلات، والممكنات، وبالعلم العلوي، والسفلي، وبالماضي، والحاضر، والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء³⁹³.

العليم معناه ظاهر وكماله أن يحيط بكلّ شيء علما، ظاهره وباطنه دقيقه وجليله أوله وآخره عاقبته وفاتحته وهذا من حيث كثرة المعلومات وهي لا نهاية لها ثمّ يكون العلم في ذاته من حيث الوضوح والكشف على أتم ما يمكن فيه بحيث لا يتصور مشاهدة وكشف أظهر منه ثمّ لا يكون مستفادا من المعلومات بل تكون المعلومات مستفادة منه³⁹⁴، ويكمن للخليفة أن يكون عليما مع انتباهه إلى النقص الحاصل في علميته، فالخليفة مهما حرص على إحصاء المعلومات وحصرها فلن يمكنه الإتيان بها جميعا لا من حيث النوع ولا من حيث الكم، فمن حيث النوع فالخليفة يستطيع الحصول على الظاهر أو المعلن أمّا المخفي المكنون فلا يمكنه ذلك بينما العليم يعلم أكثر منه، فهو الذي يقول عن نفسه جل شأنه: {وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} ³⁹⁵، أمّا من حيث الكم فلا يمكن للخليفة أن يحيط بكلّ المعلومات لأن قدرته محدودة على الحفظ وعلى الاستيعاب، لكن ذلك لا يثني الخليفة عن القيام بدوره فيعمل على قدر استطاعته ويترك الباقي للعليم وله في ذلك عذر لأن العليم يقول سبحانه: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا

³⁹³ شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 47.

³⁹⁴ المقصد الأسنى 1، 86.

³⁹⁵ المقصد الأسنى 1، 86.

طَاقَةٌ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ {396}.

ومن وجوه النقص عند الخليفة التي تمنعه من أن يكون عليما بالمطلق أن كشفه وإن اتضح فلا يبلغ الغاية في معرفتها، بل تكون مشاهدته للأشياء كأنه يراها من وراء ستر رقيق ولا تنكرن درجات الكشف فإنّ البصيرة الباطنة كالبصر الظاهر، كما أنّ علم العليم سبحانه وتعالى بالأشياء غير مستفاد من الأشياء بل الأشياء مستفادة منه وعلم العبد بالأشياء تابع للأشياء وحاصل بها 397.

العليم هو الذي يعلم علما مطلقا، ويقوم بتعليم من يشاء من خلقه، ولكن يجب أن نعرف أنّ العليم لا يهب العلم مطلقا وهذه إرادته سبحانه نص عليها بقوله: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} {398}، وهي حقيقة يعرفها الأنبياء قبل غيرهم من العباد، {قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ} {399}.

وتعليم العليم ينقسم على قسمين:

القسم الأول: علم عام غير مخصوص وهو لكلّ العباد كما يقول الخالق سبحانه: {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} {400}، والمراد من الإنسان هو الجنس.

³⁹⁶ البقرة 286.

³⁹⁷ المقصد الأسنى 1، 86.

³⁹⁸ الإسراء 85.

³⁹⁹ الملك 26.

⁴⁰⁰ الرحمن 1-4.

والقسم الثاني: هناك العلم المخصوص، والمخصوص يحتمل خصوصية الاختيار للمعلم، والعلم المخصوص، فالعليم سبحانه يختار من يشاء من خلقه فيخصهم بالعلم كسيدنا الخضر، {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا} 401، وداود وسليمان عليهما الصلاة والسلام، {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} 402، فقد علم داود صناعة الدروع، {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُتَخَصِّنْكُمْ مِنْ بِأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ} 403، وهو علم تطور فيما بعد ليصل إلى مراتب دقيقة ومتطورة وصلت الآن إلى ما يسمى بالدرع الصاروخي وسيستمر الإنسان بتطوير علم داود إلى أن يشاء الله.

وعلم سليمان منطق الطير بكل أصنافه وأمه، {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} 404، وعلم لغة النمل مصداقا لقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} 405، وإذا كان العليم قد ذكر الطير والنمل فإن في ذلك آية لذوي الأبواب لفهم أن العلم المخصوص هنا (منطق الحيوان) شامل لما موجود في السماء من الكائنات يمثلها الطير، والنملة.

401 الكهف 65.

402 النمل 15.

403 الأنبياء 80.

404 النمل 16.

405 النمل 18، 19.

وعلم يعقوب علما يعمل به فقال سبحانه من قائل: {ويعقوب ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يُعني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون} 406، ثم علم ابنه يوسف عليهم الصلاة والسلام علمين الأول تأويل الأحاديث: {وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون} 407، والثاني المحاسبة والإدارة، {قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظٌ عليهم} 408.

وأشار العليم سبحانه إلى تعليمه طالوت فقال: {وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم} 409.

أما سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام فقد علمه كل العلوم التي خص بها بشرا من خلقه، {والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى} 410، لكنه منع عليه علما مخصوصا هو علم الشعر، فهو من العلم الممتنع على المصطفى كما يخبر العليم سبحانه: {وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبين} 411، ولذلك تفسير مفاده أن ادعاء الكفار

406 يوسف 68.

407 يوسف 21.

408 يوسف 55.

409 البقرة 247.

410 النجم 1-5.

411 يس 69.

كان ينصب على وصف قرآن محمد بالشعر، ومحمد بالشاعر، {بَلْ قَالُوا
أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ
الْأَوَّلُونَ} 412، وهو ما أراد العليم أن ينزهه منه.

العليم عليم بالمطلق وهو من معاني اسمه الحسن، العليم ومعناه تعميم
جميع المعلومات 413، فهو العليم بالكليات والجزئيات؛ وقد وصف تعالى
نفسه بعالم وعليم وعلام.

وعلمه تعالى واحد لا تكثير فيه، فلما تعلق علمه تعالى بالجميع كلية
وجزئية دقيقة، وجليلة معدومة وموجودة، وصف نفسه تعالى بالصفة التي
دلت على ذلك فقال سبحانه وتعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ} 414، وناسب مقطع هذه الآية بالوصف بمبالغة العلم، لأنه
تقدم ذكر خلق الأرض والسماء والتصرف في العالم العلوي والسفلي
وغير ذلك من الإماتة والإحياء، وكل ذلك يدل على صدور هذه
الأشياء عن العلم الكامل التام المحيط بجميع الأشياء.

وعلم الله تعالى يتميز على علم عباده بكونه واحدا يعلم به جميع
المعلومات، وبأنه لا يتغير بتغيرها، وبأنه غير مستفاد من حاسة ولا فكر،
وبأنه ضروري لثبوت امتناع زواله، وبأنه تعالى لا يشغله علم عن علم،
وبأن معلوماته تعالى غير متناهية 415.

ويمكن أن ندرك سعة علم العليم بالبحث في دقائق علمه، فهو يعلم
الظاهر من الأشياء بالمطلق، وهو واضح لأن الإنسان يمكن له أن يعلم

412 الأنبياء 5.

413 الأسماء والصفات للبيهقي، ج 1، ص 294.

414 البقرة 29.

415 تفسير البحر المحيط، أبو حيان محمد بن حيان، ج 1، ص 168.

الظاهر من الأشياء من دون إطلاق، لكن الذي لا يمكن لكل إنسان أن يدركه فهو علم السرائر والمخفيات، فهو علم اختص به العليم سبحانه وتعالى وعدد قليل من خلقه اصطفاهم، ومن هذه الدقائق علم الأسرار، فهو عَلِيمٌ بِالسَّرَائِرِ وَالْحَقَائِقِ الَّتِي لَا يُدْرِكُهَا عِلْمُ الْخَلْقِ 416، فهو الذي يعلم السر، {قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا} 417، وصفه تعالى بإحاطة علمه بجميع المعلومات الخفية والجلية المعلومة من باب أولى للإيدان بانطواء ما أنزله على أسرار مطوية عن عقول البشر مع ما فيه من التعريض بمجازاتهم بجناياتهم المحكية التي هي من جملة معلوماته تعالى 418.

والسر علم اختص به العليم سبحانه، وهو يعلمه بعلمه المطلق الذي لا ينقصه شيء ولا يحجبه شيء، وهو بعد ذلك يعلم المخفي في صدور وعقول عباده لأنه خالقهم، {أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} 419، ويلاحظ في الآية تقديم المخفي على المعلن دلالة على القدرة المطلقة للعليم في كشف المخفي قبل المعلن لينتبه العبد إلى أن أفعاله كلها إنما هي معلومة، فعليه أن يعمل في الخفاء كعلمه في الظاهر عملا صالحا يرضاه رب العرش العظيم، لأن العليم مطلع، {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} 420.

ولأن السر يتيح للعبد أن يتخذ باطنا غير الظاهر، نبهنا العليم إلى بعض حقائق الأسرار، فنبها إلى موقف المنافقين فقال جل من قائل: {يَا

416 الأسماء والصفات للبيهقي، ج 1، ص 124.

417 الفرقان 6.

418 تفسير الالوسي، ج 14، ص 37.

419 النمل 25.

420 غافر 19.

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ {421}.

ثم نبهنا العليم أن سرائرنا ستكون حكما علينا في يوم القيامة، فما من سر مخفي إلا ويظهره العليم للعبد ليعرف ويطلع على ما كان يعمل في الخفاء، {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ} {422}.

وهو عليم بالنوايا، والنية هي من عمل النفس، والعليم وحده قادر على معرفة النية الصادقة من غيرها لأنه مطلع على دواخل الإنسان.

وقد ارتبط عمل الصالحين باسمه العليم، فقد قال العليم سبحانه عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لحظة بناء البيت: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {423}، لأن العمل لا يُعرف المراد منه حقيقة إلا من خلال علم المطلع العليم فقد يكون العمل رياءً وقد يكون خالصاً لله، والعليم هو الذي يعرف خالصه من زائفة لذلك، ولهذا قالت امرأة عمران، {إِذْ قَالَتِ امْرَأَةٌ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {424}. وهنا تناجي امرأة عمران ربها السميع لدعائها، والعليم بصدق نيتها.

والنية صادقة كانت أم كاذبة يعلمها العليم كما يعلمنا سبحانه وتعالى في آياته إذ يقول جل شأنه: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُوهُمْ اللَّهُ

421 آل عمران 120

422 الطارق 9.

423 البقرة 127.

424 آل عمران 35.

يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ
وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ {425،

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ أَي فَوْضَ أَمْرِكَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَلَا تَخَفْ أَنْ يَظْهَرُوا لَكَ
السَّلْمَ وَجَوَانِحَهُمْ مَطْوِيَةٌ عَلَى الْمَكْرِ وَالْكِدِّ أَنََّّهُ جَلَّ شَأْنُهُ هُوَ السَّمِيعُ
فَيَسْمَعُ مَا يَقُولُونَ فِي خَلْوَاتِهِمْ مِنْ مَقَالَاتِ الْخِدَاعِ، وَالْعَلِيمُ فَيَعْلَمُ نِيَاتِهِمْ
فِيؤَاخِذُهُمْ بِمَا يَسْتَحِقُّونَهُ وَيُرِدُّ كَيْدَهُمْ فِي نَحْرِهِمْ {426.

ويشع اسمه العليم ببعض الدلالات اللغوية ومنها:

إن العليم من الأسماء الحاصلة بسبب العلم، وفيه وجوه:

الأول: إثبات العلم لله تعالى، قال تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ
عِلْمِهِ} {427، وقال تعالى: {قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} {428.

الاسم الثاني: العالم، قال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} {429.

الثالث: العليم، وهو كثير في القرآن، فقد ورد الاسم معرّفًا (32) مرّة،
ومن غير التعريف (128) مرّة ولذا فهو صفة، ومجموع ما ورد في القرآن
(160) مرّة، ويأتي بعد اسم الجلالة الأعظم من حيث الذكر في القرآن
الكريم، ولذلك تعليل هو أن كلّ شأن من شؤون الخلق إنما يسير بعلم الله
وما من أمر يدبر في السماء والأرض إلا بعلم الله سبحانه وكلّ شيء من
صغير وكبير هو من علم الله وبعلم الله وللعلم فضيلته، لأنه مفتاح تحقّيق

425 الأنفال 61.

426 تفسير الالوسي، ج 7، ص 124.

427 البقرة 255.

428 الطلاق 12.

429 الزمر 46.

إرادة الله في إعمار الأرض وإقرار العدل عليها فعلى الخليفة أن يُعنى عناية خاصة بالعلم والعلماء، حتى يكون عليماً ويتمثل صفات العليم المطلق في أرضه التي استخلفه فيها.

الرابع: العلام، قال تعالى: {إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ} 430.

الخامس: الأعلم، قال تعالى: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} 431.

السادس: صيغة الماضي، قال تعالى: {عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ} 432.

السابع: صيغة المستقبل، قال تعالى: {وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ} 433.

الثامن: لفظ علم من باب التفعيل، قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} 434.

واعلم أنه لا يجوز أن يقال إن الله معلم مع كثرة هذه الألفاظ لأن لفظ المعلم مشعر بنوع نقيصة، كما لا يجوز إطلاق لفظ العلامة على الله تعالى؛ لأنها وإن أفادت المبالغة لكنها تفيد أن هذه المبالغة إنما حصلت بالكد والعناء، وذلك في حقّ الله تعالى محال 435.

430 المائدة 116.

431 الأنعام 124.

432 البقرة 187.

433 البقرة 197.

434 البقرة 31.

435 الرازي، ج 1، ص 127.

أما قوله: {وفوق كلّ ذي علم عليم} 436، فعليم يصح أن يكون إشارة إلى الإنسان الذي فوق آخر.

كما وصف العليم نفسه بأنه يعلم خلقه فقال: {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} 437، وقال سبحانه: {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} 438.

وقد اقترن اسم العليم بعدد من الأسماء الحسنى لكنه أكثر ما اقترن باسم السميع، فقد اقترن العليم بالحكيم في أربع آيات؛ وقدم سبحانه الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة لأن الحكمة لا تبعد عن العلم 439.

والعزیز بالعلم في ست آيات، ذكر الله هذين الاسمين مقترنين بعد بيان قدرته في تسيير الأجرام الفضائية والكواكب الدرية وترتيب مواقيتها الزمنية كما ورد في قوله تعالى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} 440، وذلك ليعلم الجميع أن كلّ شيء موجود إنما هو بعلم ومشیئة وليس أمرا تلقائيا عفويا دون عزة وحكمة، فهذا التقدير لمسیر الشمس والقمر واللیل والنهار وحركات النجوم في مطالعها ومغارمها تقدير ناشئ عن عزته وعلمه، وذلك متضمن وقوعه على وجه حكمته وأمره، والغاية التي وجدت من أجلها، وأنها مهما عظمت أجزامها واتسعت أرجاؤها فلا يعز إيجادها وتديير أمورها على العزيز العليم 441،

436 يوسف 76.

437 العلق 3.

438 النساء 113.

439 تفسير الالوسي، ج 1، ص 266.

440 يس 38.

441 مرجع سابق، أسماء الله الحسنى، ج 33، ص 69.

فقال جل شأنه: {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنًا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} 442.

والخلاق بالعليم في آيتين، ولذلك لبيان أنه خلق الخلق مع اختلاف طبائعهم وتفاوت أحوالهم مع علمه بكونهم كذلك، وإذا كان كذلك فإنما خلقهم مع هذا التفاوت، ومع العلم بذلك التفاوت فلأجل المصلحة والحكمة 443.

والسميع بالعليم في خمس عشرة آية لبيان أنه السميع لجميع المسموعات، والعليم أي بجميع المعلومات، وقيل أي المبالغ في العلم بالمسموعات والمعلومات ويدخل في ذلك أقوالهم وأفعالهم دخولا أوليا اعتراض تذييلي مقدر لمضمون ما قبله متضمن للوعيد بمجازاتهم على ما صدر منهم 444، وتأخرت صفة العليم في وقوله سبحانه (السميع العليم) لكونها فاصلة ولعمومها، إذ يشمل علم المسموعات وغير المسموعات 445.

وقد اقترن الواسع بالعليم لكيلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها فكره، فإنّ المضاعف واسع العطاء واسع الغنى واسع الفضل ومع ذلك فلا يظن أنّ سعة عطائه تقتضي حصولها لكلّ منفق فإنه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها، ومن لا يستحقّها ولا هو أهل لها،

442 فصلت 12.

443 تفسير الرازي، ج 6، ص 330.

444 تفسير الالوسي، ج 12، ص 326.

445 البحر المحيط، ج 2، ص 8.

فإنَّ كرمه وفضله لا يناقض حكمته بل يضع فضله مواضعه لسعته ورحمته
ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه 446.

وما من اسم اقترن باسم من الأسماء الحسنى إلا لفضيلة الموافقة بينهما
لزيادة الدلالة وقوة المعنى وبيان الغاية، فيشرق الرجاء بالرحمة للعبد
الصالح، وترتعد فرائض الكافر خوفاً من المنتقم العليم، وهذا أعظم درس
للخليفة يعلمه أن يكون في نهج حياته مؤثراً إيجاباً وسلباً، فلا ينقطع فيه
الرجاء إيجاباً، ولا تغيب عنه الصولة في الحقّ على المستحقّ سلباً.

اللهم إنك العليم بأمر الغيب والشهادة فاجعلنا في الأمرين من المحسنين
الوارثين، اللهم إنك قلت وقولك الحقّ (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)
فردنا يا العليم علماً من علمك الواسع به نكسب ولا نخسر وننفع ولا
نضر ونخافك ونتقيك ولا نغتر، اللهم يا العليم اجعلنا وأبنائنا على علم
من علمك، اللهم إنك العليم السميع المجيب فمد أيادينا إليك ونشد
قلوبنا إليك وعقولنا إليك وأنفسنا إليك فأجبنا بعلمك حتى لا تكون لنا
حاجة إلا إليك سبحانه لا إله إلا أنت جل جلالك لا عزة لنا إلا
بك، اللهم يا العليم اجعلنا من أولي الألباب الذين يستمعون القول
فيتبعون أحسنه، والذين يعلمون الحقّ فلا يشركون فيه الباطل، وإذا ما
علموا بالباطل دمعوه فإذا هو زاهق سبحانه جل جلالك أنت العليم
العظيم.

4. إسحاق من الصّالحين:

الصّلاح صفة قال تعالى: {وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ
الصّالحِينَ} 447.

446 المجلي، ج 4، ص 16.

447 - الصافات 112

من الصفات التي ذكرها الله تعالى في حق إسحاق أنه من الصالحين،
والصّلاح هو منتهى الصفات الحميدة التي لا يشوب صاحبها فساد رأي
أو اعتقاد لذلك مدح الله تعالى أنبياءه وعباده بهذه الصفة، وقد جاء في
تعريفها اللغوي أنّ: "الصّلاح ضد الفساد صلح يصلح ويصلح صلاحاً
وصلوحاً، وهو صالح وصليح والجمع صلحاء وصلوح وصلح وصالحون،
ورجل صالح في نفسه من قوم صلحاء ومصلح في أعماله وأموره وقد
أصلحه الله وربما كنّوا بالصالح عن الشيء الذي هو إلى الكثرة كقولهم هي
مطرة صالحة، وهذا الشيء يصلح لك والإصلاح نقيض الإفساد
والمصلحة الصّلاح والمصلحة واحدة المصالح والاستصلاح نقيض
الاستفساد وأصلح الشيء بعد فساده أقامه"448.

فالصّلاح فضيلة يحمل صاحبها

التوحيد

الإيمان

العقيدة

الأخلاق

ولذا؛ فقد خصّ الله تعالى أنبياءه وعباده المقربون بهذا الوصف فقال في
حق عيسى صلى الله عليه وسلم: { إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ
يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ }449.

إنّ عيسى صلى الله عليه وسلم:

448 - لسان العرب، ج 2، ص 516

449 - آل عمران 45-46

كَلِمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى

وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

مِنَ الْمُقَرَّبِينَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى

مَكَلَّمٍ لِلنَّاسِ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا

فكَلَّ واحدة من هذه الصفات من العظمة والشرف بمكان، ومع ذلك فقد ختم الكلام بما وصفه به أن جعله من الصالحين وعليه:

فإنَّه لا رتبة أعظم من كون المرء صالحاً لأنَّه لا يكون كذلك إلا ويكون في جميع الأفعال من الأوامر والنواهي مواظباً على:

النَّهْجَ الْأَصْلَحَ

الطَّرِيقَ الْحَقَّ

السَّبِيلَ الرَّشِيدَ

وهذا النهج هو صلاح الدين والدنيا لأنَّه يتناول جميع أفعال الجوارح والقلوب، ومن الملاحظ في كثير من الآيات التي تتكلم عن الأنبياء عليهم الصلوة والسلام، تذكر بعض التفاصيل عن صفاتهم ثمَّ يردف ذلك بالصلاح الذي يدل على أرفع الدرجات.

وأما قوله تعالى في يونس صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} 450. فهذا لا يعني أنه لم يكن صالحاً، فكيف وهو النبي المصطفى، ولكن هذا يدل على:

أَنَّ الصَّلَاحَ يَكْتَسِبُ

الصّلاح درجة عالية لا يناها إلا أهل الاجتباء

صفة الصّلاح تنسلخ عمن يتصف بها

صفة الصّلاح تعود لمن انسلخت عنه

النبوة ثابتة لا تنسلخ

النبوة اصطفاء

الصّلاح اجتباء

فعندما اجتباها وجعله من الصالحين عصمه من أن يفعل فعلا يكون تركه واجبا، وجعله من الصالحين لأنّ الصّلاح إنما يكون بجعل الله وخلقه وإن كان للعبد مدخل فيه بسبب الكسب بصرف إرادة جزئية.

فهذا يوضح لنا معنى الصّلاح ودرجته ومكانته العالية، ولذا فإن هذه الدرجة لسمو مكانتها وارتفاع شأنها وعظيم قدرها عند الله تعالى كانت مطلب كثير من الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، لذلك طلبها سليمان عليه الصّلاة في قوله تعالى: {وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصّالِحِينَ} 451.

لقد أخبر الله تعالى أنّ إسحاق من الصالحين الذين يؤدون العمل الصالح ومن ثمّ يكون في العباد الصالحين، ومع أنّ درجات الأنبياء أعظم من درجات الصالحين إلا النبوة لا تنفك عن الصّلاح وإن انفك الصّلاح عن النبوة، ولذلك قال يوسف صلّى الله عليه وسلّم: {تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّي بِالصّالِحِينَ} 452.

451 - النمل 19

452 - يوسف 101

علما أنّ يعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم الصّلاة والسّلام هم آباء يوسف وهم أنبياء، فهو لم يقل: الحقني بأبائي الأنبياء، وإنما طلب اللحاق بالصلّحين التي هي من صفة آباءه الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، وعلى هذا يكون قد طلب الصّلاح التام وهو الذي لا يعصي الله ولا يهم بمعصية وعلى هذا يكون طلب:

أن يجعله صالحا أبدا

أن يلحقه بالصلّحين من آباءه

آباؤه أنبياء

ومع علمه أنّ آباءه من أنبياء الله تعالى، كذلك هو كان نبيا، لأن طلب اللحق بالصلّحين جاء بعد أن رفع أبويه على العرش وذكر إيتاء الملك وأشياء أخرى تدل على نبوته حيث قال تعالى: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَليِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ} 453.

فالصلّحون الذين استوت سريرتهم وعلا نيتهم في الخير وصلحت أحوالهم عند الله تعالى فرضي عنهم، وهذه الصفة هي غاية المدح ويدل عليها النقل والعقل، أمّا النقل: فهو أنّ الله تعالى مدح بهذا الوصف الأنبياء والمرسلين عليهم الصّلاة والسّلام

فقال بعد ذكر إسماعيل وإدريس وذي الكفل: {وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ} 454.

وقال مبشرا إبراهيم: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} 455.

453 - يوسف 101

454 - الأنبياء 86

وذكر حكاية عن سليمان عليه السلام قوله تعالى: {وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ
فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} 456.

وأما العقل:

فيعلم أن الصّلاح ضد الفساد

وكلّ ما لا ينبغي أن يكون فهو فساد

سواء أكان ذلك:

في العقائد

أم في الأعمال

أم في الأخلاق

فإذا كان كلّ ما يحصل من باب ما يجب أن يكون فقد حصل
الصّلاح الذي يدل على أرفع الدرجات.

فالصالح هو الذي يكون صالحا في اعتقاده وفي عمله وسلوكه وتصرفاته
وكلّ ما يصدر عنه أو ما يكتنه في قلبه ونيته.

والصّلاح فضيلة أخلاقية مشاعة يتصف الإنسان بها اختيارا بتوفيق الله
تعالى وذلك أن الإنسان يستطيع أن يكون صالحا بإرادته، ولا يستطيع
أن يكون نبيا لأنّ النبوة اصطفاء من الله تعالى.

والصّلاح درجات لدى الإنسان لا من حيث المكانة، وإنما من حيث
الخصوص أو الشمول وذلك أن يكون الإنسان:

455 - الصافات 112

456 - النمل 19

صالحا في نفسه لنفسه

صالحا لنفسه ولأهله

صالحا لنفسه وأهله والآخرين

وهناك أسباب أخرى مما خص الله تعالى بها أنبياءه ورسله فوصفهم بأحسن الوصف ومدحهم بأجل الصفات بأنهم من الصالحين فقد جرت سنة الله في وصف أنبيائه عليهم الصلوة والسلام بأجل الصفات بعد النبوة فكان إسحاق من الصالحين:

حيث جعلهم ورثة الأرض قال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} 457.

إبراهيم أبو الأنبياء منهم قال تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} 458.

بشر الله زكريا بنبي من الصالحين قال تعالى: {أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} 459.

عيسى منهم قال تعالى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ} 460.

{وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ} 461.

457 - الأنبياء 105

458 - البقرة 130

459 - آل عمران 39

460 - آل عمران 45-46

بشر إبراهيم بإسحاق وهو منهم قال تعالى: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا
مِنَ الصَّالِحِينَ} 462.

عندما اجتبي يونس جعله منهم قال تعالى: {فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ
الصَّالِحِينَ} 463.

فهل بعد هذا استغراب في أن يصف الله تعالى نبيه إسحاق بأنه من
الصالحين، ونقف على بعض ما في الصّلاح من خلال قوله تعالى:
{لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ
يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ} 464.

فقد ذكرت الآية بعض صفات الصالحين التي تمثل عماد الإيمان
والعلاقة بين الإنسان وخالقه، والإنسان والمخلوقين في:

الإيمان بالله تعالى

الإيمان باليوم الآخر

الأمر بالمعروف

النهي عن المنكر

الإسراع في الخيرات

فمن حمل هذه الصفات فقد انتمى إلى من وصفهم الله تعالى بأنهم من
الصالحين، أي من الوارثين، والوارث هنا هو: "هو الذي يرجع إليه

461 - الأنعام 85

462 - الصافات 112

463 - القلم 50

464 - آل عمران 113 - 114

الأملاك بعد فناء الملاك وذلك هو الله سبحانه وتعالى إذ هو الباقي بعد فناء الخلق وإليه مرجع كل شيء" 465.

من أسماء الله الحسنى "اسمه الوارث فقد سمي الله نفسه به على سبيل الإطلاق والتعظيم" 466

في البداية وقبل أن ننطلق إلى الغوص في أسرار وأنوار وتجليات الاسم (الوارث) نريد أن نحدد من خلال المتعارف عليه والذي يعد من البديهيات أن الميراث يكون من مالك أصلي يملك ملكا لا ينازعه فيه أحد يقول إلى آخر يستحق الميراث انطلاقا من صلة قرابة تفضي إلى أحقية في الميراث، وتأسيسا على ذلك فإنه لا يوجد مالك أصلي على وجه الأرض بل في كل ملك لله من عالم مرئي محسوس ملموس أو غير مرئي لا محسوس ولا ملموس، أو ما يمكن أن نسميه عالم الغيب الذي نؤمن به كما أخبرنا الله به في كتابه العزيز يقول تعالى: {الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} 467 فمن على الهدى يوقن أن الله سبحانه وتعالى الأول بلا بداية لذا فهو مبدع الكائنات والموجودات المعلوم منها لنا والمجهول ومن هذا الابداع الإنسان وما يملكه من عقل يفكر وعين تبصر ويد تبني أو تهدم ترحم أو تبطش، فكيف يملك الإنسان شيء لم يكن له فيه أي دور بل إن كل ما يحيط به هو الله والأكثر من ذلك أن الإنسان وما فيه

⁴⁶⁵ المقصد الأسنى، ج 1، ص 148.

⁴⁶⁶ أسماء الله الحسنى، ج 14، ص 18.

⁴⁶⁷ البقرة 1 . 5.

من نعم ملك لله فكيف يرث إنسان من إنسان لا يملك حتى أمر نفسه
وهي أبسط الأشياء؟

وعلى ما تقدم فكلّ ميراث لا محالة وقتي غير دائم ويعتريه النقص لأنه
قد حصل من مالك بالوكالة إلى مالك بالوكالة، فالمملك ناقص وكذلك
الميراث.

الوارث: صفة من صفات الله عزّ وجلّ. وهو الباقي الدائم الذي يرث
الأرض، ومن عليها، ويبقى بعد فناء الكلّ، ويفنى من سواه، فيرجع ما
كان ملكه العباد إليه وحده لا شريك له⁴⁶⁸.

الوارث: هو من له حقّ المملك.

. وإذا تساءل البعض: من من يُورث المملك؟

. تكون الإجابة بطبيعة الحال: المملك يُورث من مالكة.

. ومن هو مالكة بالمطلق؟

. الله مالك المملك المطلق.

. إذن لا مالك سواه للملك المطلق.

. نعم إنّه الله الذي لا إله سواه.

. وما هو المملك؟

. المملك يمتد من النبوة إلى الحكم والحكمة والعلم إلى الثروة وإلى الإنس

والجن والملائكة، والموت والحياة والجنة والنار والعقاب والتواب؟

. ومن ذا الذي يملك كلّ ذلك؟

⁴⁶⁸ القاموس الفقهي، ج 1، ص 377.

. إنّه الوارث.

. ومن ذا الوارث الذي ينفرد بملك كلّ ما ذكر؟

. الله.

. ومتى تكون الوراثة حقًا؟

. عندما يكون النصيب فيها.

. ومتى تكون الوراثة كاملة؟

. عندما لا يوجد شركاء في خلقها وإيجادها.

. إذن لا مالك للخلق إلا الخالق عزّ وجلّ، ولا وارث من بعده إلا هو، ولا مالك للأرض ومن عليها والسموات ومن فيها إلا خالقها، ولذا لا وارث لها إلا هو، وهكذا لا يملك الجن والإنس والملائكة إلا خالقهم، ولأن الخالق واحد أحد، إذن لا يرث المخلوق إلا الخالق الواحد الأحد.
. وبما أنّ الوارث جعل في الأرض خليفة، ألا يكون له الحقّ في حمل الأمانة؟

نعم له الحقّ في حملها، وحملها يستوجب طاعة الخالق (الوارث المطلق الذي يرث الخليفة).

. ومتى تكون الوراثة؟

. عندما يكون المورث حقّ.

. ومن الذي يرث الحقّ؟

. لا يرث الحقّ إلا الحقّ.

. وأيها سبق الوارث أم الموروث؟

. الوارث أولا وآخرا.

. كيف يكون أولا وآخرا؟

. أولا لأنه السابق على كل سابق. قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} 469. وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا
خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ
مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ
خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ
تُوقَدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ
فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} 470.

. وآخرا لأنه الحي الذي لا يموت.

. إنه الحق {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ} 471 تفنى الخلائق ويبقى الملك لله.

. وعليه، لا يرث الخليفة شيئا إلا بالحق.

. نعم سيكون الخليفة فيما أتاه الله من النبوة والحكمة والعلم والثروة
مستخلفا بالوراثة، ومع أنه مورث نسبيا فيما أتاه الله إلا أنه لم يورث
بالمطلق في أمر الموت والحياة.

. ولكن للخليفة بداية ونهاية.

469 الحجر 85.

470 يس 77 - 83.

471 الحديد 3.

. إنّه الحقّ، ولذا فالوارث هو صاحب الملك والخليفة جزء ممّا يملك المالك، فبعد النهاية لن يكون هناك من يعود الملك إليه وارثاً إلا مالكه بالمطلق لا إله إلا هو.

وبناءً عليه، فكلّ ميراث هو وقتي غير دائم ويعتبه النقص لأنه قد حصل من مالك بالوكالة إلى مالك بالوكالة، فالملك ناقص وكذلك الميراث ناقص إلا ملكه سبحانه وتعالى.

وفي ذلك قال الأمام الغزالي: "هو الذي يرجع إليه الأملاك بعد فناء الملك" 472.

الوارث هو المالك الأوحيد وهو الأوّل والآخر وهو الذي بيده الأمر والنهي وهو على كلّ شيء قدير، وهو الباقي الذي يرث ما خلق. فلو لم يكن مالكا ما ورث، ولو لم يكن وارثا ما خلق، ولو لم يكن باقيا ما كان وارثا سبحانه.

والوارث الأوحيد هو الذي ملك الملك دون أن يرثه من أحد، وهذه الصفة لا تنطبق إلا على الله الواحد الأحد الأوّل بلا بداية والآخر بلا نهاية الذي لا تربطه صلة نسب بأي مخلوق، وكيف تربطه صلة بمخلوق؟! وهو جلّ وعلا خالقه.

إنّ الصلة لا تتعدى أن الخلق جميعاً عباد لله سبحانه وتعالى لأنه ملك للملك ومالك له بلا ند ولا شريك فيقول الله تعالى عن صفته الذاتية: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} 473، فلا توجد بين الله وبين أي مخلوق كان أي صلة يشار إليها مع الأقارب أو الأبعد، إذا فليس لديه سبحانه وتعالى ميراث ورثه من

472 محمد حسين، شرح أسماء الله الحسنى، الإسكندرية، 1996، ص 92.

473 الإخلاص 4.1.

أحد ولا يستحقُّ أحد أن يرثه لأَنَّهُ الحي القيوم الدائم الباقي، وورد في تفسير قوله تعالى: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) أَنَّ قريشا قالوا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صِفْ لَنَا رَبِّكَ الَّذِي تَعْبُدُهُ وَتَدْعُونَا إِلَيْهِ مَا هُوَ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) قُلْ يَا مُحَمَّدٌ لِلْكَفَّارِ إِنَّ رَبِّي الَّذِي أَعْبُدُهُ (هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) فَرَدَّ لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا مَعِينَ لَهُ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: (اللَّهُ الصَّمَدُ)، الصَّمَدُ الَّذِي لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ، وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: الصَّمَدُ الَّذِي يَصْمَدُ إِلَيْهِ الْخَلَائِقُ فِي حَوَائِجِهِمْ وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِ عِنْدَ مَسْأَلَتِهِمْ وَ(الصَّمَدُ) السَّيِّدُ الَّذِي أَنْتَهَى سُوْدُدُهُ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الصَّمَدُ الدَّائِمُ، وَقَالَ قَتَادَةُ الصَّمَدُ الْبَاقِي، وَيُقَالُ الْكَافِي وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) لَمْ يَكُنْ لَهُ نَظِيرٌ وَلَا شَرِيكَ فَيُنَازَعُهُ فِي عَظَمَتِهِ وَمَلِكِهِ 474.

الوارث: هو المالك، أي لو لم يكن مالكا ما كان وارثا، وهو الذي يعود إليه الملك الذي خلقه، حيث لا وارث له إلا هو، قال تعالى: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} 475. فبعد أن ينهي الخلائق التي هي جزء من ملكه، يبقى من بعدهم الملك الذي خلقوا منه وخلق لهم وخلق من قبلهم سابق عليهم، فبعد الموت لمن يكون الملك؟

⁴⁷⁴ بحر العلوم للسمرقندي، ج 4، ص 449.

⁴⁷⁵ غافر 15، 16.

يكن لله الواحد القهار.

فالله سبحانه وتعالى لم يرث الملك من أحد فهو عزّ وجلّ لم يولد فيرث من غيره ميراث، وهو كذلك لم يلد فيرث أحد منه ميراث، لذا فقد أمر الله -الوارث لنفسه من نفسه - النبي في كتابه الكريم أن يقول: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الدُّنْيَا وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا} 476.

نعم الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا فتتفرق الأهواء والآراء فيفسد الكون، والحمد لله الوارث الذي لا ينافسه أحد في ملكه ولا يشاركه بالخلق أو النسب.

والله سبحانه وتعالى يقول لنبيه الأكرم صلّى الله عليه وسلّم:

(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا) كما يزعم اليهود والنصارى وبنو مليح، حيث قالوا: عزيزُّ ابنُ الله والمسيحُ ابنُ الله والملائكةُ بناتُ الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا (وَلمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ) أي الألوهية كما يقوله القائلون بتعدد الآلهة (وَلمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الدُّنْيَا) ناصرٌ ومانعٌ منه لاعتزازه، والحمد لله الذي لم يوالِ أحدا من أجل مذلةٍ ليدفعها به، والحمد لهذه الصفاتِ الجليلةِ إيداناً بأن المستحقّ للحمد من هذه نعوته دون غيره 477.

وعليه فإن الوارث المطلق هو الذي يرث الأرض ومن عليها والسماء ومن فيها وما بين كلِّ سماء وكلِّ أرض، أي أنه المالك لكلِّ شيءٍ ممّا نعرف وممّا لا نعرف. ومن الوارث المطلق وبه يورث الوارث بالإضافة، الذي يورث من بعده فيما ورث فيه.

⁴⁷⁶ الإسراء 111.

⁴⁷⁷ تفسير أبي السعود، ج 4، ص 232.

وفي هذا السياق يقول الله تعالى للإنسان الوارث: إنّه أنزل الكتاب الذي ورث الكتب السابقة على النبي الذي ورث الأنبياء السابقين، وعلى الأمة التي ورثت الأمم السابقة في العلم والعمل، وكلّ هذا الميراث لا بدّ وأن يصقّي الإنسان الخليفة من أي تعلق بملك أو مالك غير أصيل، لأن المالك المطلق هو الله الذي لم يلد ولم يولد فيقول الله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا فَيَمَّا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا} 478.

وفي الآية نلاحظ لمحة رائعة تتمثل في البدء بحمد الله سبحانه وتعالى على نعمة إنزال الكتاب الجامع الذي جمع الله فيه كلّ ما أنزل على الأنبياء السابقين الذين وضحوا أنه لا شريك لله ولا ندّ ولا وارث يرثه وإنه سبحانه وتعالى لم يرث الملك من أحد، وهذا المنهج الجامع جاء ليصحح الطريق ويوضحه للخليفة الذي ورث مهمة تعمير الأرض ومن هذا الميراث جاء تسخير الكون وما فيه من أدوات للخليفة الوارث الذي سيتبع الكتاب الذي ليس فيه عوج.

وعليه فالميراث يمكن أن يتم تناوله من حيث:

أولاً: الميراث الدائم للحي الدائم: قال تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ} 479، وقال تعالى: {وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ} 480.

478 الكهف 1 .4.

479 القصص 58.

480 القصص 22 .24.

ثانيا: الميراث المؤقت للحي المؤقت: قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} 481، وقال تعالى: {وَوَرِثُوا أَنَّمَنْ عَلَىٰ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} 482.

ولذا فإنّ الكتاب الكريم الذي اشتمل على المنهج الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فيه علم الميراث يوضح معنى الميراث، الذي يستوجب من الخليفة القيام بمهام الوراثة بالآتي:

- 1 - حمد الوارث المطلق على ما آتاه من نعم.
- 2 - الإقرار بأنّه لا أحد يكون في منازعة الوارث على ملكه.
- 3- الاعتراف للنبي محمّد بالرسالة الخاتمة المشتملة على المنهج الذي لا عوج فيه، باعتبارها النص الذي يُفصّل الآيات لقوم يعلمون ويتقون.
- 4- هذا الكتاب الذي ورث الكتب السابقة ينذر إنذارا شديدا للذين لا يتبعون المنهج الخاتم.
- 5- البشرى العظمى للذين يتخذون المنهج الصحيح منهجا للإصلاح والتعمير وبذلك يستحقّون الخلافة ويرثون المسؤولية لتحقيق الخلافة المثلى على الأرض.

481 المؤمنون 11. 1.

482 القصص 5.

6- الخليفة الذي يعمل الصالحات سيرث ثوابا لا ينفد ولا يزول ويمكث فيه أبدا لأنه اتبع الوارث الأعلى فتجلى عليه بالصفة نفسها فأورثه النعيم المقيم الذي يدوم دواما سرمديا، وهذا الدوام السرمدي والنعيم المقيم المعبر عنه في القرآن الكريم بقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} 483.

7- الوراثة الحقيقية تكون للخليفة المتصف بالآتي:

أ- الإيمان المطلق بالله سبحانه وتعالى أنه الوارث الذي يملك الملك المطلق وهو لم يرثه من سابق حيث لا سابق قبل سبق الله، قال تعالى: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 484.

ب- الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى لم يلد ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا لأنه الغني عن ذلك فهو الباقي الذي لا يفنى، وذلك فالفناء مخلوق زائل، والله خالق باقي يرث كل شيء خلقه حيث لا أحد من قبله ولا بعده ولهذا الملك لله الواحد القهار.

ج- إتباع النبي الخاتم الذي لا يدعي أنه ابن الله ويؤكد أنه بشر أرسله لينذر الناس من شر أنفسهم بدعواهم أن الله ثاني اثنين أو أنه له زوجة أو

483 الكهف 107 . 110.

484 الحديد 1 . 3.

ولد تعالى الله على ذلك علوا كبيرا. قال تعالى: {قَالَتْ هُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَّوَكَّلَ عَلَىٰ اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا أَدَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } 485.

د- الخليفة الوارث الذي يعمل الصالحات ويعمر الأرض ليرث الثواب والفرديوس الأعلى. قال تعالى: {أَوْمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ آسَاءُوا السُّوءَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ وَمَنْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءَ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ } 486.

والخلافة ليست لفرد بل يمكن أن تكون لأمة أو أي عدد من أفراد الجنس البشري بشرط الإيمان بالمبدأ والعمل على تحقيقه ومن هنا تتحقق الخلافة ويكون الميراث الحقيقي وهذا الميراث لا يكون إلا لمن تتحقق فيه هذه الصفات الواردة في قوله تعالى:

{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّعْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ

485 إبراهيم 11، 12.

486 الروم 9 - 15.

عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ {487.

وبتحليل صفات الوارث نجد أنها تتلخص في الآتي:

1 - الإيمان بالله وما أمر أن نؤمن به من غيب. قال تعالى: {وَعِنْدَهُ
مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ
وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي
كِتَابٍ مُبِينٍ {488، والمستخلفون في الأرض أخوة في طاعة الله وتوحيده
ولذا فلهم الدرجات العلا ولهم المغفرة والرزق الكريم قال تعالى: {إِنَّمَا
الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ
إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ
أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ {489.

وعليه فالوارثون هم:

. الذين يذكرون الله قولاً وعملاً.

. وهم يزدادون إيماناً برؤية آيات الله المسموعة سمعاً والمقروءة لساناً
والمشاهدة بصراً والمدركة بصيرة والمجوهرة روحاً.

. وهم يتوكلون على الله باستخدام الأدوات التي منحها لهم لوراثة
الأرض في عالم الاختبار، ووراثة الفردوس في عالم الحساب، ولسان حال

487 المؤمنون 11.1.

488 الأنعام 59.

489 الأنفال 4.2.

المؤمنين الوارثين يتمثل في قوله تعالى: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} 490.

. وهم يقيمون الصلاة لدوام الصلة بالله تعالى.

. وهم ينفقون من فضل الله عليهم لأنهم يعلمون أن ما في أيديهم إنما هو من فضل الله سبحانه وتعالى.

والخليفة هو المؤمن الصادق فبصدق القول والعمل سيرث الخلافة في الأرض والدرجات العلى في الآخرة وهذا ما أكده الوارث عز وجل في قوله تعالى:

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} 491.

فالله سبحانه وتعالى الوارث لأنه المالك، ولتأكيد ملكه للكون ومن فيه يقول الله تعالى مخاطبا النبي ومن سار على نهجه لينال الخلافة والميراث الحقيقي: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِإِذْنِكَ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمَاتِ وَيُدْخِلُ الْمَمَاتِ فِي الْحَيِّ وَتُرْزِقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} 492.

وجاء في تفسيرها: {مالك الملك} أي مالك جنس الملك على الإطلاق ملكا حقيقيا بحيث تتصرف فيه كيفما تشاء إيجادا وإعدامًا وإحياء وإماتة وتعديبا وإثابة من غير مشارك ولا ممانع {تؤتي الملك} بيان لبعض وجوه التصرف الذي تستدعيه مالكية الملك وتحقيق

490 الأنفال 51.

491 الحجرات 15.

492 آل عمران 26 ، 27.

لاختصاصها به تعالى حقيقةً وكونٍ مُلكٍ غيره بطريق المجاز كما ينبئ عنه إثارُ الإيتاءِ الذي هو مجردُ الإعطاءِ على التملكِ المؤذِنِ بثبوتِ المالكيةِ حقيقةً.

{مَنْ تَشَاءَ} وذلك لملكه حقّ الاختيار والتقدير بالميزان الحقّ {وَتَنْزِعُ} الملكِ مِمَّنْ تَشَاءُ} نزعه للملك ممن أتاه إياه بأسباب ومبررات هو يعلمها ممّا يجعل النزع حقّ يجب أن يُفعل ولذلك فهو الفَعَالُ لما يُريد، والملك جاءت مطلقة فهي قابلة للتقدير فهي تأتي بمعنى النبوءة، وتأتي بمعنى الحكم، وتأتي بكلّ معاني التصرف.

{وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءَ} أن تُعِزَّهُ في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما بالنصر والتوفيق والعزة هي الأخرى جاءت مطلقة دون تحديد بموضوع أو قضية، وذلك بأسباب مطلقة الوارث فيما يورث {وَتُنْذِلُ مَنْ تَشَاءَ} أيضا المستهدف بالإذلال غير محدد وذلك لارتباط من يجب أن يذل بأسباب موضوعية تستوجب أن يُذل عليها، {بِيَدِكَ الْخَيْرِ} تعريفُ الخير للتعميم، وتقديمُ الخير للتخصيص أي بقدرتك الخيرُ كلّهُ لا بقدره أحدٍ غيرك تتصرف فيه قبضا وبسطا حسبما تقتضيه مشيئتك، وتخصيصُ ويديك الخير تخصيصُ الخير المطلق بيد الوارث المطلق.

وعليه فالخليفة وحده يدرك الحقّ فيتبعه فهو يعلم أنه مورث من الوارث الأعظم، وأن ما يورث فيه زائل بعد زواله من الوجود الحي، ويؤمن أنه لن يبقى إلا وجه الله ذو الجلال والإكرام، ولهذا الإيمان يملأه بمستوجبات الطاعة.

أمّا ما يخص الخلافة وهي لب ومحور الرؤية التي ننطلق منها في النظر في أسماء الله الحسنى فهي ذات صلة وثيقة بهذا الاسم الشريف لأنه يلخص فكرة الخلافة ومحوها في سؤال بسيط في الكلمات عميق في

المعنى والدلالة ألا وهو "ما الميراث؟، ومن يستحقه؟ ومن يملك على وجه الحقيقة وعلى وجه المجاز؟ ومن سيؤول إليه الميراث في النهاية؟

إنّ كلّ ميراث مادي على الأرض هو على سبيل الأمانة التي عرضها الله على المخلوقات لتعمير الأرض فرفضت جميع الخلائق وخافت من هذا الحمل الثقيل، ولكن الإنسان قد قبل هذا الحمل جهلاً منه بتبعاته قال تعالى: { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } 493.

والإنسان لم يتأن في قبول الأمانة وعليه فهو قد يحسن التصرف في الميراث الذي ورثه هبةً من الله أو قد يسيء وهذا هو جوهر الخلاف، قال تعالى: { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } 494، وقال تعالى: { مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } 495.

وفي قوله عزّ وجلّ: { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ } قال مجاهد: لما خلق الله عزّ وجلّ آدم عليه السّلام عرض عليه الأمانة فحملها، فما كان بين أن حملها، وبين أن أخرج من الجنة، إلا كما بين الظهر والعصر. وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ } يعني: الفرائض على السماوات والأرض والجبال. فقال لمن: يأخذن بما فيها. فقلن: وما فيه يا ربّ؟ قال: إن أحسنتن

493 الأحزاب 72.

494 فصلت 46.

495 النحل 96، 97.

جوزيتن. وإن أسأتن عوقبتن. فقلن: يا رب إن تعرضها علينا فلا نريد،
وإن أمرتنا بما فنحن نجتهد496.

الأمانة: هي ما يوضع مؤقتا، عند من يعتقد أنه محل لها، وخير خلق
خُلق في أحسن تقويم هو الإنسان، ومع أنه خلق على أحسن تقويم، إلا
أنه لم يخلق على الكمال، ولهذا كان ظلوما جهولا بما حُمِّل.

والبعض يفسر الأمانة بأنها الطاعة وهذا القول لا يتناقض مع ما
نذهب إليه بأن الأمانة هي الخلافة المثلى على الأرض، لأنه لا طاعة
دون تحقيق الغرض الذي من أجله أنزل الله الإنسان على الأرض، فمن
يطع الله يحسن توظيف الأدوات التي منحها الله له لغرض الخلافة من نعم
لا تعد ولا تحصى. يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ
السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾497.

وهذه الأدوات التي وهبها الله للإنسان وغيرها من عقل وإرادة ونفس
وروح، فقد أكملها الله بتسخير الكون لينتفع به الخليفة في تعمير الأرض
وإصلاحها يقول الله تعالى: ﴿حَمْدُ تَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ إِنَّ
فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ
آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاحْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ
رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيْفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ تِلْكَ
آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ وَيَلُّ
لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ
يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا
اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا

⁴⁹⁶ بحر العلوم للسمرقندي، ج 3، ص 424.

⁴⁹⁷ الإسراء 136.

بآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِيَتَجْرِيَ
الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ {498.

فالله سبحانه وتعالى قد سخر السماء لتحمل الأمطار التي هي سبب
الحياة وكذلك سخر الريح للتلقيح، وسخر الليل والنهار للعمل والراحة
والعبادة والتأمل فيما خلق، وسخر الأرض لينتفع بها الإنسان لأنه
الخليفة إن سار وفق المنهج المرسوم له وهذه الأدوات وغيرها هل هي
ميراث على وجه الحقيقة أو ميراث على وجه المجاز للاختبار؟ يقول الله
تعالى في النعم التي وهبها تسخييراً للإنسان: {المر تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ
وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ اللَّهُ الَّذِي
رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ
رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمَنْ كُلَّ
الشَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ
لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ
وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَعَيْرٌ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ
فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجْبٌ قَوْلُهُمْ
أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أُنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ
الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {499.

فالله سبحانه وتعالى يؤكد في الكتاب الحق أن ما أنزله إلى رسول
الإنسانية حق، وهذا الحق فيه حقائق لا بد أن يعيها كل مخلوق ومنها:

498 الجاثية 1. 13.

499 الرعد 1. 5.

1 - أن القرآن حقّ ويحتوي على المنهج الحقّ للوارث الذي يريد تحقيق الخلافة.

2- أكثر الناس لا يؤمنون بهذه الحقيقة، وعليه فهم لا يستحقّون الخلافة ولا الميراث في الدنيا ولا الآخرة، فيقول الله لهؤلاء موضعا لهم جزاء من آمن وأحسن، وجزاء من كذب وأساء وظل: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ مِّمَّثِلًا هُمْ ذَلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَمْآءٍ أُعْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَعْبُدُونَ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلِّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} 500.

3 . تأكيد أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق دون شريك فهو الذي رفع السماء بدون عمد يراها الإنسان، وأنزل منها الماء الذي هو سر أسرار الحياة على الأرض.

4 - سخر الله الوارث العزيز الشمس والقمر في ميزان الكون واعتداله لخدمة الإنسان الخليفة فلا الشمس تقترب من الأرض فتحرقها ولا تبعد

⁵⁰⁰ يونس 26 . 33.

فنجملها، ولا القمر يبعد أو يقرب فيؤثر في مستوى الماء في البحار فتغرق الأرض أو تتوقف حركة الملاحة قال تعالى: {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَہُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 501.

5 - الله قد جعل الجزاء من جنس العمل، فالذين كفروا لا يرثون الأرض وليس لهم نصيب في الخلافة، والذين آمنوا يقول الله عنهم: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ

بِأَمْرِهِ وَسَحَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ وَسَحَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَحَّرَ لَكُمْ
الَّيْلَ وَالنَّهَارَ {502.

وهؤلاء الذين قال سبحانه وتعالى لهم: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ
وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ
وَسَحَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَحَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ الَّذِي سَحَّرَ الْبَحْرَ لِيَتَأْكَلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا
وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُوهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِيَبْتَلُوا مَنْ فُضِّلَهُ
وَأَعْلَمُكُمْ تَشْكُرُونَ {503.

ويقول تعالى مخاطبا للرسول الكريم على وجه الخصوص ومخاطبا كل
إنسان على وجه العموم: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ
النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ
اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ
الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ بَجَرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ
اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ وَإِذَا غَشِيَهُمْ
مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ
مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلَّ خَتَّارٍ كَفُورٍ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ
وَاحْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا
إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ إِنَّ اللَّهَ
عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ

502 إبراهيم 27 33.

503 النحل 10 14.

مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
خَبِيرٌ {504.

ومن نعم الله التي أورها للإنسان ليحقق الخلافة على الأرض الماء العذب ومصدره الأنهار والأمطار والمياه الجوفية، والماء المالح ومصدره المحيطات والبحار، وفي كلّ منهما فوائد جمة، وهذه النعم وهب ومنح لا ميراث وإن ورثت فعلى سبيل الانتفاع لا الامتلاك الدائم حيث لا دائم إلا وجهه، وكذلك الشمس والقمر والليل والنهار، وهذا ما يدعو إلى الإيمان بأن الله هو الوارث مملكه ويمنح من يشاء من عباده ما يشاء، ونعتقد أن كلمة الميراث في حقّ الخلق على سبيل التقريب والمجاز لا على سبيل الحقيقة فلا وارث إلا الله عزّ وجلّ فيقول الله تعالى موضحاً لنعمه التي لا تعد ولا تحصى: { وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كَلَّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى جَمَلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ

504 لقمان 29 .34.

505 فاطر 12 .18.

إذا فما منحه الله للإنسان ليس ميراثا بل هبة أو أمانة ليرى مدى طاعة الإنسان من خلال استخدام هذه النعم في تحقيق الخلافة المثلى على الأرض، التي يود الله إصلاحها مصداقا لقوله تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} 506، وقال تعالى: {فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُوهَا عِوَجًا وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَتَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} 507.

وفي قوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ} في معناها تحمُّل المسؤولية ذات العبء الكبير، التي حملها الخليفة بالطاعة التامة لأمر الوارث، إنه قبول بتحمُّل ما يترتب على المسؤولية مع التصميم على النجاح مع كبر العبء وجسامته المسؤولية.

وكان عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا) الإيلاء الامتناع، والامتناع لا يعني الرفض بالمطلق، بل يعني ممَّا يعني إظهار المخافة منها اجتنابا لما هو متوقَّع وهو الفشل في حملها، وهذا لا يعني الرفض بالمطلق،

⁵⁰⁶ الأعراف 55 - 57.

⁵⁰⁷ الأعراف 85 - 87.

بل يدل على قبول الحوار أمام التخيير لا التسيير. ولهذا كانت الشفقة منها ظاهرة، وفقا لما هو مترتب عليها.

وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانَ، الَّذِي عَلَّمَهُ اللَّهُ الْأَسْمَاءَ، وَالْأَسْمَاءُ هِيَ الْأَسْرَارُ، وَهَذَا عِنْدَمَا عَرَفَ الْإِنْسَانَ الْأَسْرَارَ عَرَفَ أَنَّهُ كَانَ جَهُولًا بِأَمْرِهِ؛ وَلِأَنَّهُ الْخَلِيفَةُ حَمَلَ مَسْئُولِيَةَ الْأَمَانَةِ وَارْتَضَى ذَلِكَ فَكْرَمَهُ اللَّهُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِأَمَّتِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذَا لَا دَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا} 508.

وجاء في تفسيرها أيضا ما يتفق مع التفسير السابق " {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } .

يعظم تعالى شأن الأمانة، التي ائتمن الله عليها المكلفين، التي هي امتثال الأوامر، واجتناب المحارم، في حال السر والخفية، كحال العلانية، وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة، السماوات والأرض والجبال، عرض تخيير لا تحتيم، أنك إن قمت بها وأدبتيها على وجهها، فلك الثواب.

⁵⁰⁸الإسراء 9 6. 75.

وقوله: (فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا)، أي: خوفًا ألا يقمن بما حُمِّلْنَ، لا عصيانًا لرَبِّهنَّ، ولا زهدًا في ثوابه.

وبالنسبة للخليفة دائما أمامه الأمانة، وهو دائما معرض للاختبار والابتلاء في الدار الدنيا التي جعل الوارث فيها الإنسان خليفة له في أرضه مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} 509.

والأمانة المنصوص عليها هي ذات الأعباء والمسؤوليات الجسام وهي في حالة تتابع ثلاثي:

الأول: الأمانة التي عُرضت من بداية الخلق على أبينا آدم صلى الله عليه وسلم: وتلك الأمانة نحن لا نعلم أمرها إلا اجتهادا، فهي التي عرضها الله على الإنسان، فحملها طاعة لله فيما عرضه بغض النظر عما

تحتويه من صعاب ومسؤوليات جسام، فقبلها، وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل.

الثاني: الأمانات المتعددة التي نزلت على الرسل عليهم الصلوة والسلام: والغرض منها واحد وهو البلاغ بالوحدانية والإيمان بها تسليماً مطلقاً، وهذه الرسائل كانت ذات أعباء على المصطفين صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً، فانقسم الناس من حولهم بين خمسة فئات:

1 . الفئة الكافرة: وهي الفئة التي لا تؤمن بوجود من خلق الوجود والحياة والممات: وكان الطبيعة هي التي ولدت كل شيء، وهؤلاء ماتوا على كفرهم قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} 510، وقال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ} 511.

2 . الفئة المشركة: وهي الفئة التي تؤمن بالله وتشارك آخرين معه، والمشارك كافر بما أمر الله وهو لا يؤمن بالحق في قوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} 512، وقال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ

510 آل عمران 91.

511 البقرة 87، 88.

512 الإخلاص 1 . 4.

لَيَمَسَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ
وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى
يُؤْفَكُونَ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {513}.

3 . الفئة المنافقة: وهي التي تظهر الإيمان وتبطن الكفر أو الشرك،
وهؤلاء هم الذين يقولون ما لا يفعلون مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ
حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا
تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ وَأَخْرُونَ
اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ {514}، وقال تعالى: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا
أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ
بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ
أَفْطَاهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا
اللَّهِ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلُونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا {515}.

4 . الفئة المسلمة: وهي التي تُقر بوجود خالق عظيم، فتؤمن به وتؤمن
بالرسول الذي جاء مبشرا ونذيرا، وتؤمن بجميع الأنبياء والرسل كما في
رسالة محمد عليه الصلاة والسلام الرسالة الخاتمة، حيث إن المسلمين
بذلك لا يفرقون بين أحد من رسله مصداقا لقوله تعالى: {قُولُوا آمَنَّا
بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

⁵¹³ المائدة 72 . 76 .

⁵¹⁴ التوبة 101، 102 .

⁵¹⁵ الأحزاب 12 . 15 .

وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ {516، وقال تعالى: { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {517، وقال تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّه فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ {518.

5. الفتنة المؤمنة: وهي التي دخل الإيمان قلبها بعد أن أسلمت فلا ظن ولا شك فيما تعبد، وهي التي تُسلم بالملطق بأنه لا وارث إلا الله ولا مغفرة أو مثوبة إلا منه، والجنة حق لأصحاب الحق، والنار حق لأصحاب الكفر والشرك والذين لا يتقون فيما يقولون ويفعلون، قال تعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ {519، وقال تعالى: { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

⁵¹⁶ البقرة 136.

⁵¹⁷ آل عمران 64 - 67.

⁵¹⁸ . الأنبياء، 112.

⁵¹⁹ الأنفال 2 . 4.

وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {520}، وقال تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ {521}.

وبناء على ما تقدم، فلكلّ فئة حسابها وعقابها أو ثوابها قال تعالى: {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُهُمْ لَعْنَا كَبِيرًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا {522}.

فالله هو الوارث لأنّه الأول والآخِر والظاهر والباطن والمنعم والمتفضل ومالك الملك بلا منازع لا عن وراثة.

وهو ملك الكون ووارثه أي الحاكم فلا يرده أحد فيما أراد ، يقول الله تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قُلْ يَا أَيُّهَا

520 الأنفال، 75.

521 الحجرات، 15.

522 الأحزاب 67 - 73.

النَّاسَ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُذَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ {523}.

وهو الباقي الذي يبقى ليري الخلق أن ميراث السماوات والأرض لله لا غيره فهو الوارث بلا مشاركة لأحد في ملكه وميراثه، و"الوارث صفة من صفات الله عز وجل لأنه الباقي الدائم الذي يرث الخلائق ويبقى بعد فنائهم والله عز وجل يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين أي يبقى بعد فناء الكل ويفنى من سواه فيرجع ما كان ملك العباد إليه وحده لا شريك له قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {524}.

الثالث: أمانة المستخلفين بعد الرسل والأنبياء: وهم المؤمنون حقًا فلا يفرقون بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ {525}، وقال تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ

523 يونس 107 . 109.

524 المؤمنون 1 . 11.

525 المائة، 7، 8.

وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ تُعْرَضُوا وَلَنْ يُخْرِجَنَّكُمْ لِيُخْرِجَنَّكُمْ لَنْ تُفْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ {526}. لقد انتهى زمن الرسل والأنبياء ولم يبق إلا زمن الصالحين والمؤمنين الذين التزموا بحمل الأمانة وهي عبء يستوجب التبشير به والإنذار به والتحريض به، حتى تعم المعمورة وتلون بالدين الخاتم لكل الأديان بالرسالة الخاتمة في اللوح المحفوظ.

وعليه من يغفل عن أداء الأمانة التي بها التزم وحمل العبء، سيكون من الخاسرين، ومن يعمل صالحا ويصلح في الأرض التي استخلفه الله فيها سيكون من الوارثين في الدارين الذين يرثون الأرض والجنة. اللهم اجعلنا من الوارثين في الدارين وأرضى عنا وعن البنين والزوجات والوالدين فإننا بك آمنة وعليك توكلنا وأوليننا أمرنا إليك فارحمنا فأنت خير الراحمين والوارثين.

ولذا فالوراثة استلام لاحق من سابق، ثم أخيرا استلام السابق من اللاحق بحق الوراثة المطلق، وفي سنن الأنبياء والرسل مثال: فقد ورث سيدنا يحيى سيدنا زكريا عليهما الصلوة والسلام. وورث سيدنا سليمان سيدنا داود عليهما الصلوة والسلام، وهكذا كانت وراثة الرسل من أبينا آدم إلى سيدنا نوح وإبراهيم ثم إلى سيدنا موسى وعيسى عليهم الصلوة والسلام ثم إلى أن اختتمت بمحمد ورسالته عليه الصلوة والسلام.

فقال الله تعالى إخبارا عن زكريا عليه الصلوة والسلام ودعائه إياه: {ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ

الْمَوَالِي مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ أَمْرًا قَافِرًا فَهَبَ لِي مِنْ لَدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا} 527 أي يبقى بعدي فيصير له ميراثي قال ابن سيده: إنما أراد يرثني ويرث من آل يعقوب النبوة ولا يجوز أن يكون خاف أن يرثه أقرباؤه المال لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إننا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقة" 528.

وقوله: (وورث سليمان داود) ورث منه النبوة والملك دون سائر بنيه وكانوا تسعة عشر قالوا: أوتي النبوة مثل أبيه فكأنه ورثه وإلا فالنبوة لا تورث 529.

قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} 530.

وأما قوله تعالى: (الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين) ففيها:

527 مريم 1 . 7.

528 تفسير النسفي، ج 2، ص 262.

529 تفسير النسفي، ج 3، ص 1.

530 النمل 15 . 19.

أحدها: أنّ الكثير المفضل عليه هو من لم يؤت علما أو من لم يؤت مثل علمهما، وفيه أنهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير.

وثانيها: في الآية دليل على علو مرتبة العلم لأنهما أوتيا من الملك ما لم يؤت غيرهما فلم يكن شكرهما على الملك كشكرهما على العلم.

وثالثها: أنهم لم يفضلوا أنفسهم على الكلّ وذلك يدل على حسن التواضع.

ورابعها: أنّ الظاهر يقتضي أن تلك الفضيلة ليست إلا ذلك العلم، ثمّ العلم بالله وبصفاته أشرف من غيره، فوجب أن يكون هذا الشكر ليس إلا على هذا العلم، ثمّ إنّ هذا العلم حاصل لجميع المؤمنين فيستحيل أن يكون ذلك سببا لفضيلتهم على المؤمنين فإذا الفضيلة هو أن يصير العلم بالله وبصفاته جليا بحيث يصير المرء مستغرقا فيه بحيث لا يخطر بباله شيء من الشبهات ولا يغفل القلب عنه في حين من الأحيان ولا ساعة من الساعات.

أمّا قوله تعالى: (وَوَرِثَ سَلِيمَانَ دَاوُودُ) فقد اختلفوا فيه، فقال الحسن المال؛ لأنّ النبوة عطية مبتدأة ولا تورث، وقال غيره: بل النبوة، وقال آخرون: بل الملك والسياسة، ولو تأمل الحسن لعلم أن المال إذا ورثه الولد فهو أيضا عطية مبتدأة من الله تعالى، ولذلك يرث الولد إذا كان مؤمنا ولا يرث إذا كان كافرا أو قاتلا، لكن الله تعالى جعل سبب الإرث فيمن يرث الموت على شرائط، وليس كذلك النبوة لأن الموت لا يكون سببا لنبوة الولد فمن هذا الوجه يفترقان، وذلك لا يمنع من أن يوصف بأنه ورث النبوة لما قام به عند موته، كما يرث الولد المال إذا قام به عند موته ومما يبين ما قلناه أنه تعالى لو فصل فقال: وورث سليمان داود ماله لم يكن لقوله: (وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ) معنى، وإذا قلنا

وورث مقامه من النبوة والملك حسن ذلك: لأن تعليم منطلق الطير يكون داخلا في جملة ما ورثه، وكذلك قوله تعالى: (وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)؛ لأن وارث الملك يجمع ذلك ووارث المال لا يجمعه وقوله: (إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) لا يليق أيضا إلا بما ذكرنا دون المال الذي قد يحصل للكامل والناقص، وما ذكره الله تعالى من جنود سليمان بعده لا يليق إلا بما ذكرناه، فبطل بما ذكرنا قول من زعم أنه لم يرث إلا المال 531.

أما النبي محمد فقد قال: "اللهم أمتني بسمعي وبصري واجعلهما الوارث مني قال ابن شميل: أي أبقيهما معي صحيحين سليمين حتى أموت، وقيل: أراد بقاءهما وقوتهما عند الكبر والخلال القوى النفسانية فيكون السمع والبصر وارثي سائر القوى والباقيين بعدها وقال غيره أراد بالسمع وعي ما يسمع والعمل به وبالبصر الاعتبار بما يرى ونور القلب الذي يخرج به من الحيرة والظلمة إلى الهدى، وفي رواية واجعله الوارث مني فردّ الهاء إلى الإمتناع فلذلك وحدّه وفي حديث الدعاء أيضا وإليك ما بي ولك ثرائي، والثرائ ما يخلفه الرجل لورثته والتاء فيه بدل من الواو وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أنه قال بعث ابن مربيّ الأنصاري إلى أهل عرفة فقال: اثبتوا على مشاعركم هذه فإنكم على إثر من إثر إبراهيم" 532.

أنواع الميراث:

1- ميراث مادّي: أموال وعقارات وغير ذلك في الدنيا، وميراث الجنّة في الآخرة.

⁵³¹ تفسير الرازي، ج 12، ص 20.

⁵³² تفسير الرازي، ج 12، ص 20.

2- ميراث معنوي: في الدنيا والآخرة مثل ميراث العلم والنبوة والفوز برضا الله في الجنة.

3- ميراث مادي ومعنوي كما هو الحال مع سيدنا سليمان الذي ورث سيدنا داود عليهما الصلاة والسلام.

وهذه الأنواع من الميراث كما أسلفنا وهب من الله لمن يستحق وفق إرادة الله عز وجل من خلال تطبيق المنهج الصحيح لتحقيق الخلافة المثلى على الأرض.

وليس أدل وأوضح من آيات الله لتوضيح معنى الوارث والميراث قال الله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} 533.

فالميراث الحقيقي لله وحده دون شريك أو منازع فهو جلّ وعلا ذكره يؤكد بصيغة التوكيد والعظمة وبصيغة الجمع التي تدل على الكبرياء والشموخ أنّ الميراث الحقيقي المؤكد لله وحده فهو الذي سيرث الأرض ومن عليها، وجميع من في الأرض سيرجعون إليه ليحاسبهم على الميراث المؤقت الذي منحه لهم في الدنيا لتحقيق الخلافة، وسيرجع الكلّ لله كما خلق أول مرة يقول الله تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} 534.

فمن جاء الله ورجع إليه بقلب خاضع خاشع سليم من الشرك والكبر هو الذي يزفه الله إلى الجنة لأنه جاء بميراث العمل لا ميراث زائف من مال فان أو ولد لا يملك نفعا ولا ضرا لأبيه، فيبشر الله هؤلاء الصنف من المتقين، وينذر المجرمين، بأن لكلّ جزاء من جنس عمله مع تأكيد أن الجميع لابدّ أن يرجع عبدا لا يملك شيئا ويعود فردا مجردا من المال والولد

533 مريم 40.

534 الشعراء 88، 89.

والجاء والسلطان يعود لا ملك له إلا ما سيمنحه الله له يوم القيامة،
 فيقول الله تعالى: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ
 إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا وَقَالُوا
 اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ
 الْأَرْضُ وَنَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ
 وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ
 وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكَلَّمَهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} 535.

والجنة هي ميراث الخليفة ومن سار على نهجه من عباد الله الذين اتقوا
 الله وحققوا ما أراد في أرضه ومع عباده فكانوا أهلا للميراث الحقيقي
 الدائم الذي لا يزول.

فقال الله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ
 وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا
 تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ
 أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ
 وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي
 وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا
 سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ
 كَانَ تَقِيًّا} 536.

أما ميراث الكافرين فهو لا محالة يليق بهم وبما عملوا وبما أسلفوا قال
 الله تعالى:

535 مريم 85 . 95.

536 مريم، 58 - 63.

{ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَأَتَّهِمُوا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلْكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } 537.

والميراث الحقيقي لعباد الله الذي اتقوه وخافوه في الدنيا ولا يخافوا من غيره فأمنهم من المفسدين في الأرض وأمنهم من الخوف الأكبر يوم القيامة ويزيد الله على ذلك بوهبهم الجنة فيقول الله تعالى: { يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ } 538.

وميراث الآخرة يسبقه ميراث في الأرض ولا يمنع ذلك ولا تلك إلا المعصية والبعد عن منهج الخلافة الذي ارتضاه الله للخلافة في أرضه والله

537 الأعراف 38 . 43.

538 الزخرف 68 . 73.

يحذر الذين سيرثون الأرض من شر ذنوبهم لأنّ الذنوب تحجب العبد عن خير الله في الدنيا والآخرة، فيقول الله تعالى: {أَوْمَ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} 539.

والذين يؤمنون بالله ربّا ويخشعون له في صلاتهم ويعرضون عن لغو الكلام بذكره الدائم ويؤدون الزكاة وينفقون عن حب في الله دون بخل، ويحفظون فروجهم إلا عن الحلال ويحفظون العهد بعبادة الله وحده وعدم الشرك به يصلون إلى مقام القرب ويرثون أعلى الجنان يرثون الفردوس وهذا أعلى وأعلى ميراث وهذا هو الفلاح الحقيقي، فقول الله تعالى في الوارثين من هذا الصنف:

{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} 540.

ومن الميراث ما هو للعلم والنبوة وهذا الميراث هو الميراث الحقيقي الذي يسعى إليه من أراد أن يكون خليفة الله في أرضه وهذا النوع نجده في كتاب الله مع سيدنا زكريا وسيدنا يحيى عليهما الصلاة والسلام فيقول الله تعالى: {كهيعص ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ

⁵³⁹الأعراف 100.

⁵⁴⁰المؤمنون 11 . 1.

لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا يَا زَكَرِيَّا إِنَّا
نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا قَالَ رَبِّ أُنَّى يَكُونُ لِي
غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ
هُوَ عَلَيَّ هَيِّئْ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً
قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا فَحَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ
الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا {541}.

ومن الميراث المادّي والمعنوي ميراث الملك والعلم والنبوة ما حدث مع
سيدنا سليمان وسيدنا داود عليهما الصلاة والسلام وهذا الميراث وغيره
يحقّ للخليفة من الأمة المحمّدية؛ لأنها التي ورثت الكتاب والنبوة والعلم
من خلال إتباع شريعة سيد الخلق وحبيب الحقّ سيدنا محمد صلّى الله
عليه وسلّم.

يقول الله تعالى في ذلك النوع من الميراث: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ
عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَرِثَ
سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} {542}.

والذين يرثون العلم والنبوة ويتبعون المنهج الصحيح لإعمار الأرض
وعدم الفساد فيها يخاطبهم الله بقوله: {فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ
يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ
يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ
يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي
الْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ
شَيْئًا وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّيْ لَهُمْ حَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ

541 مريم 1 - 11.

542 النمل 15 - 16.

إِنَّمَا نُكَلِّمُ هُنَّ لِيُزِدُوا إِثْمًا وَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ {543}.

وقال الله تعالى الخالق الملك المالك الوارث للناس في كتابه الخاتم: {أَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَن أَنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِن بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ مَّن ذَا الَّذِي يُفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ {544}.

وقال عز وجل: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَن أَنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِن بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ مَّن ذَا الَّذِي يُفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ {545} الإنفاق عطاء بدون منة، وفي هذه الآية الكريمة استغراب من أمر الذين يملكون ولا ينفقون مما يملكون ابتغاء

543 آل عمران 174 . 180.

544 الحديد 8 . 11.

545 الحديد 10.

وجه الله تعالى، ولذا فإن الإنفاق طاعة لأمر الله تعالى وهذه طاعة المستخلفين الذين يؤمنون بالله ورسوله وكتبه وملائكته واليوم الآخر وبكل ما أمر ونهى، فله الحمد على ما أعطى وأغنى.

وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يعني: إلى الله يرجع ميراث السماوات والأرض ولا أحد غيره يرثهما، ولأنه الوارث لكل شيء، إذا لماذا لا تنفقون، لتكونوا من بعد ذلك من الوارثين في الجنة؟ وقوله: (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا) والأموال كلها لله تعالى وهو يأمركم بالنفقة. ويقال: أنفقوا ما دمتم في الحياة، فإنكم إن بخلتم، فإن الله هو يرثكم، ويرث أهل السماوات. فأنفقوا قبل أن تفنوا، وتصير كلها ميراثا لله تعالى بعد فنائكم، وإنما ذكر لفظ الميراث، لأن العرب تعرف ما ترك الإنسان ميراثا، فخطبهم بما يعرفون فيما بينهم⁵⁴⁶.

عَنْ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ: "أَنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ حِينَ تُوْفِّي رَسُولَ اللَّهِ أَرْدَنَ أَنْ يَبْعَثَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فَيَسْأَلْنَهُ مِيرَاثَهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَتْ لَهُنَّ عَائِشَةُ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ لَا تُورَثُ مَا تَرَكَنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ"⁵⁴⁷.

عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بِنْتُ الزُّبَيْرِ أَنَّ السَّيِّدَةَ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَخْبَرَتْهُ: أَنَّ السَّيِّدَةَ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ ابْنَةُ رَسُولِ اللَّهِ سَأَلَتْ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ بَعْدَ وِفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ أَنْ يَفْسِمَ لَهَا مِيرَاثَهَا مِمَّا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهَا أَبُو بَكْرٍ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَا تُورَثُ مَا تَرَكَنَا صَدَقَةٌ فَغَضِبَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ فَهَجَرَتْ أَبَا بَكْرٍ فَلَمْ تَزَلْ مُهَاجِرَتَهُ حَتَّى تُوْفِّيَتْ وَعَاشَتْ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ قَالَتْ وَكَانَتْ فَاطِمَةُ تَسْأَلُ أَبَا بَكْرٍ نَصِيبَهَا مِمَّا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ

⁵⁴⁶ بحر العلوم للسمرقندي، ج 4، ص 249.

⁵⁴⁷ موطأ مالك، ج 6، ص 143.

خَيْرٌ وَفَدِكِ وَصَدَقْتُهُ بِالْمَدِينَةِ فَأَبَى أَبُو بَكْرٍ عَلَيْهَا ذَلِكَ وَقَالَ لَسْتُ تَارِكًا شَيْئًا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَعْمَلُ بِهِ إِلَّا عَمِلْتُ بِهِ فَإِنِّي أَخْشَى إِنْ تَرَكْتُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ أَنْ أَرْبِعَ فَأَمَّا صَدَقْتُهُ بِالْمَدِينَةِ فَدَفَعَهَا عُمَرُ إِلَى عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ وَأَمَّا خَيْرٌ وَفَدِكُ فَأَمْسَكَهَا عُمَرُ وَقَالَ هُمَا صَدَقَةٌ رَسُولِ اللَّهِ كَانَتْما لِحَقِّقِهِ الَّتِي تَعْرُوهُ وَنَوَائِبِهِ وَأَمْرُهُمَا إِلَى مَنْ وَلى الْأَمْرَ قَالَ فَهُمَا عَلَى ذَلِكَ إِلَى الْيَوْمِ"548.

عَنْ ابْنِ شَهَابٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسِ بْنِ الْحَدَثَانِ وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ جُبَيْرٍ ذَكَرَ لِي ذِكْرًا مِنْ حَدِيثِهِ ذَلِكَ فَأَنْطَلَقْتُ حَتَّى أَدْخُلَ عَلَى مَالِكِ بْنِ أَوْسٍ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ الْحَدِيثِ فَقَالَ مَالِكُ بَيْنَا أَنَا جَالِسٌ فِي أَهْلِي حِينَ مَتَعَ النَّهَارُ إِذَا رَسُولُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَأْتِينِي فَقَالَ أَحِبُّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنْطَلَقْتُ مَعَهُ حَتَّى أَدْخُلَ عَلَى عُمَرَ فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى رِمَالِ سَرِيرٍ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِرَاشٌ مُتَّكِيٌّ عَلَى وَسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ جَلَسْتُ فَقَالَ يَا مَالِ إِنَّهُ قَدِمَ عَلَيْنَا مِنْ قَوْمِكَ أَهْلُ أَبْيَاتٍ وَقَدْ أَمَرْتُ بِهِمْ بِرِضْخٍ فَأَقْبَضُهُ فَأَقْسِمُهُ بَيْنَهُمْ فَقُلْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَوْ أَمَرْتُ بِهِ غَيْرِي قَالَ أَقْبَضُهُ أَيُّهَا الْمَرْءُ فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عِنْدَهُ أَنَاهُ حَاجِبُهُ يَرْفَا فَقَالَ هَلْ لَكَ فِي عُثْمَانَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَالزُّبَيْرِ وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ يَسْتَأْذِنُونَ قَالَ نَعَمْ فَأَذِنَ لَهُمْ فَدَخَلُوا فَسَلَّمُوا وَجَلَسُوا ثُمَّ جَلَسَ يَرْفَا يَسِيرًا ثُمَّ قَالَ هَلْ لَكَ فِي عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ قَالَ نَعَمْ فَأَذِنَ لَهُمَا فَدَخَلَا فَسَلَّمَا فَجَلَسَا فَقَالَ عَبَّاسُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضِ بَنِي وَبَيْنَ هَذَا وَهُمَا يَخْتَصِمَانِ فِيمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ مَالِ بَنِي النَّضِيرِ فَقَالَ الرَّهْطُ عُثْمَانُ وَأَصْحَابُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضِ بَيْنَهُمَا وَارْحُ أَحَدَهُمَا مِنَ الْآخِرِ قَالَ عُمَرُ تَيْدُكُمْ أَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي يَأْذِنُهُ تَقْوَمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَا نُورُثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ يُرِيدُ رَسُولُ اللَّهِ نَفْسَهُ قَالَ الرَّهْطُ قَدْ قَالَ

ذَلِكَ فَأَقْبَلَ عُمَرُ عَلَى عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ فَقَالَ أَنْشِدُكُمْ اللَّهَ أَنْ تَعْلَمَانِ أَنَّ رَسُولَ
 اللَّهِ قَدْ قَالَ ذَلِكَ قَالًا قَدْ قَالَ ذَلِكَ قَالَ عُمَرُ فَإِنِّي أُحَدِّثُكُمْ عَنْ هَذَا
 الْأَمْرِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَصَّ رَسُولُهُ فِي هَذَا الْفِيءِ بِشَيْءٍ لَمْ يُعْطِهِ أَحَدًا غَيْرُهُ ثُمَّ
 قَرَأَ 549

(وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ إِلَى قَوْلِهِ قَدِيرٌ).

فَكَانَتْ هَذِهِ خَالِصَةً لِرَسُولِ اللَّهِ وَاللَّهِ مَا اخْتَارَهَا دُونَكُمْ وَلَا اسْتَأْثَرَ بِهَا
 عَلَيْكُمْ قَدْ أَعْطَاكُمْوهَا وَبَثَّهَا فِيكُمْ حَتَّى بَقِيَ مِنْهَا هَذَا الْمَالُ فَكَانَ
 رَسُولُ اللَّهِ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً سَنَّتِهِمْ مِنْ هَذَا الْمَالِ ثُمَّ يَأْخُذُ مَا بَقِيَ
 فَيَجْعَلُهُ جَعَلَ مَالِ اللَّهِ فَعَمِلَ رَسُولُ اللَّهِ بِذَلِكَ حَيَاتَهُ أَنْشِدُكُمْ بِاللَّهِ هَلْ
 تَعْلَمُونَ ذَلِكَ قَالُوا نَعَمْ ثُمَّ قَالَ لِعَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ أَنْشِدُكُمْ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمَانِ
 ذَلِكَ قَالَ عُمَرُ ثُمَّ تَوَقَّى اللَّهُ نَبِيَّهُ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَنَا وَوَلِيُّ رَسُولِ اللَّهِ فَقَبَضَهَا
 أَبُو بَكْرٍ فَعَمِلَ فِيهَا بِمَا عَمِلَ رَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُ فِيهَا لَصَادِقٌ بَارٌّ
 رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ ثُمَّ تَوَقَّى اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ فَكُنْتُ أَنَا وَوَلِيُّ أَبِي بَكْرٍ فَقَبَضْتُهَا
 سَنَّتَيْنِ مِنْ أَمَارَتِي أَعْمَلُ فِيهَا بِمَا عَمِلَ رَسُولُ اللَّهِ وَمَا عَمِلَ فِيهَا أَبُو بَكْرٍ
 وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنِّي فِيهَا لَصَادِقٌ بَارٌّ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ ثُمَّ جِئْتُمَانِي تَكَلَّمَانِي
 وَكَلَّمْتُمَا وَاحِدَةً وَأَمَرْتُمَا وَاحِدٌ جِئْتَنِي يَا عَبَّاسُ تَسْأَلْنِي نَصِيْبَكَ مِنْ ابْنِ
 أَخِيكَ وَجَاءَنِي هَذَا يُرِيدُ عَلِيًّا يُرِيدُ نَصِيْبَ امْرَأَتِهِ مِنْ أَبِيهَا فَقُلْتُ لَكُمْ إِنَّ
 رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَا نُورَثُ مَا تَرَكَنَا صَدَقَةٌ فَلَمَّا بَدَأَ لِي أَنْ أَدْفَعُهُ إِلَيْكُمْ
 قُلْتُ إِنْ شِئْتُمَا دَفَعْتُهَا إِلَيْكُمْ عَلَى أَنْ عَلَيْكُمَا عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ
 لَتَعْمَلَانِ فِيهَا بِمَا عَمِلَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ وَبِمَا عَمِلَ فِيهَا أَبُو بَكْرٍ وَبِمَا عَمِلْتُ
 فِيهَا مِنْذُ وَلِيْتُهَا فَقُلْتُمَا ادْفَعُهَا إِلَيْنَا فَبِذَلِكَ دَفَعْتُهَا إِلَيْكُمْ فَأَنْشِدُكُمْ بِاللَّهِ
 هَلْ دَفَعْتُهَا إِلَيْهِمَا بِذَلِكَ قَالَ الرَّهْطُ نَعَمْ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ فَقَالَ
 أَنْشِدُكُمْ بِاللَّهِ هَلْ دَفَعْتُهَا إِلَيْكُمْ بِذَلِكَ قَالَا نَعَمْ قَالَ فَتَلْتَمِسَانِ مِنِّي

549 صحيح البخاري، ج 10، ص 331.

قَضَاءٌ غَيْرَ ذَلِكَ فَوَاللَّهِ الَّذِي بِإِذْنِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ لَا أَقْضِي فِيهَا
قَضَاءٌ غَيْرَ ذَلِكَ فَإِنْ عَجَزْتُمْ عَنْهَا فَادْفَعَاهَا إِلَيَّ فَإِنِّي أَكْفِيكُمَا"550.

إذا فماذا يكون ميراث النبي الذي به تتحقّق الخلافة؟

هذا السؤال يجيب عليه قول النبي صلي الله عليه وسلّم:

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه
وسلّم: "ولفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر
الكواكب، إنّ العلماء ورثة الأنبياء، إنّ الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما،
إنّما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر"551.

وهذه قصّة رواية أبي الدرداء للحديث:

عن أبي الدرداء قال: جاء رجل من أهل المدينة وهو بمصر قال فقال له
أبو الدرداء: "ما أقدمك يا ابن أخي؟ قال: حديث بلغني عنك أنّك
تحدث به عن رسول الله قال: أمّا قدمت بتجارة؟ قال: لا قال: أمّا
قدمت لطلب حاجة؟ قال: لا قال: فما قدمت إلا لطلب هذا الحديث
قال: نعم قال: فإنّي سمعت رسول الله يقول: (من سلك طريقا يطلب فيه
علما سلك الله عزّ وجلّ به طريقا إلى الجنّة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها
رضا لطالب العلم، وإن العالم يستغفر له من في السماوات والأرض حتى
الحيّتان جوف الماء، وفضل العالم على العامل كفضل القمر على
الكواكب إنّ العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما،
وإنما ورثوا العلم فمن أخذه به أخذ بحظ وافر"552.

⁵⁵⁰ صحيح البخاري، ج 10، ص 331.

⁵⁵¹ أخلاق العلماء للأجري، ج 1، ص 9.

⁵⁵² أمالي المحاملي، ج 1، ص 361.

اللهم اجعلنا من الوارثين للعلم الذي هو ميراث النبوة واجعلنا من الوارثين للفردوس الأعلى الذي هو مطمح عباد الله في الميراث الحقيقي، واجعل لنا في الدنيا نصيب ولا تجعلنا من المحرومين، واجعلنا على الطاعة ما حيننا وافتح علينا أبواب الخير بالعزة والتوبة والمغفرة حتى البقاء الدائم في الحياة الحيوان.

وعليه لكي يكون الإنسان من الوارثين وله نصيب في الدارين عليه بالآتي:

أولاً: الطاعة:

والطاعة تستوجب شيئين:

1 . إتباع ما أمر به: قال تعالى: الخليفة دائماً طائعا لله تعالى فيما أمر به، والطاعة عبادة يجب العمل بها مصداقا لقوله تعالى: {أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} 553، وقال تعالى: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} 554، وقال تعالى: {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} 555، وقال تعالى: {فَإِنْ لَمْ

⁵⁵³ آل عمران 62، 63.

⁵⁵⁴ الأنعام، 50، 51.

⁵⁵⁵ الأنعام 106، 107.

يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمَ أَنَّهَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ
هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {556}.

إتباع الأمر طاعة لمصدره، واعتراف بأنه يقع في دائرة الوجوب
والفرض، وللطاعة غايات قريبة وبعيدة منها:

أ . الغايات القريبة:

. نيل الرضا الآني.

. نيل الجزاء الآني.

. الإتيان بمستوجبات الإيمان.

. أخذ النصيب من الدنيا.

. الاستخلاف والوراثة في الأرض.

ب . الغايات البعيدة:

. نيل المغفرة.

. نيل التوبة.

. نيل الرضا الدائم.

. الفوز بالجنة والوراثة فيها.

2 . الانتهاء عما نهي عنه: وهذا الأمر يستوجب شيئين:

. تجنّب القول السوء. والسوء يؤدّي إلى الفتنة والفرقة التي تفرق بين

المرء وزوجه والأب وأبنائه والأخ وإخوته، والجار وجيرانه، والقول السوء

فيه بهتان وزور فيؤدّي إلى الغضب والصراع والصدام وقد يؤدّي إلى
الافتتال وكلّ ذلك يعد زريعة سوء، ممّا يتطلب اجتنابه، ولهذا من زرع
خيرا حصد خيرا، ومن زرع شرا حصد شرا. قال تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ
يَتَّبِعُهَا أَدَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ} 557، وقال تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا
لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ
طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ فَهَلْ
عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ} 558، قال تعالى: {قَالَ يَا نُوحُ
إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلِنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا
لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنُ مِنَ الْخَاسِرِينَ} 559، وقال
تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ
أُولَٰئِكَ كَانَ عِنْدَهُ مُسْتَوْلاً} 560، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ إِنَّ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ
الْكَبِيرُ} 561.

557 البقرة 262، 263.

558 محمد 20 - 23.

559 هود 46، 47.

560 الإسراء 36.

561 البروج 10، 11.

. تجنب فعل السوء: الفعل هو الذي يتم الإقدام عليه من عاقل، أي بعد تصميم وقرار، والفعل من المؤمن لا سوء فيه ومن غير المؤمن قد يلزم به السوء المسبب في الضرر، فالسرقة فعل سوء، والزنا فعل سوء، التآمر على الناس فعل سوء، وهكذا كل فعل ضلال فيه من أفعال السوء، قال تعالى: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلِّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا} 562، وقال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ} 563، وقال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} 564، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا

562 الإسرائ 37، 38.

563 فاطر 10.

564 . المائدة 77 . 81.

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقُوا وَأَمِنُوا ثُمَّ اتَّقُوا وَأَحْسِنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ {565.

وعليه فالخليفة هو الوارث بالإضافة وذلك بالإصلاح في الأرض قولاً
وعملاً وفعلاً وسلوكاً، ولذلك فمن عمل عملاً صالحاً فلنفسه قال تعالى:
{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ
لِّلْعَبِيدِ} {566، وقال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا
ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} {567.

ثانياً: الصدق:

الصدق قول حقّ وفعل حقّ، فمن تبعه كان من الوارثين، ومن لم يكن
على الهدى كان من الضالين، والصدق لا يحدث ولا يتم إلا بالتقرب لله
وطاعته فيما أمر، وتجنب ما نهى عنه، والأخذ بما أتى به الرسول
والانتهاء عما نهى عنه، قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا
نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ
الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا
وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ
مِنْ قَبْلِهِمْ يُجِبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا
وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} {568، وقال تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ
صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا وَقُلْ

565 المائدة 90 - 93.

566 فصلت 46.

567 الجاثية 15.

568 الحشر 7 - 9.

جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا {569، وقال تعالى:
 {وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَعَافِنِي
 لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا
 بُنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ {570.

الصدق هو المبرئ من الذنب والمرسخ للحق، وفاكك للظلم ونازع
 للغبن وقاهر الماكرين والمكيدين بغير حق، ولهذا جاء قول الله تعالى:
 {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا {571، ولهذا الحق
 يجب أن يقال ولو كان على النفس، ويقول الحق لا تكتم الشهادة،
 وبدونه تُخفى، قال تعالى: {وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمٌ
 قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ لِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا
 مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْفُورُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ
 يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {572.

ثالثا: العدل:

العدل ميزان وقسط به يتم الفصل بين المحتكمين، أو الشركاء
 والخطاء، ولذا فالعدل صفة من صفات الله في خلقه الوارثين في الدارين،
 قال تعالى: {إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً وَاِئْتِي نَعَجَةً وَاحِدَةً
 فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى
 نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ
 رَاكِعًا وَأَنَابَ فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ يَا دَاوُودُ

⁵⁶⁹ الإساءة 80، 81.

⁵⁷⁰ الشعراء 84 - 90.

⁵⁷¹ الإساءة 80، 81.

⁵⁷² البقرة 283، 284.

إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ
 فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ
 بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ {573، وقال تعالى: { وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ
 بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
 وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَمُ صِدْقًا لَهُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي
 مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَمُ صِدْقًا لَهُمْ
 لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ {574، وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ
 بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاتَّكَبُوا وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ
 كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ
 اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا
 أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ
 رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ
 تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا
 تَسَاءَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكَمُ أَفْسَظُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ
 لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُوهَا بَيْنَكُمْ
 فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا
 شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ
 شَيْءٍ عَلِيمٌ {575، وقال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ
 أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ
 إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ

573 ص 23 .26.

574 الأنعام 152، 153.

575 البقرة 282.

وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا {576}.

رابعاً: التبشير والتبليغ:

من مهام الخليفة المورث في الدار الدنيا والآخرة أن يبشر بما جاءه من الوارث المطلق على أيدي الرسل صلوات الله وسلامه عليهم. قال تعالى: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ {577}، وقال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ {578}، وقال تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {579}.

576 النساء 58، 59.

577 الزمر 17، 18.

578 المائدة 19 - 21.

579 البقرة 213.

التبشير فيه نقل رسالة من رسول مرسل، فمن تبعه اهتدى ومن لم يتبعه فقد ضل، والناس بين مهتدٍ وضالٍ وعالمٍ وجاهلٍ وصادقٍ وكاذبٍ تفرقوا، إلا المستخلفين يرثون الأمانة وهم طائعون لحملها ولحمليها.

والبشير هو الآتي بالخير الخير، الذي فيه بُشِرى يأتي عظيم مفرح، يأمله الناس الذين يتعلق الأمر بهم، وبهذا كان محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولا مبشرا بالخير للخير، وداعيا للحق وزاهقا للباطل وفاعلا وعاملا على الحق بالتي هي أحسن حيث لا إكراه في الدين بعد أن تبين الرشد من الغي. وهذه رسالة الخليفة وهي التبشير بالتي هي أحسن مصداقا لقوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} 580.

والتبليغ التزام بمهمة مع عدم التقصير في تبليغها، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} 581 وفي التبليغ مجاهرة بالحق مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} 582.

خامسا: الإنذار:

الإنذار فيه تفتين لشيء يستوجب الحيطة والحذر والاجتناب، وهذا الفعل لا يقوم به إلا رسول الله رب العالمين أو مصلح يجب الخير ويعمل

580 البقرة 256.

581 المائة 67.

582 المائة 68.

من أجله، وهو أيضا لا يتم إلا من مدرك وعالم يعلم ما هو كائن وما يمكن أن يكون وما هو في دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع). قال تعالى: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ} {583، وقال تعالى: {يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَنْذَرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} {584، وقال تعالى: {وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنِ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ} {585، وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ} {586.

وعليه فالإنذار رسالة بذاته يرشد لما هو صواب وخير، وفيه تحذير واضح من مخاطر تلم بمن لم يتعظ ويحتمل، والوارثون هم المعنيون بالبلاغ والإنذار، أما أولئك الذين يوجه الإنذار إليهم فهم لم يكونوا من الخلفاء بعد، ولكن بإمكانهم أن يصبحوا من المستخلفين فيها إذا ما استغفروا واجتنبوا كل فعل من الأفعال الآثام.

583 يونس 2.

584 ياسين 1 - 7.

585 الأحقاف، 21 - 23.

586 ص، 65 - 70.

سادسا: التحريض:

بالنسبة للمستخلفين الوارثين فإن في أفعال التحريض حث على الأعمال الحسان، أما غيرهم فيمكن أن يحرضوا على ما هو بغير الأفعال الحسان، ولهذا فالأعمال دائما بالنيات ولكل إنسان ما نوى مصداقا لقوله تعالى: {وَلِكُلِّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ وَرَبُّكَ الْعَنِيِّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ إِنْ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} 587. وقال تعالى: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا} 588.

إذا التحريض في قاموس المستخلفين في الأرض هو على كل فعل من أفعال الخير والأعمال الحسان، كالتحريض على الجهاد في سبيل الله، وطاعة الوالدين في غير معصية الله، وأداء الصلاة وإتاء الزكاة، وهكذا يكون الإخلاص في العمل مثل الإخلاص في أداء العبادات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإقدام على كل ما من شأنه أن يحقق فوزا للحق وهزيمة للباطل، وكل عمل يحول بين سيئة وفاعلها.

سابعا: مُدَكِّر:

لا تذكر إلا بأسباب الغفلة؛ ولأن الإنسان خلق على التمام ولم يخلق على الكمال، فهو من طبعة ينسى ويتذكر ويغفل ويتفكر، ولهذا

⁵⁸⁷ الأنعام 132 - 135.

⁵⁸⁸ النساء 84، 85.

فالذكرى نافعة لمن آمن مصداقا لقوله تعالى: {وَدَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} 589، وقال تعالى: {فَدَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ} 590، وقال تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَأَمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} 591. إذن الذكرى نافعة للإيقاظ من الغفلة والسهو والجهل، وترشد إلى ما هو أفضل وأجود وأحسن، وفيها أجران:

الأجر الأول: لمن أرشد إلى السبيل المستقيم.

والأجر الثاني: لمن استجاب واهتدى.

ثامننا: الإحسان:

الوارث المطلق جعل في الأرض وارث مستخلف، يرث الأرض والجنة بالعمل الصالح طاعة في مرضاة الله تعالى، ولهذا في الإحسان أفعال جميلة، وإتقان يستوجب الجزاء الأوفى، وذوق رفيع على موازين الحياة العادلة. قال تعالى: {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} 592، وقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ} 593، وقال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ

589 الذاريات 55.

590 العاشية 21 . 26.

591 الأنعام 68.

592 الرحمن 60، 61.

593 البقرة 83.

أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعْتَهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} 594.

وعليه فالإحسان من عمل الخليفة، وبه يورث في الأرض ويفوز بالجنة، ولهذا فالأعمال الحسان هي أعمال إحسان للصغير والكبير والذكر والأنثى والقريب والغريب، وهي من الأعمال الصالحة التي قال عنها الوارث: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} 595.

الإحسان عمل الخير لمن هم في حاجة إليه. إنه جهود تُبذل وإمكانات وخدمات تُقدَّم بأفعال طوعية تحقِّق الرضاء النفسي لمن تُقدَّم له (المحتاج أو القاصر) ولمن قام أو أقدم على أفعال تقديمها للمستحقين لها.

الإحسان عمل إنساني لا يقتصر على ذوي العلاقة بل يحتويهم ويمتد إلى آخرين، ولذلك تؤسس له الجمعيات الخيرية والمنظمات المحلية والدولية المؤسس الأساسي لهيئات الخدمة الاجتماعية

تاسعا: التصدق:

التصدق نتاج ملك وإحساس بحاجة الآخر، وعطاء بدون منة، ولذا فأجره كسب وفير، يجازى به المتصدق من عند الوارث مالك الملك، الذي من ملكه أعطى لمن يُعطي فيزيده عطاء. قال تعالى: {وَكَتَبْنَا

⁵⁹⁴ الأحقاف، 15، 16.

⁵⁹⁵ النحل 97.

عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ
بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ
لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ {596، وقال تعالى: {وَأَنْ
تَصَدَّقُوا حَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ
تُوَفَّى كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ {597.

عاشرا: التزكي:

الزكاة فرض على المالك القادر، وهي رحمة بين الناس، وهي الحق
المعلوم للسائل والمحروم، وهي الحق البين في الرزق الحلال. قال تعالى:
{وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ {598، وقال تعالى:
{وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى جَمَلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ
وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ
تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ {599، وقال تعالى:
{وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ
بُحْزَىٰ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ {600.

الحادي عشر: الاحترام:

الاحترام سيادة الشعور المفضل بين الأفراد والجماعات والمجتمعات،
ومن يناله يشار إليه بالمحترم، ولذا فالاحترام صفة أخلاقية مفضلة ومرغوبة
لدى الناس. وكلما سادت بينهم ساد التقدير والنظام والأدب في أقوالهم
وأفعالهم وسلوكياتهم.

⁵⁹⁶ المائدة، 45.

⁵⁹⁷ البقرة 280، 281.

⁵⁹⁸ المعارج، 24، 25.

⁵⁹⁹ فاطر 18.

⁶⁰⁰ الليل 17 - 21.

قال تعالى: {وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا} 601.

الاحترام شعور يتبادل بين الوارثين على أساس الاعتبار لكلّ منهم، ولذا فإن الاحترام قيمة إنسانية واجتماعية تتبادل على أساس من المودة مع مراعاة أسباب العلاقة التي تجمع بين المحترمين، والوارث إن لم تكن قيمة مؤسسة على الاحترام فلن يحترم الأرض والناس الذين يعيشون عليها، ولذا فبالإصلاح في الأرض تنال الأرض الاحترام، وبعدم سفك الدماء تحترم الخلائق التي تعيش فيها، وبالعدل بين الذين يتعلق الأمر بهم يكون الاحترام سيدا سائدا بين المستخلفين في الأرض.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَرْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا إِنْ تُبَدُوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} 602.

ثاني عشر: التقدير:

التقدير قيمة تتبادل بين الكبير والصغير والآباء والأبناء والراعي والرعية، قال تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا أَمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الدَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا

601 النساء 86.

602 الأحزاب 53، 54.

كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا وَأَتِ دَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا {603، وقال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَنْ يُعْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ هَذَا بَصَائِرٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ {604.

وعليه في التقدير تتعدد الأدوار وتتنوع من مجتمع لآخر، ومن ثقافة إلى أخرى باختلاف المعتقدات والأعراف، وفي مجملها تتكامل وتتمم بعضها البعض عندما تلتقي أطراف الحوار بمختلف حاجاتها وأساليب إشباعها، وهذه تجعل أطراف الحوار في مستويات غير متساوية إذا لم تُقدَّر أثناء الحوار ومن بعده أيضا فلن يكون للحوار أهمية، فمنطق الحوار يحسسك بأهميتك في الوجود، وأهمية إطارك المرجعي، وأهمية قضيتك قيد البحث والحوار، فعندما يتم الحوار المؤسس على المنطق، تجدد نفسك في حالة تقدير، ولهذا كلُّ النَّاسِ تسعى لنيل التقدير من الآخرين. تقدير الظروف بين المتحاورين أساسي، وإن لم تقدر الأطراف ظروف بعضها البعض، لا تتمكن من الاستيعاب الذي يؤدي إلى التفاهم.

603 الإسرائ 23 . 27.

604 الجاثية 18 . 22.

ثالث عشر: الاعتراف:

الاعتراف قيمة إثباتيه بوجود الآخر الذي له من الأهمية ما يساوي أهمية الآخرين، وهي القيمة الانتشارية التي يرغب الكلّ في نيلها من الكلّ، فهي تربط الفرد بالمنزلة، وتربط الخصوصية بالمكانة. ومع أنّ العبودية من محرمات الديمقراطية إلا أن الذي تجبره الحاجة بقبول العبودية، يريد هو الآخر أن يعترف له سيده بأنه عبد ناجح. ولذلك فإن جميع الناس يريدون نيل الاعتراف من الجميع. ولذا يحاول الوالدان أن يخلصا في رعاية أبنائهما، وذلك لكي ينالا منهم الاعتراف. ويحاول الأبناء أن يكونوا صالحين لكي ينالوا الاعتراف أولاً من آبائهم وثانياً من الآخرين. وهكذا المسؤول الديمقراطي يكد ويجد لكي ينال الاعتراف من ذوي العلاقة به. وفي مقابل ذلك نحتفظ بأن لكلّ قاعدة شدّ. قال تعالى: {وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} 605، وقال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} 606.

605 يوسف، 58 - 63.

606 الحجرات 10، 11.

ولذا فإنّ الاعتراف منطق التسليم بالحقيّة، وهو حاجة لكلّ إنسان على المستوى الفردي والجماعي والمجتمعي، ومن لم يتم الاعتراف بوجوده وبإمكاناته، وبقضيته، سيكافح حتى النصر، والنصر هنا تحقيق الاعتراف من قبل الآخر الذي كان يرفضه، ولهذا يرى كلّ من هيجل وفرنسيس فوكو ياما في أن رغبة الإنسان في نيل الاعتراف ككائن بشري له كرامته التي زجت به في فجر التاريخ في معركة دامية من أجل المنزلة وهي المطلب الذي ينبغي أن تتم تلبيته من الآخر. السيد دائما يود من العبد أن يعترف له بالسيادة، وذلك باعتباره عبدا في منزلة دنيا، وحتى الذي يرتضي العبودية نتيجة الحاجة، يود من سيده أن يعترف له بدوره المخلص في خدمته وخدمة أبنائه وحيواناته من بعده، فالاعتراف يزيد من درجة الإخلاص والتفاعل بين أطراف الحوار حتى ولو كان بين عبداً وسيده، وهكذا كلّ من يجد ويجتهد يود من ذوي العلاقة والآخرين أن يعترفوا له باجتهاده، وتفانيه في العمل والإنتاج، وأن يعترفوا بأنّه المنفوق على أقرانه الذين لم يتمكنوا من تحقيق النجاح الذي تمكن من تحقيقه، والأب الذي أشرف على تربيّة أبنائه بنجاح يود من المجتمع أن يعترف له بقدراته على تحقيق هذا النجاح، وأطراف الحوار هي الأخرى إذا لم يعترف كلّ طرف إلى الطرف الآخر بأنه ذو خصوصية تستوجب التقدير، يصبح كلّ طرف يسعى تجاه الآخر إلى أن ينال منه الاعتراف بقدراته وإمكاناته واستعداداته وثقافته التي تميزه عن غيره، وعندما يتم الاعتراف والتقدير يصبح التفاعل ميسرا عن ذي قبل بين أطراف الحوار. اعتراف الإسرائيليين بحقّ الفلسطينيين في إقامة دولة لهم على أرض آبائهم وأجدادهم فلسطين، جعل الفلسطينيين هم الآخرون يبادلون الإسرائيليين نفس الاعتراف بأن لهم الحقّ في إقامة دولتهم على نفس التراب الذي تواجدا عليه أبناء العمومة الأعداء، وجعل الطرفين يقبلون الجلوس المعلن على موائد حوار التقسيم الجغرافي للدولتين، وهذا الاعتراف جعل

الآخرين يعترفون بأنه الحل، ويدعمونه بالأساليب السياسية والاقتصادية، التي تتأثر بين الحين والحين بمخططات السياسة الدولية.

وعليه فإنّ المنطق الذي يؤدي إلى نشوب الحرب أو الصدام والاختلاف أو الاتحاد أو الانفصال، هو في معظمه لأجل نيل الاعتراف. كبسولة تنشيط الجهاز التناسلي عند الرجال (ألفياجرا) التي صُنعت لتمكين الذكور من ممارسة الجنس الذي فقده نتيجة ضعف وعدم مقدرة، أصبحت هذه الكبسولة في معظم الأحيان تؤخذ لأجل الاعتراف بالمقدرة والتفاخر بإثبات الرجولة وليس بالذكورة فقط. الاعتراف مطلب وسيظل إلى أن يتم الحصول عليه بإرادة.

رابع عشر: الاعتبار:

الاعتبار قيمة معرفية تربط الوجود بالمكانة، كما يرتبط التاريخ بالعبر. النظر فيها لا يُغض بين الأنا والآخر، في قاموسها الاجتماعي لا مكانة للاستهانة التي تُفَرِّق بين المرء وزوجه. ونتيجة لقيمة الاعتبار وتقديرها، لا يُعَيَّب أنا آخر، ولا يسعى لتجاهله في كلّ أمر يتعلق بهما، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا. من خلال حقوق تمارس وواجبات تؤدي ومسؤوليات يتم تحملها.

الاعتبار مكانة تُعطى لمن يستحقّها من الأفراد والجماعات والمجتمعات، ولذا لا يتم الإغفال أو غض النظر عن من هو ذو مكانة اجتماعية أو علمية أو نفسية أو أخلاقية. فالمكانة يُلتفت إليها وهي لا تُخفى أبدا، ولذا فهي تُقدَّر. والقاعدة تقول اعتبرني أعتبرك وإذا تجاهلت وجودي أتجاهل وجودك.

قال تعالى: { وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي

أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ {607، وقال تعالى: {كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوحَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا قَالُوا أَنْزَمْنَاهُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ {608.

الاعتبار هو الذي يجعل طرفي الحوار في حالة مساواة، وأن كلٍّ منهما في حاجة للآخر، وأنهما لن يكونا مثالا ما لم يعملوا معا، وأن لكليهما طاقات وإمكانات لا يمكن الاستهانة بها، ولذا في حالة الاختلاف والفرقة قد يضر كلٌّ منهما بالآخر، ولكي تعم المنفعة ويزول الضرر يجب أن يتم الحوار المحقق للاعتبار. {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ {609. والكلمة سواء هنا تعني كلمة الحق التي نستوي أمامها بالطاعة باعتبار المتحاورين أو المستهدفين بالحوار هم الإبراهيميين. إذن الاعتبار أن تجعل لي مكانة عندك ونجعل لك مكانة عندي، وألا يستهين بعضنا ببعض أو يسخر منه.

⁶⁰⁷ هود 78 . 81.

⁶⁰⁸ الشعراء 105 . 111.

⁶⁰⁹ آل عمران، 65.

خامس عشر: الأخذ بما جاء به الرسول:

الرُّسُلُ صلوات الله عليهم هم الخلفاء الأوائل بالإضافة، وهم الوارثون في الدارين، وهم الذين وجب إتباعهم وطاعتهم من قبل المستخلفين من بعدهم. قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } 610، وقال تعالى: { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } 611، وقال تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } 612.

سادس عشر: لا فرق بين رُسله:

الرُّسُلُ صلوات الله عليهم جميعا مبعوثون بقيم وقواعد الاستخلاف في الأرض، ومن يؤمن بها كما نزلت سيكون من المستخلفين بالاختيار الإرادي. ولذلك فإن الاستخلاف في الأرض مؤسس على قاعدتين:

القاعدة الأولى: استخلاف الرُّسُل: استخلافهم صلوات الله وسلامه عليهم ليس بالاختيار الإرادي بل هو اصطفاء من عند الله وذلك لمعطيات لا يعلمها إلا هو ، أي أن اشتراطات كثيرة لا تكون إلا في القلة الصالحة المؤمنة التي عبر الزمن تظهر ويتم تكليف من يكون على رأسها إصلاحا وتقوى نبيا أو رسولا لله تعالى. قال تعالى: { يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى

610 النساء 59.

611 الحشر 7.

612 النساء 64، 65.

فَيُضِلُّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ
بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ {613، وقال تعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ
رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ
قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ
وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي
الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً
قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ
بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ
وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ
الرَّاكِعِينَ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُتْلُونَ
أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِذْ قَالَتِ
الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ
وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ الْمُقَرَّبِينَ {614.

وقال تعالى: {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي
وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ
الْأَخْيَارِ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ
لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنَ مَآبٍ {615.

ولذلك فالمسلمون لا يفرقون بين أحد من رسله فمثل عيسى كمثل
أبينا آدم الذي اصطفاه الله على من خلق ملائكة وجان وعلمه الأسماء
جميعها قال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ

613 ص 26.

614 آل عمران 38 - 45.

615 ص 45 - 49.

ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ {616}. ولهذا فالمسافة بين محمد وآدم هي المسافة بين آدم وعيسى صلوات وسلامه عليهم، ولذلك لا يجب أن نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، قال تعالى: {أَمَرَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} {617}.

قال تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {618}، وقال تعالى: {أَمَرَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} {619}، وقال تعالى: {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ

⁶¹⁶ آل عمران 59، 60.

⁶¹⁷ البقرة 285.

⁶¹⁸ البقرة 136، 137.

⁶¹⁹ البقرة 285..

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ {620}.

القاعدة الثانية: استخلاف المؤمنين: ولأنّ الوارث خلق الإنسان في
أحسن تقويم، فهو خلقه لرسالة، ولأن له رسالة أستخلف بها في الأرض،
ليُصلح فيها ولا يفسد ويسفك الدماء بغير حق، ولهذا فإن الله أصطفى
الرسول صلوات الله وسلامه عليهم برسالات الإصلاح المؤسسة على
قاعدة إصلاح الأرض التي استوجبت مخلوقاً في أحسن تقويم، وبما أنه لا
رسول إلا برسالة، إذن لا استخلاف بالقوّة إلا بها، وهكذا الاستخلاف
من بعدهم لا يكون إلا برسالة، ولأن رسالة محمد صلوات الله وسلامه
عليه هي الرسالة الخاتمة، إذن لا خليفة إلا ويكون على الرسالة، ولهذا
فمن أسلم وجهه لله كان خليفة، ومن لم يسلم فقد فقد شرطاً رئيساً
للاستخلاف وهو الرسالة.

وعليه بالرسالة كان استخلاف الرسل الكرام صلوات الله وسلامه
عليهم، وعلى الرسالة الخاتمة يكون الاستخلاف. قال تعالى: {وَهُوَ
الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ
فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ {621}، وقال
تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ
اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ {622}. إذن القاعدة مؤسسة على ما (آتاكم) والذي
أوتينا به هو الرسالة المحمّولة في الكتاب المحفوظ، فمن تبعها فقد اهتدى
السبيل إلى الاستخلاف والوراثة ومن ضلّ ضلّ. وفي هذا الأمر قال
تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ كُنْتُمْ

620 آل عمران 84 - 89.

621 الأنعام 165.

622 الحشر 7.

خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ مُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَلَوْ أَمَرَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ
الْفَاسِقُونَ} {623، الأمة المشار إليها في الآيتين السابقتين هي الأمة
المستخلفة برسالتها، ولكن من ضل منها فلا يعد من المستخلفين.

سابع عشر: أخذ النصيب من الدنيا:

بما أننا خلقنا فيها فلا بدّ من نصيب منها، وإلا لماذا الاستخلاف فيها
لو لم يكن لنا فيها نصيب لناأخذه؟ ولأنّ النصيب حقّ، والحقّ يؤخذ
بالعافية أو غيرها، إذن لا مفر من أن يأخذ المخلوق نصيبه ممّا خلق الله
له في هذه الحياة الدنيا، وأخذ النصيب يعني بطبيعة الحال عدم أخذ ما
ليس بنصيب، ولأنّ الإنسان مستخلف على قاعدة أخذ الحقوق وأداء
الواجبات إذن أخذ الحقوق هو أخذ النصيب. أمّا أولئك الذين يمدون
أياديهم إلى ما ليس لهم فيه حقّ، فإن أمرهم أمر معصية للطاعة بأخذ
النصيب. أي أنهم خالفوا قاعدة الاستخلاف والوراثة في الأرض التي
تأسست الحياة فيها على القواعد التالية:

القاعدة الأولى: الحقوق تؤخذ وتمارس.

والقاعدة الثانية: الواجبات تؤدّي في مقابل حقوق تؤخذ.

والقاعدة الثالثة: المسؤوليات تمارس في مقابل ممارسة الحقوق وأداء
الواجبات.

قال تعالى: {وَلَا تَتَسَنَّسْ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ
إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} {624.

623 آل عمران 109، 110.

624 القصص 77.

فقوله تعالى: (وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) تعني: خذ حقوقك منها، والحقوق دائما مكفولة لكل من خلق حتى ولو لم يكن إنسانا، ولهذا جعل الله لكل مخلوق نصيب في الدنيا، فتبارك الله أحسن الخالقين.

والنصيب كحق بمقدار الحاجة، من مأكلاً ومشرباً وجنس وملبس، وصلاحيات واختصاصات وفقاً للرسالة المشرعة لذلك، ولهذا فلا تنس نصيبك من الدنيا، ومن ينس نصيبه يعد مخالفاً لما أمر الله به وهو (خذ) أي قوله لا تنس نصيبك بمعنى (خذه) من الدنيا.

قال تعالى: {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} {625}، طاعة الرسول في هذه الآيات الكريمة جاءت لأخذ النصيب من الفياء، ولهذا ما يؤتى من الرسول يؤخذ، وهو الحق الذي اعتبرناه نصيب لا ينبغي أن يُنسى أو لا يؤخذ من الدنيا.

وأخذ النصيب فرض من لا يأخذه يعد تخلى عن نصيب له مفروض من عند الله، وبذلك فمن الطاعة التامة أن يأخذ الوارث حقه مما وُورث فيه، لكي يكون من المستخلفين الأخيرين. قال تعالى: {لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا} {626}، فكلّمتا: (نصيباً مفروضاً) تعني: نصيباً مقرراً من عند الله، ولأنه الحق المقرر من الحق المطلق، إذن أدأؤه وأخذه فرض لا ينبغي الإغفال عنه، ومن تركه ترك فرضاً.

625 الحشر 7.

626 النساء 7.

ولأنّ الله تعالى خلقنا في أحسن تقويم، وهو يريدنا أن نكون المستخلفين في الأرض والوارثين فيها وفي الجنّة، فهو بهذا المعنى لا يود أن تكون حياتنا مقصورة على الحياة الدنيا، فجعلنا الوارثين في الدارين، ولذا فلا ينبغي أن يقبل الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم بالحياة الدنيا فقط، وإن قبل بذلك فلا يكون من الوارثين في الجنّة، ولهذا أعمل لأخرك كأنك تموت غدا وأعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، وعليه قال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ} 627. ولأنه لا جنة إلا بعد الحياة الدنيا، وأن الحياة الدنيا فانية، والحياة الآخرة هي الحياة الحيوان، وأنه لا دخول للجنة إلا برسالة أو على رسالة وعمل صالح في الحياة الدنيا، لذا فلا يجب أن تنسى نصيبك من الدنيا، لتكون من الوارثين في الجنّة، ومن نسي نصيبه منها فلن يكون له في الجنّة من نصيب.

ثامن عشر: الفوز بالجنّة:

الفوز بالجنّة مشروط بالقول اللين الذي يُصلح ما بين المرء وزوجه، وبه يعدل بين المحتكمين بالحقّ، ولا يشهد به شهادة زورا، ولا يلوك كذبا بين الشفتين، ولا ينطق كفرا وشركا وبهتانا ذلك الحقّ من ربّك، وإلى جانب القول الحقّ، الفعل الحقّ فلا يسرق ولا يزنا ولا يأكل أموال الناس بالباطل، ولا يسفك في الأرض دما بغير حقّ، ولا يخمر مع الخمارين، ولا يأكل ما حرم، وأن يصلي لله تعالى واحد أحد لا شريك له، وأن يكون مؤمنا بمن أرسل وبما أنزل.

627 الشورى 20.

قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} {628، وقال تعالى: {كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} {629، وقال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَبِيًّا} {630، وقال تعالى: {لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنَّ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} {631، وقال تعالى: {وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَهْلُؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ هُؤُلَاءِ وَلَعِبًا وَعَرَاهُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} {632.

628 البقرة 82.

629 آل عمران 185.

630 النساء 124.

631 الأعراف 43.

632 الأعراف 44 - 51.

اللهم يا الوارث اجعلنا من الوارثين المستخلفين الفائزين في الدارين ولا تجعلنا من المحرومين والمغضوب عليهم ولا تجعلنا من المعدّبين، اللهم اجعلنا من الذين ملكوا الشهادة لك بالوحدانية وهم طائعين لما جاء به رسولك الكريم وبه مبشرين ومنذرين ومحرضين وفاتحين كلّ سبيل من أجل السلام، اللهم يا الوارث اجعلنا من العالمين ولا تجعل أبنائنا من الجاهلين، اللهم اجعلهم وارثين للحجّة التي بها يحقّ الحقّ ويزهق الباطل، ومالكين للحكمة التي بها تصلح أحوالهم وفيها ما يحقّق لهم طموحاتهم وأمّالهم في طاعتك لا في معصيتك، اللهم اجعلهم الوارثين للعلم الذي ينفع والعمل الذي يرفع والقلب الذي يخشع والعين التي تدمع والدعوة التي يستجاب لها والحجّة التي يُنْسَأُ إليها، اللهم أورثنا من ميراث النبوة العلم والنور وشفاء الصدور والابدان، واجعلنا في الآخرة من ورثة جنة النعيم مع الأنبياء والصدّيقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا، وصلى الله وسلّم على سيدنا محمّد خاتم الأنبياء والمرسلين.

5. إسحاق مبارك عليه:

قال الله سبحانه وتعالى في صفة من صفات إبراهيم وبنيه وقد خصّ إسحاق بالذكر صلى الله عليهم وسلّم أجمعين: {وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمَنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ} 633.

فالله سبحانه وتعالى أعطاه البركة من الخير ر في الدنيا والآخرة، وقد جاء تعريف البركة في لسان العرب "برك البركة النماء والزيادة والتبريك الدعاء للإنسان أو غيره بالبركة يقال بركت عليه تبريكا أي قلت له بارك الله عليك وبارك الله الشيء وبارك فيه وعليه وضع فيه البركة وطعام بريك كأنه مبارك وقال الفراء في قوله رحمة الله وبركاته عليكم قال البركات السعادة قال أبو منصور وكذلك قوله في التشهد السلام عليك أيها النبي

ورحمة الله وبركاته لأنّ من أسعده الله بما أسعد به النبي فقد نال السعادة المباركة الدائمة وفي حديث الصّلاة على النبي وبارك على محمّد وعلى آل محمّد أي أثبت له وأدم ما أعطيته من التشريف والكرامة"634.

وإنّ الله تبارك وتعالى، بارك على إسحاق وجعله ذا بركة، والبركة زيادة الخير في مختلف وجوهه، وقد جعلت البركة فيه يجعل الله تعالى، إذ قدر أن يكون مباركا ومثابا ومحصلا على خير فيما كلفه الله به من النبوة، والمبارك من الله تعالى، تتعدى بركته إلى من حوله ومن جاوره أو جلس معه.

إنّ البركة والمبارك عند الله بمكان، لما يجمع المبارك من خصال الخير والفضائل، ومن هنا فقد وصف الله تعالى القرآن الكريم بهذا الوصف حيث قال تعالى: { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ }635.

فمن نعمة هذا الوصف أو من يتصف بها، أنّ المتصف بالبركة، تفيض صفته على الآخرين، ولذا فالقرآن الكريم من البركة أنّ الذي ينظر في المصحف له أجر النظر من بركة القرآن الكريم.

وإسحاق لما كان مباركا عليه من الله تعالى، فالبركة تغمره في جميع أحواله وأعماله لأن المبارك من باركه الله:

. حيث جعله ذا بركة.

. بارك فيه جعل البركة معه.

634 - لسان العرب، ج 10، ص 395

635 - الأنعام 92

والبركة هي الخير واليمن، وأي بركة أعظم من النبوة التي بارك الله بها على إسحاق وجعله رحمة للناس يدعوهم إلى التوحيد والفضائل ومكارم الأخلاق.

ثم إن الذي تحلّ البركة فيه من الله سبحانه وتعالى تكون بركته لغيره عظيمة، فقد قال الله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ} 636.

لقد وصف الله تعالى البيت الحرام بأنه مبارك، فمن بركته وشرفه أن جعله الله تعالى قبلة للمسلمين ومتعبدا للناس، وأودع الله سبحانه وتعالى البركة فيه، وهو مكان هداية الناس بالحج والاتباع إليه في الصلاة.

ومن بركته أن جعل الله حلول الناس فيه سببا للتوبة والمغفرة، ولهذا إذا نزل إنسان يحمل وزن الدنيا من الخطايا وتاب إلى الله تعالى، عاد كيوم ولدته أمه وانفتح قلبه للإيمان والحكمة بما ينعكس عليه من بركته.

والبركة للإنسان أو المكان إذا جعلها الله له تكون:

. بركة عليه.

. وبركة فيه.

. وبركة له.

. وبركة حوله.

والبركة كثرة الخير ونماؤه طالما أنه باركه الله، قال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} 637.

فالبركة من الله تعالى هي الخير والنماء في الأمور كلّها، ولكن الوصف
بها له متعلقات من المعاني التي تؤدّي غرضها منها:

. المبارك: إنّما يتعلق به ما كانت البركة حاصلة منه للغير في زمانه أو
مكانه، قال تعالى: { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو
الْأَلْبَابِ } 638.

. وأمّا باركه: فيتعلق به ما كانت البركة صفة له قال تعالى: { إِنَّ أَوَّلَ
بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ } 639.

. بارك عليه: من جعل البركة متمكنة منه، قال تعالى: { وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ
وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ } 640.

إنّ إسحاق الله تعالى عليه وعلى أبيه إبراهيم صلى الله عليهما وسلّم.
وعليه:

فالمبارك هو المعزّ من المعزّ الأعظم، وهنا ينبغي أن نظهر فضائل المعزّ
على المعزّ وهو المراد له أن يكون خليفة في الأرض وهذا ما ينطبق على
النبي إسحاق عليه الصلّاة والسّلام، ويقول مشرف الحمداني الغامدي
بالتمام كما جاء في لسان العرب: "العز خلاف الذل ويقال عزه على
أمر يعزه إذا غلبه عليه والعزّة القوّة والغلبة" 641.

وقال البيهقي: "المعز هو الميسر لأسباب المنعة" 642.

637 - النمل 8

638 - ص 29

639 - آل عمران 96

640 - الصافات 113

641 منهج الإمام ابن القيم في شرح أسماء الله الحسنى. مرجع سابق، ص 429.

642 المرجع السابق، ص 430.

المعز هو المحب، والمعزة لا تبني إلا على علاقة متصلة ورضا ومحبة.

وفي هذا الشأن يقول الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } 643. فالذي يجعل الخلفاء لا يخافون لومة لائم هو مصدر العزة الذي يسندهم ويحمي ظهورهم فيحفزهم على الإقدام دون تردد من أجل قول الحق وفعل الحق وعمل الحق.

ولذا فالمعز هو مصدر العز الذي منه العزة تُستمد، وهو الذي يعز جند الحق بالآتي:

أولا . عزة النية: النية تكمن في الضمير، مثلما تكمن الفكرة في العقل، ومثلما تكمن النبتة والشجرة في البذرة والنواة، ومثلما يكمن صفاء الزيت في نقاء حبة الزيتون، كذلك تكمن العزة في صفاء النية.

ولذا فبالنية تُعزز الأقوال والأعمال والأفعال والسلوكيات، فلا قول بدون فكرة سابقة عليه، ولا عمل إلا ومن ورائه غاية، ولا فعل إلا والتصميم دافعه، ولا سلوك إلا بقوة الحركة.

ولهذا تؤسس العبادات جميعها على النية، أي أنّ النية هي المعزة للصوم فبدونها يصبح الصوم امتناع عن الأكل أو إضراب عنه، وبدونها تصبح فريضة الحج حركة جماعية أو تظاهرة بشرية استعراضية ليس إلا. وبدون النية قد توصف الصلاة بأنها حركة أو مران رياضي أو ما شابه ذلك، وأيضا قد توصف الزكاة بدون نية بأنها صدقة أو تبرعات مادية.

وعليه فإنّ النية هي المعززة للقول الهادف والفعل الهادف والعمل والسلوك الهادفين؛ ولتبيان ذلك علينا باستعراضها وفقا لدائرة الممكن (المتوقّع وغير المتوقّع) حتى نستبين الحقّ من الباطل:

ثانيا . عزة القول: القول في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع يُمكن أن يكون حجّة لنا ويُمكن أن يكون حجّة علينا، فعندما يكون حجّة لنا يُعزز مواقفنا بدون تردد، وعندما يكون حجّة علينا يُضعفها ويعزز مواقف آخرين.

ولذا فالخليفة دائما تكون الحجّة له ولا تكون عليه، وذلك لأنه لا يقول إلا الحقّ وليس له نية وغاية غير إحقاقه. فعزة القول لا تتحقّق إلا بالبيّنة التي تُظهر الحقّ وتزهق الباطل، ولذلك لا إظهار للحقّ ولا إزهاق للباطل إلا بالقوّة الظاهرة في القول بالبيّنة.

ثالثا . عزة الفعل: لا يُمكن أن يكون للفعل عزة تسنده إن لم تكن من ورائه نية. ولا يمكن أن يكون للنية قوة إن لم يكن من ورائها حقّ يسندها مصداقا لقوله تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} 644. وقوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} 645. وعليه لا عزة للفعل إلا بتحقيقه.

قال تعالى: {رَبِّ اللَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} 646. بالحكم بين الناس تترسخ العزة بين الحكم والأطراف

644 الأنبياء، 18.

645 ياسين، 82.

646 النساء، 58.

المتعددة التي يكون فيها للظالم أو المفسد دورا، وللمظلوم أو المصلح دورا، وللحاكم بينهم بالعدل دورا وفقا للآتي:

1 . بالنسبة للظالم أو المفسد: يتعزّز موقفه بالتخلي عن مظالمه أو إفساده في الأرض بعد أن يتبين من الحاكم العادل أنه على باطل وأن الباطل لا يُرضي الخالق ولا المخلوق، وأنّ من يقترف ظلما أو فسادا في الأرض فسينال العقاب في الدارين. وأنّ من يستغفر ربّه ويكفّر عن أخطائه ومظالمه وسيئاته التي كان يقترفها فإن رحمة الله عزّ وجلّ واسعة وأبوابها مفتوحة أمام من يستغفر ويتوب ولا يُشرك بعبادة ربّه أحدا.

2 . بالنسبة للمظلوم أو المصلح: تتعزّز موقفه بإعادة الحقّ إليه، أو بتبيين الحاكم أنه على الحقّ وأن الآخر الذي اتهمه أو خالفه هو على باطل مما يجعل رأي الحاكم مناصرا ومنصفا للحقّ الذي به آمن الخليفة؛ وهذا الإنصاف يجعل المصلح يزداد تمسكا بأفعال الخير التي لا تتحقّق إلا بالبيّنة والنية الصادقة. قال تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} 647.

3 . بالنسبة للحاكم بالعدل: يتعزّز موقفه بإرضاء ضميره، وإرضاء المحكوم بينهم بالحقّ، مصداقا لقوله تعالى: {وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه} 648. وفي ذلك يقول الدكتور محمّد راتب النابلسي: "الله معزّ إذا طبقت شرعه، ومعزّ إذا استغثت به عن سواه" 649.

647 الأعراف، 44.

648 البقرة، 213.

649 محمد راتب النابلسي، موسوعة أسماء الله الحسنى. مرجع سابق، ص 329.

4 . بالنسبة للحكم: الحكم العادل يُسند بالحاكم والمحكوم بينهم بالعدل وبإظهاره وانتشاره بين الناس حقيقة ماثلة من خلال حقوق تمارس وواجبات تؤدي ومسؤوليات يتم حملها.

رابعا . عزة العمل: العمل في دائرة الممكن يمكن أن يكون سالبا، ويمكن أن يكون موجبا، فإن كان إصلاحا في الأرض كان موجبا، وإن كان إفسادا فيها، كان سالبا، وبذلك يكون الجزاء هو المترتب على الفعل بالثواب إيجابيا وبالعقاب سلبيا. وفي ذلك يقول الله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} {650}. ويقول تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} {651}.

وعليه عزة العمل تتحقق من خلال الآتي:

1 . ممارسة الحقوق:

قال تعالى: {وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} {652} وقوله تعالى: {وَإِنَّا لَمَوْفُوهُم نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ} {653}. وقال تعالى:

⁶⁵⁰ فصلت، 46.

⁶⁵¹ النور، 55.

⁶⁵² القصص، 77.

⁶⁵³ هود، 109.

{وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيْبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا} 654.

الحقوق تؤخذ بإرادة أو تنتزع بالقوة، ولأنها تؤخذ، فهذا يعني أن الحواس هي التي يتم بها التعرف على الحقوق، ويتم بها أيضا إشباعها، ولذلك تؤخذ الحقوق عن طريق الحواس، فعندما تكون المشاهدة حقًا فلا ينبغي لأحد أن يحرم آخرًا منها، وإذا كانت الملاحظة حقًا فلا ينبغي لأحد أن يحرم آخرًا منها، وهكذا عندما يكون الاستماع والذوق واللمس والتفكير والتعليم والعمل حقًا فلا ينبغي لأحد أن يحرم آخر منها، ولأنها حقوق ينبغي أن تُمارس بإرادة. وهكذا فالحقوق تُسلم فتُستلم عندما تكون في متناول الاثنين أو الأكثر.

والنظام الديمقراطي هو النظام الذي لا تقع فيه الحقوق في خانة المطالب، فإذا كانت في خانة المطالب فإن ذلك يعني أن هناك قيودًا تحول بين الطالب والمطلب (بين الحاجة ومشبعاتها).

ولذا فالحقوق ينبغي ألا تكون مطالبًا، بل ينبغي أن تكون إشباعًا تؤخذ بإرادة وفقًا للحاجة، فالسلطة حق والثروة حق لا ينبغي أن تُحتكر من أحد، ولا ينبغي أن تكون منة من أحد.

ولا يمكن أن تؤخذ الحقوق أو تمارس ما لم تتوفر اشتراطاتها الرئيسية وهي:

أ . الرغبة: القوة العقلية الموجهة لهدفٍ محدد أو موضوع بعينه، وإحساس نفسي تجاه الآخر وشعور بالميل إليه، وهذا ما يجعل روح التجاذب تُحرّض على المتابعة والاقتراب ممن تتوفر فيه اشتراطات الإشباع المرضي.

ب . الإرادة: تُعد الإرادة نشاطا عقليا على درجة عالية من الوعي يتمكن من خلالها الفرد من اتخاذ القرار بحرية ويتمكن من خلالها من الإقدام على الفعل وفي ذات الوقت يمتلك صاحب الإرادة المقدرة على الفعل والسلوك.

ج . الطلب: نظرا للإحساس بالحاجة والتعرف على بواعث إشباعاتها تصبح المطالبة بالمشبع كحق لا يمكن التخلي عنه ولا يهدأ البال ولا تطمئن النفس إلا بأخذ ما يشبع ويحقق الرضا.

الحقوق كما ورد في لسان العرب المحيط هي "جمع حق وهي نقيض الباطل". والحق كأحد أضلاع المثلث متساوي الأضلاع المتكون من (الحقوق والواجبات والمسؤوليات) يرتبط بعلاقات مع أي ضلع يشترك معه في الزاوية، ولذلك عندما يشترك مع الضلع (أ ج) في الزاوية (ب أ ج) تصبح هذه الزاوية مكونا علائقيا بين ضلعي الحقوق والواجبات، وهذا الالتقاء بين الضلعين يجعل في الحق واجبا مصداقا لقوله تعالى: {وَلَكِنَّ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} 655؛ فحقت هنا بمعنى وجبت كلمة العذاب على الكافرين، وهذا يعني أن كلمة (وجبت) تعني في مضمونها كلمة حقت. وكذلك في لسان العرب: "حق يحق حقا تعني وجب يجب وجوبا". وهذا الأمر يؤكد وضوح العلاقة بين الحقوق والواجبات من خلال الزاوية (ب أ ج) المحصورة بين ضلعيهما وفي ذات الوقت يبين الخصوصية لكل منهما عندما يخضع كل ضلع للدراسة المتخصصة.

2 . أداء الواجبات:

وبما أن الحقوق تؤخذ وتُستلم فإنّ الواجبات تؤدّى في مقابل الاستلام والأخذ، وأداء الواجبات هو الذي يجعل الذات الفردية أو الجماعية والمجتمعية في حالة الإيجاب، أمّا اقتصار الفرد أو الجماعة والمجتمع على أخذ الحقوق فقط فإن ذلك يجعل المستلم طرفاً سالباً، والذي يغيّره إلى حالة الإيجاب هو أدائه الواجبات، ولهذا من الواجب أن تعمل وتفعل وتسلك في مقابل ما أخذت، وهذا لا يعني أن الحقوق والواجبات هما كفتا الميزان في مكوّن ممارسة الديمقراطية، بل هناك شيء آخر من مكوناتها ألا وهو المسؤولية، التي تتضح في الزاوية (أ ج ب) عند تلاقي ضلع الواجبات (أ ب) مع ضلع المسؤوليات (ب ج) في المثلث متساوي الأضلاع المتكون من (الحقوق والواجبات والمسؤوليات) وهذا التلاقي العلائقي هو الذي جعل في أداء الواجب مسؤولية، ولذلك ورد في الموسوعة الفلسفية العربيّة بأنّه لا واجب إلا بالإضافة إلى التزام ومسؤولية. ولذا لا يمكن أن يؤدّى الواجب بنجاح إلا وتحمل المسؤولية جزء من أدائه، وهكذا حال المسؤولية هي الأخرى لا تؤدّى بنجاح إلا والواجب يصاحبها، وهذه نتاج التداخل العلائقي الذي يُعبر عنه بدقة في العلوم الهندسية ممّا جعل لزوايا المثلث قيم يستدل بها أو يستدل عليها.

والعلائق في مجملها هي نتيجة وجود الأنا أو الذات والآخر اللذين عندما يلتقيان لابدّ أن يحدث الحوار بينهما ممّا يؤدّي إلى القبول والتقارب والتفاعل أو يؤدّي إلى الرفض والابتعاد والفرقة أو الانسحاب، وفي حالة القبول والتفاعل الذاتي تتكوّن العلاقات كما هو الحال بين أضلاع مثلث ممارسة الديمقراطية المتساوي الأضلاع، وعندما تتكوّن العلاقات يترتب على ذلك بالضرورة أخذٌ كما هو مبين في الحقوق، وعطاء كما هو الحال في الواجبات، وهذا يعني أنّ العلاقة بين المسؤوليات والحقوق

والواجبات هي علاقة قرار وأخذ وعطاء، أي في اتخاذ القرار مسؤولية وفي الأخذ حقوق، وفي العطاء واجبات، وعليه لا يمكن أن يتم الأخذ والعطاء عن وعي إلا والمسؤولية في ذلك سابقة عليهما، ولو أخذنا وليّ الأمر على سبيل المثال: نجد أنه مسؤول عن أفراد أسرته وفي الوقت ذاته لهم عليه واجبات ينبغي أن يؤدّيها تجاههم، وما يعد واجبات على وليّ الأمر تجاه الأسرة يُعد حقوقاً بالنسبة لهم، وهكذا في حالة التبادل يظل لوليّ الأمر حقوق ينبغي أن يأخذها أو يطلبها وفي ذات الوقت تعد واجبا على أفراد الأسرة أداؤها، ولذلك فالحقوق والواجبات والمسؤوليات الذاتية يتم بعضها بعضا كما تتم أضلاع المثلث المتساوي الأضلاع بعضها بعضا.

ولكي تؤدّي الواجبات بإرادة ينبغي أن تتوفر اشتراطاتها وهي:

أ. الاعتراف: يدل الاعتراف على تفهّم الموضوع والتعرّف من خلاله على ما يجب وما لا يجب، ثمّ التمسك بما يجب والامتناع عما لا يجب، ولذا فالاعتراف بالواجبات عن وعي يؤدّي إلى التمسك بها عن إرادة.

ب. القدرة: إنّ امتلاك المقدرة العقلية والمعرفية والاعتراف بوجوبية الأداء قد لا يفيد دائما ما لم تتوفر إلى جانبها المقدرة البدنية والمقدرة المادية الداعمة للتنفيذ، ولذا فالقدرة طاقة كامنة تتحفز للظهور بعد تهيؤ.

ج. الإقدام: يعد الإقدام مرحلة ما بعد التهيؤ حيث الإقبال على أداء السلوك المحقّق للفعل، ولا يمكن أن يتم الفعل الإقبالي المؤدّي للواجبات إلا برغبة وإرادة.

3. حمل المسؤوليات:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ

فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ {656}. وقال تعالى: {لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْتَوْلاً} {657}.

من خلال ما عرضناه من ممارسة للحقوق وأداء للواجبات نلاحظ علاقة قوية وتداخلا معرفيا في العلاقة بين الحقوق والواجبات والمسؤوليات، المتعلقة بتحقيق الذات المتوازنة، وعرفنا أن الحقوق يترتب عليها مطلب أو أخذ، وعرفنا أن الواجبات يترتب عليها أداء أو عطاء، وهذه تستوجب حماية أو حراسة تكون لها سندا يبعد عنها المخاطر، وإن لم يتوفر ذلك تصبح الحقوق والواجبات كما يقولون في مهب الريح، ولذا تصبح المسؤولية هي الضرورة التي تحقق الحماية أو الحراسة، فالحارس أو الجندي الذي يحرس الحاكم أو المصنع لو لم يكن مسؤولا لا يمكن أن يؤتمن جانبه، وهكذا حال الطبيب إن لم يكن مسؤولا، لا يمكن أن يؤدي واجبه بأمانة، فالواجب بلا مسؤولية لا يمكن أن يؤدي بأمانة، وهكذا حال الحقوق إذا لم تؤخذ بمسؤولية لا يمكن أن تؤخذ بأمانة.

ولذا تكمن المسؤولية في تحمُّل المخاطر أو المتاعب المترتبة على أداء الفعل سواء كان حقا أو واجبا، ولهذا فهي عبء يستوجب التَّحْمُل، ولأنها كذلك فهي عملية عقلية تُبنى على معطيات أو مسلمات تستوجب التحليل وإجراء الحسابات الذهنية، وتستوجب التفسير والتمييز بين الخطأ والصواب وبين الحلال والحرام وبين القوَّة والإرادة، ثمَّ أخذ القرار، وتحمُّل الأعباء المترتبة على ذلك.

إن تحمُّل المسؤولية يتطلب مبررات موضوعية لممارستها بإرادة وهذه المبررات هي:

⁶⁵⁶ الإسرائ، 34 . 36.

⁶⁵⁷ الصافات، 24.

أ . الصلاحيات: إنَّ الحديث عن المسؤولية الذاتية من الناحية الفكرية، ومن الناحية العملية أو التنفيذية يتطلب صلاحيات لكي يتمكن الفاعل من القيام بتنفيذ الفعل، ولذا فالصلاحيات هي مجال الامتداد المسموح به للمسؤول الذي عندما يفعل يكون مسؤولاً، وعليه من يريد أن يكون مسؤولاً يجب أن يكون واعياً قبل أن يفعل.

ب . الاختصاصات: هي مجال الامتداد في دائرة المسموح به، فعندما يلتزم المسؤول بالحركة داخل مجال الامتداد تُعد ذاته متزنة ومعتدلة في الحركة الموجبة، وعندما تخرج عن ذلك تقع في دائرة المساءلة والمحاسبة والعقاب، حيث تعد مثل هذه الأفعال أفعال سلبية أو منحرفة. وعليه لكي تؤدي المسؤولية بإرادة في دائرة الإيجابية ينبغي أن تتماثل الصلاحيات مع الاختصاصات.

ج . الوعي: ورد مفهوم الوعي في الموسوعة الفلسفية العربية بأنه وظيفة الجهاز العصبي للإنسان، وهو نشاط ذهني أو فكري للعقل، ويدل على إيجاد علاقة بين الذات والموضوع، وبالوعي يتمكن الإنسان من التبيين والمعرفة، كما أنه يتمكن من التمييز بين الأفعال الموجبة والأفعال السالبة والتمييز بين كلِّ مُفضَّل ومرغوب وبين ما هو غير ذلك ومرفوض، ولذا فإن الوعي ذو صلة مباشرة بالمدركات العقلية التي تُمكن الإنسان من التفهُم والاستيعاب، كما أنها تمكّنه من التقويم الموضوعي الذي يجعل من الذات مركز الاعتدال والتوازن الانفعالي والسلوكي.

د . القدرة: القدرة الذاتية هي التي تُمكن الإنسان من التحمّل لما يجب أن يتم تحمّله باعتبارها طاقة تستوجب توفر الاستعداد للقيام بالمسؤولية في حدود المقدرة. والقدرة متنوعة المستويات فهي على المستوى النفسي، والمستوى البدني، والمستوى المادي، والمعرفي.

4 . نيل الاعتراف:

قال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} {658}. وقال تعالى: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} {659}.

الاعتراف قيمة إثباتيه بوجود الآخر الذي له من الأهمية ما يساوي أهمية الآخرين، وهي القيمة الانتشارية التي يرغب الكلّ في نيلها من الكلّ، فهي تربط الفرد بالمنزلة، وتربط الخصوصية بالمكانة. ومع أنّ العبودية من محرمات الديمقراطية إلا أن الذي تجبره الحاجة بقبول العبودية، يريد هو الآخر أن يعترف له سيده بأنه عبد ناجح. ولذلك فإنّ جميع الناس يريدون نيل الاعتراف من الجميع. ولذا يحاول الوالدان أن يخلصا في رعاية أبنائهما، وذلك لكي ينالا منهم الاعتراف. ويحاول الأبناء أن يكونوا صالحين لكي ينالوا الاعتراف أولاً من آباؤهم وثانياً من الآخرين. وهكذا المسؤول الديمقراطي يكد ويجد لكي ينال الاعتراف من ذوي العلاقة به. وفي مقابل ذلك نحتفظ بأن لكلّ قاعدة شاذ عنها.

ولذا كلّ إنسان يسعى لنيل الاعتراف به وبأهميته وأن يعترف له بوجوده وبمقدرته على العمل والمشاركة والتفاعل والعطاء بلا حدود إلى النهاية.

5 . نيل الاعتبار:

⁶⁵⁸ آل عمران، 64.

⁶⁵⁹ الأنعام، 19.

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيه نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا إِنْ جَحْتَبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا } 660.

الاعتبار قيمة معرفية تربط الوجود بالمكانة، كما يرتبط التاريخ بالعبر. النظر إليها لا ينبغي أن يُغضَّ بين الأنا والآخر، في قاموسها الاجتماعي لا مكانة للاستهانة التي تُفَرِّق بين المرز وزوجه. ونتيجة لقيمة الاعتبار وتقديرها، لا يُعَيَّب أنا آخر، ولا يسعى لتجاهله في كل أمر يتعلق بهما، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا. من خلال حقوق تمارس وواجبات تؤدي ومسؤوليات يتم تحمُّلها.

الاعتبار مكانة تُعطى لمن يستحقها من الأفراد والجماعات والمجتمعات، ولذا لا يتم الإغفال أو غض النظر عن من هو ذو مكانة اجتماعية أو علمية أو نفسية أو أخلاقية. فالمكانة يُلتفت إليها وهي لا تُخفى أبدا، ولذا فهي تُقدَّر. والقاعدة تقول: (اعتبرني أعتبرك وإذا تجاهلت وجودي أتجاهل وجودك).

6 - نبيل التقدير:

قال تعالى: { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ } 661، وقال تعالى: { وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ } 662، قال تعالى:

660 النساء، 29 . 32.

661 { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ } [البقرة: 256]

{وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا} 663.

التقدير قيمة تقييميه، تربط الجهد بالإنتاج أو المدخلات بالمخرجات. قيمة عليها يكون التسابق بكلّ قوّة مع المحافظة على المسافة التي تسمح للآخر بالحركة في ذات الاتجاه دون عرقلة مقصودة، وبناء على النتائج المنجزة تتميز كلّ خصوصية بما تمتاز به عن خصوصيات الآخرين. ولذا لا يمكن أن تسود قيمة التقدير بين الناس إن لم يمارسوا الحرية بأسلوب ديمقراطي.

التقدير عملية يتم من خلالها تحديد طبيعة وأسباب وعلل الحالة أو المشكلة وتحديد احتمالات اتجاهات تطورها والمتغيرات المتداخلة معها، وتحديد الدور الذي ينبغي أو يؤدي حيالها وفقا لدائرة الممكن المتوقع السالب والمتوقع الموجب، وكذلك غير المتوقع السالب وغير المتوقع الموجب.

التقدير مطلب يُشبع رغبة، ممّا يستوجب من راغبٍ في ممارسة السلطة أو امتلاك الثروة، أن يحس بتمائل حاجات الآخرين له في ممارسة هذه الحقوق وامتلاكها. ولذا عندما يصل (الأنا والآخر) إلى هذا المستوى من التقدير ينال كلّ منهما نصيبه بإرادة، ويتمكنان من العيش سويا في المكان والزمان الواحد، وينال كلّ منهما مكانة عند الآخر، ممّا يجعلهما يحسان بحاجتهما للبعض وأن كلّ منهما على درجة من الأهمية التي لا ينبغي أن يستهان بها أو يغفل عنها.

662 النساء 58.

663 النساء، 6.

خامسا . عزّة السلوك :

يتعلّق أمر السلوك بالظاهر المشاهد الذي من ورائه باطن أو كامن، ولذا فإن كان في الباطن (الكامن) حُسنًا يكون في الظاهر المشاهد والملاحظ حُسنًا أيضًا، وإن لم يكن كذلك يكون الظاهر في دائرة التُبح بين متوقّع وغير متوقّع. قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ} 664.

وفيما يتعلق بعزّة السلوك، "حُكِّيَّ عن سارق تم القبض عليه ووُضِعَ في السجن حتى أنه ذات يوم خرج من السجن ورجليه مقيدتين، وهو يسأل الناس أن يعطوه قطعة خبز، فقال له أحدهم: لو اقتنعت بقطعة الخبز لما وضع القيد في قدميك" 665.

وقيل أيضا: "إنّ فتح الموصلية، كان قاعدا، فسُئِلَ عن يلهث وراء الشهوات كيف صفتة؟ وكان بقرته صبيان، مع أحدهما خبز بلا إدام، ومع الآخر خبز وإدام، فقال الذي لم يكن له إدام لصاحبه أطعمني ممّا معك، فقال: بشرط أن تكون كلّي، فقال صاحبه: نعم، فجعل خيطا في عنقه وأعطاه اللقمة ثمّ جره من عنقه كما يُجر الكلب، فقال فتح الموصلية للسائل: أمّا لو أنّه رضي بخبزه من دون إدام ولم يطمع في إدام صديقه لم يصبر كلبا له" 666.

⁶⁶⁴ غافر، 23 . 26.

⁶⁶⁵ محمد راتب النابلسي . موسوعة أسماء الله الحسنى . الجزء الأول مصدر سابق، ص 329.

⁶⁶⁶ المصدر السابق، 328.

وأخرج الطبراني في الأوسط عن سهل بن سعد قال جاء جبريل عليه السلام إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال: "يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزيّ به، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس" 667.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يَحِلُّ لمؤمن أن يذل نفسه، قالوا: يا رسول الله وما إذلاله لنفسه؟ قال: يتعرض من البلاء لما لا يقوم له" 668.

ويقول الشاعر:

اجعل لربك كلَّ عزٍّ ... ك يستقر ويثبت

فإذا اعتززت بمن يمو ... ت فإنَّ عزَّك ميت 669

وعليه لا تنسى نصيبك من الدنيا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا، وأعلم أنه لن يُعطيك أحدا شيئا إلا وأمر الله له نافذ بإعطائك مما أعطاه الله، فاحمد الله وحده ولا تُقلِّل من شأنك فإن الله قد خلقك في أحسن تقويم، وهو يريدك خليفة له في الأرض، فلا تُصغِّر من نفسك أمام الآخرين، ولا تقلل من شأنك، ولا تطمع إلا في وجه الله تعالى. واعلم إنك لو قلت من شأنك فقد أجمت في حق نفسك وفقدت رضا الله عليك، فاستغفر الله وتب إليه ولا تعمل إلا ما يُرضيه، فإن فعلت ما يُرضيه فُزت مرتين، مرة بالاستخلاف في الدنيا، ومرة بالاستخلاف في الآخرة والفوز بالجنة. ولذا لا تغفل، فإن الموت آتٍ وأعلم أنك لن تموت

⁶⁶⁷ المصدر السابق، 330.

⁶⁶⁸ المصدر السابق، ص 329.

⁶⁶⁹ المصدر السابق، 328.

قبل اليوم الذي كُتِبَ لك الموت فيه، وكن مستعداً للرحيل وأنت فائز برضا والديك، وأنت لم تُفسد في الأرض ولم تسفك الدماء فيها بالباطل، ولم تظلم أحداً من العباد. وكن فطنا وحذرا من وسوسة الشيطان والنفس، وتذكر لعل الذكرى تنفعك، {فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى} 670. وقوله تعالى: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا إِنْ أَلَّ اللَّهُ هُوَ الرِّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} 671. وأعلم إنما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور فلا تغترَّ مصداقا لقوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} 672. وقوله تعالى: {فَلَا تُعْرَبِكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يُعْرَبِكُمْ بِاللَّهِ الْعُرُورُ} 673.

قال تعالى: {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} 674. فالذين يقولون هم المنافقون ويقصدون بالأعز أنفسهم، وبالأذل يقصدون المؤمنين. وفي هذا الأمر يقول البيضاوي في تفسيره للقرآن الكريم: "أخرج البخاري وغيره عن زيد بن أرقم رضي الله عنه، قال: سمعت عبد الله بن أبي المنافق يقول لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، فلئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي، فذكر ذلك عمي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعاني الرسول فحدثته، فأرسل رسول الله إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما

670 الأعلى، 9.

671 الذاريات، 55 . 58.

672 آل عمران، 185.

673 لقمان، 33.

674 المنافقون، 8.

قالوا، فكذبني وصدقه، فأصابني شيء - أي أصابني شيء من الحزن - لم يُصِبي مثله من قبل، فجلست في البيت، فقال عمي: ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ومَقَّتَكَ، فأنزل الله تعالى: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) أي ولله الغلبة والقوة ولمن أعزه من رسوله والمؤمنين⁶⁷⁵. ولذا فالعزة مناصرة وقوة حق لإحقاق الحق وإزهاق الباطل. فمن يعزه الله فقد فاز فوزا عظيما، ومن يعزه رسول الله فقد أعزه الله تعالى وذلك لأنَّ {مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} 676. جاءت هذه الآية مناصرة ومعززة لما قاله زيد بن أرقم رضي الله عنه ولذلك فمن يعزه المعزَّ فقد اعتز، ومن يعزه الرسول فقد أعزه الله، ولذا فإن المؤمن المرضيُّ عنه، ينال عزته من عزة الله تعالى له، وأيضا من عزة الرسول له صلى الله عليه وسلم. أي أنّ الله عزَّ وجلَّ يعز المؤمن مباشرة بما يعمل من أعمال الطاعة له، ويعزه بإيمانه بالرسول واتباع سنته الشريفة.

المعزَّ عزَّ وجلَّ هو: الذي بيده الملك، والأمر والنهي، والبداية والنهاية، والثواب والعقاب. ولأنه كذلك فهو يعزُّ من يشاء متى يشاء وكيف ما يشاء سبحانه ما أعظم شأنه إنه القوي القادر.

ولأنَّه المعزَّ فهو بطبيعة الحال هو الخافض الرافع؛ الخافض للظلم والمظالم والحاجة والفاقة، والرافع بالإشباع والوفرة والملك والسلطان والغنى، الذي لو لم يكن غنيا ما كان باسطا للخير وما كان عليما بما جرى ويجري وسيجري، وما كان فتّاحا ورزّاقا ووهّابا وقهّارا ومصورا وبارئا وخالقا ومتكبرّا وجبّارا وعزيزا ومهيمننا ومؤمنا وسلاما وقدّوسا وملكا ورحيما ورحمانا، ولذا فهو الله تعالى واحد أحد لا شريك له سبحانه.

⁶⁷⁵ تفسير البيضاوي مصدر سابق، ص 744.

⁶⁷⁶ النساء، 80.

فالعزّة بالنسبة للمُعزّز بالإضافة تُطلب فتؤخذ، ويُبدل الجهد في سبيلها حتى يتم التمكّن من نيلها، وكذلك يعمل الإنسان خوفاً وطمعا من أجل بلوغها. فيها تطمئن النفس وتعتر دون أن تغتر. والعزّة الكبرى هي التي تؤتى من المعزّز المطلق للمُعزّز بالإضافة مصداقا لقوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 677.

تدل هذه الآية الكريمة على الاعتراف والإيمان المطلق بأن الله وحده هو مالك الملك، ممّا يستوجب التوجه إليه بالدعاء والطلب دون التوجه لغيره، حتى تتم الاستجابة بان يؤتي الملك لمن يشاء من عباده المؤمنين المتوجهين له بالدعاء والطلب البين دون أن يُراودهم شكّ في طلبهم أو في استجابة الله لهم، فتتم الاستجابة من المعزّز تعالى لعدة اعتبارات منها:

. الاعتبار الأوّل الأحقيّة: كما هو حال الأنبياء والرسل الذين يصطفاهم المعزّز تعالى اصطفاً. {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا} 678. وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءُنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} 679. تدل هاتان الآيتان على ثبوت عزة الله لأنبيائه ورسله حتى يُطاعوا بإذنه وتبديل السيئة حسنة.

. الاعتبار الثاني إخلاص النية: النية هي التي يعلم أمر سرها الله تعالى وهو المتوجه إليه بالدعاء حتى نيل الاستجابة المرتبطة بصفاء النية، ولهذا

677 آل عمران، 26.

678 النساء، 64.

679 الأعراف، 94، 95.

فمن صدقت نيته صدقت الاستجابة معه، وما الأعمال إلا بالنيات. قال تعالى: {رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} {680}.

. الاعتبار الثالث صدق الدعاء: من يدع ربه بقلب سليم يَسْتَجِيبُ لَهُ وهو بكل شيء عليم. قال تعالى: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَّةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} {681}. وقال تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} {682}.

. الاعتبار الرابع صفاء النفس: الأنفس أنواع وخيرها النفس المطمئنة التي لا تشرك بعبادة ربها أحدا. قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ آأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} {683}.

. الاعتبار الخامس ساعة الاستجابة: هي الساعة التي فيها تخلص النية مع الدعاء ويتزامن فيها الدعاء مع الاستجابة قال تعالى: {وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ

680 إبراهيم، 38.

681 إبراهيم، 37.

682 الأنبياء، 87.

683 المائة، 116.

لَا يَعْلَمُونَ} 684. وقال تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} 685.

. الاعتبار السادس إعطاء الفرصة: من يطلب الله بقلب سليم يستجب ويعطيه الفرصة ويختبره إن كان قادرا على حمل مسؤولية ما طلب ليعمل صالحا أم انه لن يكون قادرا وسيُفسد في الأرض، ولذا فإن الله يؤتي الملك لمن يشاء وينزعه ممن يشاء، أي أنه يؤتيه للمصلح وينزعه من المفسد الذي أعطيت له الفرصة ولم يغتنمها ويستثمرها الاستثمار الأمثل في العمل الأصح. قال تعالى: {نَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} 686. وقال تعالى: {فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا هُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} 687. وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ} 688.

. الاعتبار السابع النصيب من الدنيا: الله عز وجل خلق الإنسان في أحسن تقويم لأجل أن يكون خليفة له في الأرض ليعمل فيها صالحا، ولهذا خلق له الثمرات والخيرات الكثيرة ليعيش حياته ويأخذ نصيبه منها ولا يعتدي على نصيب الآخرين الذين لهم الحق فيها مثلما له الحق. قال

684 يونس، 88، 89.

685 الحديد، 11، 12.

686 الأحقاف، 13، 14.

687 التوبة، 7.

688 فصلت، 30.

تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} 689.

. الاعتبار الثامن الحمد والشكر على العطاء: قال تعالى: {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ} 690. وقال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} 691.

وباستمرارنا في تبيان أبعاد الآية السادسة والعشرين من سورة آل عمران {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 692، نلاحظ أنّ الملك جاء مطلقاً، ولم يقتصر على ملك بعينه، فجاء جامع لكلّ ملك من نبؤه وسلطان ومال، إلى الصحة والشفاء والعافية، ومن النجاة من النار إلى الدخول في الجنة. ولهذا فالملك يدل على أي ملك مهما عدّنا وسمّينا لا نستطيع حصره.

ويؤتي الملك تعني: يُنعم الله به ويرحم من هم في أشد الحاجة إليه، ولذا فالحاجة التي بها يُنال الملك لا يُقدّرُها إلا هو عزّ وجلّ، فيؤتي ويُمنح الملك لمن يشاء وينزعه ممن يشاء. ولذا فالقاعدة هي: (يؤتَى الملك لمن يشاء ويُنزع ممن يشاء).

689 القصص، 77.

690 المؤمنون، 28 . 31.

691 إبراهيم، 7.

692 آل عمران 26.

وإعطاء المملك ليس هو الغاية، بل الغاية تكمن من وراء إعطائه،
فبالمملك يُعزُّ البعض، وبه يُذل البعض. فمن يعمل صالحا يرضاه الله يعزه
الله بملكه، ومن يُفسد في الأرض وَيَسْفِكُ الدماء فيها بغير حقّ يذله الله
بملكه. ولهذا لا ينبغي أن يعتر من يؤتى أو يُوهب ملكا فالعزة دائما لله
وحده. ولأن الأمر كذلك فإن الخليفة مهما أُوتي من ملك فهو يتقي الله
رَبّه ولا يشرك بعبادته أحدا.

وقوله (بيدك الخير) تدل على أن الخير كلّ الخير هو من أفعال الله عزّ
وجلّ، أمّا أفعال الشر كلّ الشر فلا تأتي إلا من أيدي البشر المفسدين
في الأرض، بأكلهم أموال الناس بالباطل وقتلهم النفس التي حرّم الله إلا
بالحقّ، وبتطيفهم للميزان، ونقصهم للكيل إذا ما اكتالوا، وأكلهم للربّاء،
وبكلّ فعل أو سلوك يقومون به أو يقدمون عليه وهو منهي عنه أو مُحَرَّمًا
من عند الله تعالى.

وعليه، خص المعز الخير لأنه بيده، والخير هو الاستجابة للدعاء والرغبة
والتفضيل من قبل المؤمن الداعي ربّه خوفا وطمعا. أمّا الشر فهو بيد
الناس الذين لا يُصلِحون في الأرض، ولذا فالخير والحسنة من عند الله
والشر والسيئة من عند الناس. قال تعالى: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ
اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} 693.

قال تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى
الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} 694. في هذه الآية الكريمة تنزيه
للذات الربانية ممّا يقوله الكفرة والمشركون، و(ربّ العزّة) ربّ المكارم
والفضائل والقوّة المطلقة والخير الوفير، وربّها تعني مالکها والمهيمن عليها
فلا تفلت منه أبدا، ولن تؤتّى العزّة أو تُمنح إلا منه، ولذلك في العزّة

693 النساء، 79.

694 الصافات، 180 . 182.

مناصرة وعون وسند ودعم وتأيد ومغالبة فسبحان ربّ العزّة عمّا يصفون.

وعليه لم تكن العزّة هدفا يُجزر، بل غاية تُبلغ بالأعمال، فالعزّة متصلة بالاستخلاف في الأرض والدوام في الآخرة، ولم يكن حالها كحال الأعمال المنفصلة، فمن يُعزُّ في الدنيا يُعزُّ في الآخرة.

ولأنّ الله عزّ وجلّ كامل الصفات والأفعال جاء قوله تعالى: (عمّا يصفون) تنزيه له عن القصور والحاجة والصاحبة والولد، ولهذا فالعزّة صفة ذات وصفة فعل.

(وسلام على المرسلين) اعتراف إيماني بجميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، مصداقا لقوله تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} 695. ولذا فمن وجوب الإيمان بالرُّسل ألا تُفرق بينهم، مع علمنا التام بتفضيل الله لبعضهم على بعض من حيث الزمان والمكان والموضوع والغاية.

(والحمد لله ربّ العالمين) شكر بعد اعتراف وتقدير للعزّة والرحمة الربّانية، التي تمتد وراء كلّ شيء، ممّا يجعل المؤمن موحدا لله تعالى، ومصليا ومسلما على أنبيائه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم جميعا الذين جاءوا بالحكمة والهداية مبشرين ومنذرين ومحرضين وفاعلين للخير.

ولأنّ العزّة لا تتحقّق إلا بالنية والأعمال الخيرة، لذا فالمعزُّ يعزُّ الإنسان بالمعطيات الآتية:

⁶⁹⁵ البقرة، 285.

. العزة بالإيمان: قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ} وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {696.

. العزة بالفضل: قال تعالى: {فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} 697. وقال تعالى: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} 698.

. العزة بالعقل: الذي به نتذكر ونتفكر قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} 699. وقال تعالى: {وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} 700. وقوله تعالى: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} 701. وقوله تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ

696 الشورى، 51، 52.

697 البقرة، 64.

698 آل عمران، 171، 174.

699 القصص، 43.

700 القصص، 51.

701 الزمر، 27.

وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو
الْأَلْبَابِ {702}.

. العزة بالنعيم: قال تعالى: {إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا
وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ} {703}. وقال تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {704}.

. العزة بالاستجابة: قال تعالى: {وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ
فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ} {705}. وقال تعالى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ
فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى
لِلْعَابِدِينَ} {706}. وقال تعالى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ
رَوْحَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا
خَاشِعِينَ} [الأنبياء] {707}.

. العزة بالعمل الصالح: قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا
وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ
أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {708}.

. العزة بالاستغفار والتوبة: قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ
ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ
ظَلَمٍ إِلَّا مَا ظَلَمَ نَفْسًا لَئِنْ رَجَعُوا إِلَى اللَّهِ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} {709}.

702 البقرة، 269.

703 البقرة، 271.

704 البقرة، 274.

705 الأنبياء، 76.

706 الأنبياء، 84.

707 الأنبياء، 90.

708 البقرة، 62.

يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}709. وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا}710. وقال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}711.

. العزة بالاستخلاف: قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلا يُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}712. وقال تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَا فِي الْأَرْضِ تُنْخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَاءَ اللَّهِ وَلا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}713. وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}714

العزة بالرحمة: قال تعالى: {مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}715.

⁷⁰⁹ آل عمران، 135.

⁷¹⁰ النساء، 64.

⁷¹¹ الأنفال، 33.

⁷¹² النور، 55، 56.

⁷¹³ الأعراف، 74.

⁷¹⁴ الأنعام، 165.

⁷¹⁵ البقرة، 104، 105.

المعزُّ، هو الذي يعزُّ من في نفسه نية صافية وصادقة، وهو الذي يأمل النجاح في الأفعال الحسنة، ويأمل الابتعاد عن الأفعال السيئة، ولذا فمن يعز الحق يعزه المعز.

المعزُّ هو الذي يَهَبُ العِزَّ لمن يشاء من عباده716، والمعز ذو صلة بالاسم العزيز فهو مظهر من مظاهره.

والعزيرُّ من صفات الله عزَّ وجلَّ وأسمائه الحسنى وهو الممتنع فلا يغلبه شيء وهو القوي الغالب كلَّ شيء وهو الذي ليس كمثله شيء717.

والعزُّ خلاف الدُّلِّ، والعزُّ في الأصل القوَّة والشدة والغلبة والعزُّ والعزَّة الرفعة والامتناع، قال تعالى: (ولله العزَّة ولرسوله وللمؤمنين) أي له العزَّة والغلبة سبحانه وقال في التنزيل العزيز: (من كان يريد العزَّة فلله العزَّة جميعاً) أي من كان يريد بعبادته غير الله فإنما له العزَّة في الدنيا والله العزَّة جميعاً أي يجمعها في الدنيا والآخرة بأن ينصُر في الدنيا ويغلب718. ومن هنا كان الاستخلاف للإنسان في الأرض عزة.

الخلافة عزُّ:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ

⁷¹⁶ لسان العرب، ج 5، ص 374.

⁷¹⁷ المرجع السابق

⁷¹⁸ المرجع السابق

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمَ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} 719.

فالأيات البيّنات توضح نوعاً من تجليات المعز لم يشر إليه الكثير، فأول مظهر من مظاهر العز الرباني لآدم كان الأمر بالخلافة ودعوة الملائكة بالسجود، وتمثل ذلك في قوله تعالى مخبراً للنبي صلى الله عليه وسلم: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) فالله المعزّ فعله كلام وعطائه كلام ومنعه كلام فهو الذي يقول للشيء كن فيكون، وهو سبحانه أراد أن يعزّ آدم وذريته فأخرج آدم من تراب ونفخ فيه من روحه واستخلفه في الأرض وأعزه وذريته فيها ومن عز الله لآدم عليه الصلاة والسلام، قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ} 720 ويقول الله في نفس السياق: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا

719 البقرة 30 . 37

720 الحجر، 28 . 31

خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتُ أَمْ كُنْتُ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ {721}.

فقد أعزَّ الله آدم إذ خلقه، وسواه وعدله في أحسن صورة وأكرمه، وأسجد له الملائكة، ولم يكن سجود الملائكة سجود عبادة بل سجود تحية لآدم وسجود طاعة لله رب العالمين، فكان للملائكة موقف استفسار واستبيان: (قالوا أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) فعلم الملائكة أنهم المسبحون لله الحامدون لله المقدسون لذاته، فلم هذا المخلوق الذي أعزه الله بهذا الشرف الاستخلافي في الأرض؟ وهنا يخبرهم الله أنّ عزّه لآدم عليه الصلّاة والسّلام لم يكن عز اختيار لتعمير لأرض فقط ولا عز من نوع جديد وهو عز العلم واكتشاف الأسرار ووضع الأسماء للأشياء التي لم تسمّ، ويا سبحان الله فمن هذا النوع وهو التسمية أنّ الأرض لها في كلّ لغة من اللغات التي يتحدث بها البشر مسمى تقترب المسميات أو تبتعد في المخارج ولكن المدلول واحد، وقس على ذلك ملايين المفردات الموجودة في لغات البشر فمن سماها وأعطاهها دلالتها؟ لا أحد سوى تلك القدرة الخارقة التي منحها الله لآدم في حضرة العزّة التي أعزه فيها، فقال الله تعالى للملائكة: {قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} فضل آدم عملي خلاق فهو الذي يغير الأشياء للأجمل إبداعاً بآلة العقل التي منحت له والعلم الذي يفجره لتوظيف ما خلقته على الأرض لخدمة مهمة الخلافة، لذلك فالله قال: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي

أَعْلَمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ {722} لذا فتفضيل آدم ليس بالخلق من الطين والسجود ولكن هناك تفضيل آخر وهو الأمانة التي حملها وهي العقل والتفكير والتحليل ووضع القواعد، أو ما يمكن أن نسميه التهيئة والإعداد المسبق لتولي الخلافة، ومن يترجم التهيئة الذاتية لأفعال من بناء وزراعة وحفر للآبار وشق للأنهار ووضع السدود ونقش العلوم في العقول والمعارف في القلوب والسمو في الأرواح فهو الذي استفاد من التهيئة الربانية لتولي الخلافة على الأرض.

والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا الأرض بالتحديد لاختيار آدم لمهمة الخلافة؟

الإجابة ببساطة لأنها البيئة الملائمة لإخراج التهيئة الربانية إلى أفعال من إقامة عدل وإحقاق حق وإبطال باطل، فهذه الأشياء التي نسميها نحن في الأرض ظلم وكذب وزور وغير ذلك من سلبيات ليست موجودة في عالم الملائكة ولا في عالم الكواكب والنجوم المكتشفة، إنما هي موجودة في عالمنا ومن حوّلها إلى نقائصها فهو الذي أظهر عزّ الله وظهر فيه عزّ الله، فالملائكة مجبولة على الطاعة هي وغيرها من الكائنات التي لم تستخلف، قال الله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَّالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} {723}، (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) في الأرض، (يَتَفَيَّأُ ظِلَّالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا)، أي يتحول الظل عن اليمن والشمال أثناء الحركة الممتدة من الشروق إلى

⁷²² البقرة 31 . 33.

⁷²³ النحل، 48 . 50.

الغروب، فذلك قوله سبحانه: (يَتَفَيَّأُ ظِلَّالُهُ)، يعنى يتحول الظل، فإذا زالت الشمس، تحول الظل عن الشمال قبل المشرق، كسجود كل شيء في الأرض لله تعالى، ظله في النهار ساجدا، (لِلَّهِ) دون اختيار (وَهُمْ دَاخِرُونَ) صاغرون. (وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ) من الملائكة، (وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ) فالكل يسجدون لأنهم جبلوا على ذلك. {ما في السماوات} من الملائكة وغيرهم وكل شيء في السماء والأرض، ووصف الله الملائكة، فقال: (وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) فهم لا يتكبرون عن السجود لأنهم: (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِمَّنْ فَوْقِهِمْ) لأن الله تعالى فوق كل شيء، أي شاهدا عليهم حيث لا تخفى عنه خافية في الأرض أو السماء، (وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) فهم لا اختيار لهم، وهنا الفرق بين المكلف بالخلافة وغير المكلف.

ولما أقيمت الحجّة في الاستخلاف كان الأمر بالسجود طاعة لله وتسليما لآدم بحقه في الخلافة لأن ذلك إعزاز من الله فسجدت الملائكة مصداقا لقوله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) فأطاعت الملائكة إلا واحدا ليس من الملائكة ورفض أن يعز الله آدم لذا فقد قال متكبرا: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُعْوِينَهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} 724 والمعنى الذي ورد إلى الذهن من الاسم المعز هو قول إبليس: فبعزتك، أي فبعزتك له علي وتفضيله بالخلافة وأنا أفضل منه فسأغويه وأرده عن الحق

إلا العباد الذين ستعزهم وتمنعهم مني، وكان دافع إبليس في رفض خلافة آدم والسجود له الحسد والكبر، وذلك لأن إبليس، إنما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر، والكفار لم يستجيبوا للنبي عليه الصلّاة والسّلام بسبب الحسد والكبر، والمستفاد من صراع إبليس ضد آدم البعد عن هاتين الخصلتين المذمومتين، والله تعالى حث المستخلفين المكلفين بالنظر والاستدلال، ومنعهم عن الإصرار والتقليد، فسؤال الملائكة عن الحكمة في تخليق البشر واستخلافه يدلّ على أنّ الحكمة الأصلية في تخليق آدم هو المعرفة والطاعة لا الجهل والتكبر، وإبليس إنّما خاصم آدم عليه السّلام لأجل الحسد والكبر فيجب على العاقل أن يتعد عنهما.

ولما وقع آدم في المعصية التي أخرجته من الجنّة ونزل بها إلى الأرض أعزه الله بالتوبة نكاهة في إبليس، وكأن هذه المعصية كانت للاختبار ولتهيئة حتى يمارس آدم الاستخلاف في الأرض بدرّبة وتلقين وفطنة، ومن المعلوم أن آدم لم تذكر له معصية لما نزل الأرض.

وعندما انتشرت المعصية وابتعد أبناء آدم عن الوضع الطبيعي لهم في ممارسة واجبات الخلافة قال الله تعالى: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} 725، وهذه الآية نعلم أن لها سياق آخر وأنها أخبرت عن المرتدين، ولكن القرآن صالح لكل زمان ومكان، ولا ضير أن نوظف معانيه بما لا يتعارض مع المعنى العام له بلا شطط ولا شطح بل بوسطية وعقلانية، فهؤلاء الذين يحبهم الله في كلّ وقت ومن نعتهم أن جانبهم غليظٌ على الكافرين لِيُنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ يَتَذَلَّلُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ كَانُوا أَعِزَّةً وَيَتَعَزَّزُونَ عَلَى الْكَافِرِينَ وَإِنْ كَانُوا فِي شَرَفِ الْأَحْسَابِ دُونَهُمْ، وهم الذين يصلحون ولا يفسدون ويصفون الدواء للداء الذي يعطل أمر الله في الأرض، ويعزون الدليل إن كان معه

الحقّ، ويدلون العزيز إن كان عليه الحقّ، ولله در أبي بكر خليفة رسول الله حين قال في هذا المعنى: بعد حمد الله والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلّم "أما بعد، أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أزيح عنته إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحقّ إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله؛ فقلوه رضي الله عنه: (وليتكم ولست بخيركم) من باب الهضم والتواضع، فإنهم مجمعون على أنّه أفضلهم وخيرهم رضي الله عنهم"726، فمن يفعل ما فعله سيدنا أبو بكر فهو من خلفاء الله في الأرض الذين تخلقوا بأخلاق الاسم المعز لذا فالنصر والغلبة للأعز الذي استلهم العز من الله ولا علاقة بالغلبة والعزّة بالعدد لأن الله المعز يقول: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أقدامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ

⁷²⁶ السيرة النبوية لابن كثير، ج 4، ص 493.

لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا
عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ {727.

فقوله تعالى: (فلما فصل طالوت بالجنود) أي: خرج وشخص. وفي
عدد من خرج معه ثلاثة أقوال. أحدها: سبعون ألفاً، قاله ابن عباس.
والثاني: ثمانون ألفاً، قاله عكرمة والسدي. والثالث: مائة ألف، قاله
مقاتل. قال: وساروا في حر شديد، فابتلاهم الله بالنهر. والابتلاء:
الاختبار. ووجه الحكمة في ابتلائهم به أن يعلم طالوت من له نية في
القتال منهم ومن ليس له نية. فقال: (ليس مني) أي ليس من أصحابي.
وقوله تعالى: (إلا من اغترف غرفةً) قرأ ابن كثير ونافع، وأبو عمرو،
«غرفةً» بفتح الغين، وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، ولكسائي بضمها،
قال الزجاج: من فتح الغين، أراد المرة الواحدة باليد، ومن ضمها، أراد
ملء اليد. وزعم مقاتل أن الغرفة كان يشرب منها الرجل، ودابته، وخدمه
وبملاً قريته. وقال بعض المفسرين: لم يرد به غرفة الكف، وإنما أراد المرة
الواحدة بقريته أو جرة، أو ما أشبه ذلك. وقوله تعالى: (لا طاقة لنا) أي:
لا قوة لنا ولا قدرة.

فالحق عزيز بعز الله ومعزته لأهله وإن كان قليل العدد كما مر بنا في
القصص القرآني الذي فيه العبرة والعظة واستلهاهم المعاني، ولما قال المغرور
بالعدد والمال عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين: لِيُخْرِجَنَّ الْأَعْرُ
منها الأذلّ، فأعز الله النبي والفئة المؤمنة، وهذا ما ترويه لنا كتب السيرة:
"فبينما الناس على ذلك الماء وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب
أجير له من بني غفار يقال له جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم
جهجاه وسان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء
فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار.

وصرخ جهجاء: يا معشر المهاجرين.

فغضب عبدا لله بن أبي بن سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حدث فقال: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا؟ والله ما أعدنا وجلايب قريش هذه إلا كما قال الأوّل: (سمن كلبك يأكلك) أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل"728.

ثمّ أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب فقال: مر به عباد بن بشر فليقتله.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: فكيف يا عمر إذا تحدث النّاس أن محمّدا يقتل أصحابه، لا ولكن أذن بالرحيل.

وذلك في ساعة لم يكن رسول الله يرتحل فيها، فارتحل النّاس.

وقد مشى عبدا لله بن أبي بن سلول إلى رسول الله حين بلغه أن زيد بن أرقم بلغه ما سمع منه، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به، وكان في قومه شريفا عظيما، فقال من حضر رسول الله من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل729.

⁷²⁸ تاريخ المدينة لابن شبة، 1، ص 366.

⁷²⁹ السيرة النبوية لابن كثير، ج 3، ص 299.

فلما استقلَّ رسول الله وسار لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة
وسلم عليه، ثم قال: يا رسول الله لقد رحمت في ساعة منكراً ما كنت
تروح فيها.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أوما بلغك ما قال صاحبكم
عبد الله بن أبي؟ قال: وما قال؟ قال: زعم إن رجع إلى المدينة أخرج
الأعز منها الأذل. فقال أسيد: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت،
هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله أرفق به فوالله لقد
جاء الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه ليرى أنك قد
استلبته ملكاً.

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي ما كان من أمر أبيه فأتى رسول الله
صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله
بن أبي، لما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمُرني به، فأنا أحمل إليك رأسه،
فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجلاً أبرَّ بوالديه مني، وإني أخشى
أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن
أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل نرفق به ونحسن صحبته ما
بقي معنا، قالوا: وسار رسول الله يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى
أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يكن
إلا أن وجدوا مسَّ الأرض فوقعوا نياماً. وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن
الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي 730.

ونزلت الآيات التي قال الله تعالى فيها: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَعْفِفُوا
لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوْوَا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ

⁷³⁰ تفسير البغوي، ج 8، ص 132.

أَسْتَغْفِرَتْ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَعْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ هُمْ الَّذِينَ يُقُولُونَ لَا تَنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى
يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ
يُقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ
وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ {731.

فأنزل الله تعالى سورة المنافقين في تصديق زيد وتكذيب عبد الله. فلما
نزلت أخذ رسول الله بأذن زيد وقال: "يا زيد إن الله صدقك وأوفى
بأذنيك".

وكان عبد الله بن أبي بقرت المدينة، فلما أراد أن يدخلها جاءه ابنه
عبد الله بن عبد الله حتى أناخ على مجامع طرق المدينة، فلما جاء عبد
الله بن أبي قال: (وراءك)، قال مالك؛ ويلك؟ قال: لا والله لا تدخلها
أبدًا إلا بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولتعلمن اليوم من الأعز
من الأذل، فشكك عبد الله إلى رسول الله ما صنع ابنه، فأرسل إليه رسول
الله أن خلّ عنه حتى يدخل، فقال: أمّا إذا جاء أمر رسول الله فنعنم،
فدخل فلم يلبث إلا أياما قلائل حتى اشتكى ومات.

قالوا: فلما نزلت الآية وبان كذب عبد الله بن أبي قيل له: يا أبا حباب
إنه قد نزل فيك أي شداد فاذهب إلى رسول الله يستغفر لك، فلوى
رأسه ثم قال: أمرتموني أن أؤمن فأمنت، وأمرتموني أن أعطي زكاة مالي فقد
أعطيت فما بقي إلا أن أسجد لمحمد 732 فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ
مُسْتَكْبِرُونَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفِرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَعْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ

⁷³¹ المنافقون، 8.5.

⁷³² تفسير البغوي، ج 8، ص 133.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ
عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ {733.

والقرآن الكريم فيه العزة لمن أراد العزة فقد قال الله في فضل القرآن
الكريم: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ
الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} 734 فَإِنَّ
الكتب التي تقدّمت عليه في الزمان لا تبطله ولا يأتي بعده كتاب يبطله
وهو محفوظ من أن يُنقص ما فيه فيأتيه الباطل من بين يديه أو يُزاد فيه
فيأتيه الباطل من خلفه وكلا الوجهين حسنٌ فقد حُفظَ وعزٌّ من أن
يلحقه شيء من هذا، (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ) والعزيم الثمين الذي لا يساويه
شيء وهو المحبوب بما فيه من آيات تطمئن الأنفس بها، وتبهر دروب
الضالين إلى الهداية ودروب المستخلفين إلى الجنة.

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) وذلك لأنه الحق المطلق،
والحق المطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو كتاب
الكافة الذي لا يجيء كتاب من بعده بالمطلق، والقرآن محفوظ مصداقا
لقوله تعالى: {وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} 735، وقوله تعالى: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا
فِي تَكْذِيبِ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ
مَحْفُوظٍ} 736، ولهذا فهو كتاب عزيز ومن تمسك به فهو مُعزٌّ.

وعليه الشعور بالعزة في طاعة الله تعالى يجعل الطائع عزيزا، والعزة
بطاعة الله تجعل الطائع مُعزّا. وعلينا أن نفرق بين العزة والغرور والتكبر:

733 المنافقون 7. 5.

734 فصلت 41، 42.

735 الحجر 9.

736 البروج 19 . 22.

. العزة: لا تكون إلا لعزير النفس طيب الإرادة محب الخير يقدم على ما يجب الإقدام عليه ويتعد عما يجب الابتعاد عنه ويتجنب ما يجب تجنبه، وينتهي عما يجب الانتهاء عنه، ومن يفعل ذلك يكون من المستخلفين في الأرض المفلحين فيها بالعمار وأفعال الخيرات الحسان.

الغرور: الظهور بحسابات في غير محلها، وعدم تقدير للمواقف والإقدام في غير زمانه ومكانه وموضعه، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَاحْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ } 737.

. التكبر: مغالاة في غير محلها، قال تعالى: { وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ } 738، وقال تعالى: { الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ } 739.

إنّ الشعور بالعزة المفرطة يؤدي على الكبر والشعور بالتواضع المفرط يؤدي إلى الهوان والاثنان يتنافيان مع الاسم المعز، ولكن القصد في أن يتغني المتخلق بالعز بين ذلك سبيلا، فلا يكون المتخلق بالمعز من تأخذه العزة إن أخطأ بل يعود فيصلح من خطئه، قال الله تعالى: { وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ

⁷³⁷ لقمان 33.

⁷³⁸ غافر 26، 27.

⁷³⁹ غافر 35.

وَلَيْسَ الْمَهَادُ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ
بِالْعِبَادِ {740}، فلا يتخذ الإنسان موقفا غير صحيح لمن يرشده إلى
خطئه بل يجب عليه أن يعود إلى رشده ويصلح من إحساسه المفرط بأنه
على الصواب، ويتمثل بالخلق المتواضع في رحمة من غير ضعف الذي
كان يتحلى به النبي وهو الذي أعزه الله وذلك حين أمره الله تعالى بقوله
تعالى: {وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ} {741
فالرحمة فيها العز بشرط أن تكون لمن يستحق.

ومن المعلوم أنّ العز بيد الله يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الملك
وهو على كلّ شيء قدير فقد أعز آدم وأذل إبليس، فقد أعز نوحا
بالطوفان وأذل الكافرين بالطوفان نفسه، فقد أعز إبراهيم بالنار وهي أداة
الذل للكافرين يوم القيامة، وقد أعز موسى وأذل فرعون لأن الله المعز
بيده الملك فسخر الطوفان والنار والبحر لأوليائه وأنبيائه فأعزهم بها، وقد
أعز الله بيته لما جاء أبرهة يهدمه أعزه بطائر قليل الحجم يحمل حجارة
صغيرة فأذل أبرهة وجنوده، وقد أعز النبي محمد بالإسلام، ولم يمنع عزه
عنا ما دما نؤمن بأنه المعز فقد علّم النبي سبطه الحسن بن علي هذا
الدعاء فعن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنه، قال: عَلَّمَنِي جَدِّي
رَسُولُ اللَّهِ كَلِمَاتٍ أَقْوَمُنَّ فِي الْوَتْرِ: "اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي
فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَفِي شَرِّ مَا قَضَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي
وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ، تَبَارَكَ
رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ" 742. فلا معز لمن أذل الله ولا مدل لمن أعز الله.

⁷⁴⁰ البقرة 204، 207.

⁷⁴¹ الحجر، 88، 89.

⁷⁴² المعجم الكبير للطبراني، ج 3، ص 125.

اللهم ألبسنا ثوبا من العز لا نذل به فإنك على كل شيء قدير، وأعزنا بالإيمان وبالقرآن وبتابع خير الأنام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، اللهم أعزّ أقوالنا بالحقّ وأفعالنا بالحقّ، وأعمالنا بالحقّ، وعزنا بالقوّة والقدرة ولا تجعلنا مستضعفين إنك المعز سبحانه جل جلالك.

اللهم يا المعزّ إنك تعزّ من تشاء متى ما تشاء فأعزنا كما تشاء بالإيمان والعلم والحكمة والملك والغنى والصحة والعافية يا خالق الأرض والسموات العلاء وما بينهما وما تحت الثرى يا الله.

إذن إسحاق هو ابن النبي إبراهيم ومن زوجته سارة، وقد كانت البشارة بمولده من الملائكة لإبراهيم وسارة، لما مرّوا بهم ذاهبين إلى مدائن قوم لوط، ليدمروها عليهم لكفرهم وفجورهم، {وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ} 745 ومن ثمّ فإسحاق من أنبياء الله الصّالحين، وجعله الله رسولا نبيا ومن نسله يعقوب، ومن يعقوب جاء يوسف والأسباط.

وقوله: (أولي الأيدي والأبصار) يعني بالأيدي: القوّة، ويعني بالأبصار: أُولِي الْعُقُولِ لِلْحَقِّ. وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ) قَالَ: "الْأَيْدِي: الْقُوَّةُ فِي الْعَمَلِ، وَالْبَصَرُ: فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ" 746

وقال النخّاس: الأبصار فمتفق على تأويلها أنّها البصائر في الدّين والعلم. وأمّا الأيدي فمختلف في تأويلها، فأهل التفسير يقولون: إنّها القوّة في الدين. وقوم يقولون: هم أصحاب النعم والإحسان.

وقد ذكر الله تعالى سيدنا إسحاق عليه السّلام بالصفات الحميدة وجعله نبيا ورسولا، وبرّاه من كل ما نسبه إليه الجاهلون، وأمر الله قومه بالإيمان به كغيره من الأنبياء والرّسل، وقد مدح رسول الله نبي الله إسحاق وأثنى عليه عندما قال: (إنّ الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم). فهؤلاء الأنبياء الأربعة الذين مدحهم رسول الله هم أنبياء متناسلون.

وقد دعا إسحاق بن إبراهيم عليهما السّلام إلى دين الإسلام وإلى عبادة الله وحده، وأوحى إليه بشريعة مبنية على الإسلام ليلبغها ويعلمها

745 ص 45.

746 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 4، ص 284.

النَّاسِ، وَقَدْ أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى الْكَنْعَانِيِّينَ فِي بِلَادِ الشَّامِ
وَفِلَسْطِينَ الَّذِينَ عَاشَ بَيْنَهُمْ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْصَى
ابْنَهُ إِسْحَاقَ أَلَّا يَتَزَوَّجَ إِلَّا امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ أَبِيهِ فَتَزَوَّجَ إِسْحَاقُ رَفِقَةَ بِنْتَ
ابْنِ عَمِّهِ، وَكَانَتْ عَاقِرًا لَا تَنْجُبُ فَدَعَا اللَّهُ لَهَا فَحَمَلَتْ فَوَلَدَتْ غَلَامِينَ
تَوَامِينَ أَحَدَهُمَا اسْمُهُ الْعَيْصُ، وَالثَّانِي يَعْقُوبُ وَهُوَ نَبِيُّ اللَّهِ إِسْرَائِيلَ.

وَقِيلَ أَنَّ سَيِّدَنَا إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَاشَ مِائَةَ وَثَمَانِينَ سَنَةً وَمَاتَ فِي
حَبْرُونَ وَهِيَ مَدِينَةُ الْخَلِيلِ بِفِلَسْطِينَ حَيْثُ كَانَ يَسْكُنُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ، وَدَفَنَهُ ابْنَاهُ الْعَيْصُ وَيَعْقُوبُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِي الْمَكَانِ الَّذِي دُفِنَ
فِيهِ أَبُوهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

من صفات النبي إسحاق:

1. مبشر به:

عَنْ ضَمْرَةَ بِنِ حَبِيبٍ فِي تَفْسِيرِهِ "أَنَّ سَارَةَ لَمَّا بَشَّرَهَا الرَّسُلُ بِإِسْحَاقَ
قَالَتْ: فَبَيْنَمَا هِيَ تَمْشِي وَتُحَدِّثُهُمْ حِينَ آنَسَتْ بِالْحَيْضَةِ فَحَاضَتْ قَبْلَ أَنْ
تَحْمِلَ بِإِسْحَاقَ وَكَانَ قَوْلُهَا لِلرُّسُلِ حِينَ بَشَّرُوهَا بِإِسْحَاقَ: قَدْ كُنْتُ شَابَّةً
وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ شَابًّا فَلَمْ أَحْمِلْ فَحِينَ كَبِرَ وَكَبِرْتُ أَلِدُ؟ قَالُوا أَعْجَبِينَ مِنْ
ذَلِكَ يَا سَارَةُ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ صَنَعَ بِكُمْ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى
قَدْ جَعَلَ رَحْمَتَهُ وَبَرَكَاتِهِ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ" 747 قال
تعالى: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ} 748

⁷⁴⁷ كرامات الأولياء للالكائي - من شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، 9، ص

73.

⁷⁴⁸ الصفات 112.

2 . نبي:

قال تعالى: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا} 749. واستدلَّ الفاكهي على ذلك بما معناه أنَّ الله تعالى عبَّر عن قصَّة إسماعيل بقوله (فبشرناه بغلامٍ حلِيمٍ) إلى قَوْلِهِ (إنَّه من عبادنا الْمُؤْمِنِينَ) وأخبر عن قصَّة إسحاق بقوله (وبشرناه بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا من الصَّالِحِينَ) وَإِنَّ ذَكَرَ قِصَّةَ إِسْحَاقَ بَعْدَ الْقِصَّةِ الَّتِي قَبْلَهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ إِسْحَاقَ غَيْرَ الدَّبِيحِ وَأَنَّ ذَلِكَ يَتَأَيَّدُ بِكَوْنِ سَارَةَ بَشَرَتْ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ" 750.

3 . من الصَّالِحِينَ:

قال تعالى: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} 751. عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: "صَاحِبُ الدَّبْحِ إِسْحَاقُ (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ)، قَالَ: بُشِّرَ بِهِ حِينَ وُلِدَ، وَبُشِّرَ بِنُبُوتِهِ بَعْدَ الصَّبِيِّ" 752

4 . رسول:

قال تعالى: {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} 753. فَأَعْلَمَهُ فِي

⁷⁴⁹ الصافات 112.

⁷⁵⁰ أخبار مكة للفاكهي، 5، ص 80.

⁷⁵¹ الصافات 112.

⁷⁵² لأحاديث المختارة، المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرج البخاري ومسلم في

صحيحيهما، 11، ص 381.

⁷⁵³ البقرة 136.

هَذِهِ الْآيَةُ أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ هُوَ الْإِيمَانُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْهِ، وَبِمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِهِ
عَلَى رُسُلِ اللَّهِ، وَبِمَا فِي كُتُبِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْأَحْكَامِ وَالْفَرَائِضِ، وَأَنَّ ذَلِكَ
هُوَ الْإِيمَانُ وَالْإِسْلَامُ 754

5 . مصطفى:

قال تعالى: (لِمَنِ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ)، عن أحمدُ بنِ مُحَمَّدِ بْنِ بَكْرٍ،
قَالَ: سَمِعْتُ السَّاجِيَّ، يَقُولُ: "إِنَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ دَرَجَةَ الْخَائِفِينَ، وَأَمْسَكَ عَنْ
دَرَجَةِ الْمُحِبِّينَ لِأَنَّ الْقُلُوبَ لَا تَحْتَمِلُ ذَلِكَ، كَمَا أَمْسَكَ عَنْ دَرَجَةِ
النَّبِيِّينَ وَأَظْهَرَ ثَوَابَ الْمُتَّقِينَ، قَالَ فِي النَّبِيِّينَ وَادُّكُرْ عَبْدَنَا وَعِبَادَنَا فَلَانًا
وَأَتْنَى عَلَيْهِمْ 755: {شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ} 756.

6 . موحى إليه، {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ
بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى
وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} 757

7 . مبارك من عند الله. {وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ} 758. وفي
حديث سعد: "بارك الله لك في أهلك ومالك"، والمبارك الذي قد باركه
الله سبحانه، كما قال المسيح عليه السلام: {وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا
كُنْتُ} 759، وكتابه مبارك، كما قال تعالى: {وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ
أَنْزَلْنَاهُ} 760، وقال: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ} 761، وهو أحق أن

754 الإبانة الكبرى لابن بطة، 2، ص 791.

755 حلبة الأولياء وطبقات الأصفياء، 9، 314.

756 النحل 121.

757 النساء 163.

758 الصافات 113.

759 مريم 31.

760 الأنبياء 50.

يُسَمَّى مباركا من كلِّ شيء، لكثرة خيره، ومنافعه، ووجوه البركة فيه، والرَّب سبحانه وتعالى يقال في حقِّه "تبارك"، ولا يقال: مبارك، والمقصود الكلام على قوله: "وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم"762.

8 . من أولي الأيدي، {وَأَذْكُرُ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي}763. قَالَ: الْأَيْدِي: الْقُوَّةُ فِي الْعَمَلِ764.

9 . من أولي الأبصار، {وَأَذْكُرُ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ}765. وَالْبَصْرُ: "فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ"766

10 . مخلص بخالصة ذكر الدار، {وَأَذْكُرُ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ}767. عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنِ مُجَاهِدٍ، قَالَ: ذَكَرُ الْأَخِرَةِ لَيْسَ لَهُمْ ذِكْرٌ غَيْرُهَا768

11 . من المصطفين الأخيار، {وَأَذْكُرُ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ}769. الَّذِينَ تَمَّ اصْطِفَاؤُهُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ فَضَائِلِ خَيْرَةٍ، وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْرِيَّةٍ. هُوَ إِسْحَاقُ بْنُ

761 ص 29.

762 ذخيرة العقبي في شرح المجتبى، 15، ص 142.

763 ص 45.

764 شرح السنة للبخاري، 1، ص 219.

765 ص 45.

766 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 4، ص 284.

767 ص 46.

768 صفة الجنة لأبي نعيم الأصبهاني، 1، ص 62.

769 ص 47.

إبراهيم عليهما الصلّاة والسّلام، وهو الولد الثاني لإبراهيم الذي بشرته به الملائكة، وقيل: كان عمر إبراهيم حين ولدته سارة زوجة إبراهيم مائة وعشرين سنة وكان عمر سارة تسعين سنة وقيل غير ذلك، وقد ذكره الله تبارك وتعالى بالثناء عليه والمدح في أكثر من آية من القرآن الكريم قال الله تبارك وتعالى: (وَأذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِئْتَمَّرْنَا لِمَنْ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ).

12 . موهوب به، {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا} 770.
وَشَارِحُ صَدْرِهِ لَهُ وَهَادِيهِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَمُتَّبِعُهُ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ 771.

13 . مجاب الدعاء، وَأَمَّا أَنْتَ يَا إِسْحَاقُ فَتَمَنَّ عَلَيَّ بِمَا شِئْتَ وَسَلِّني وَاحْتَكِمْ أَوْتِكَ سُؤْلَكَ، قَالَ: أَسْأَلُكَ يَا إِلَهِي أَنْ تَصْطَفِيَنِي لِنَفْسِكَ، وَأَنْ تُشَفِّعَنِي فِي عِبَادِكَ الْمُوَحِّدِينَ فَلَا يَلْفَاكَ عَبْدٌ لَا يُشْرِكُ بِكَ شَيْئًا إِلَّا أَجْرْتُهُ مِنَ النَّارِ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: أَوْجَبْتُ لَكَ مَا سَأَلْتَ، وَضَمِنْتُ لَكَ وَلَايَتَكَ مَا وَعَدْتُكَمَا عَلَى نَفْسِي وَعَدًّا لَا أُخْلِفُهُ، وَعَهْدًا لَا أَحْبِسَنَّ بِهِ، وَعَطَاءً هَنِيئًا لَيْسَ بِمَرْدُودٍ" 772.

نبوته إسحاق:

نبوة إسحاق هي الإسلام، وهي نبوة جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلّاة والسّلام، ومن هنا؛ فمن يعتقد أنّ الإسلام هو مقصور على رسالة الكفاة والرّسول الخاتم؛ فهو غير صائب؛ فالدين كلّ الدين المنزل هو الإسلام (من آدم إلى محمّد الخاتم)، قال تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ

⁷⁷⁰ الأنعام 84.

⁷⁷¹ القضاء والقدر للبيهقي، ص 262.

⁷⁷² المستدرک على الصحيحين للحاكم، 2، ص 610.

الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا
وَأَجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ
عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ
آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَمَنْ
يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ
فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ
وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا
تُمُونَنَّ إِلَّا بِاللَّهِ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} 773 نبوة إسماعيل عليه الصلاة والسلام نبوة
بعضها من بعض؛ فهو نبي ابن نبي وابنيه من بعده أنبياء، {إِنَّ اللَّهَ
اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا
مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} 774. وقال تعالى: {وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى
الدَّارِ وَإِهِمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ} 775، دعا إسحاق بن
إبراهيم عليهما السلام إلى دين الإسلام وإلى عبادة الله وحده، وأوحى
إليه بشريعة مبنية على الإسلام ليبلغها ويعلمها للناس، وقد أرسله الله
تبارك وتعالى إلى الكنعانيين في بلاد الشام وفلسطين الذين عاش بينهم،
وقد قيل: إن إبراهيم عليه السلام أوصى ابنه إسحاق ألا يتزوج إلا امرأة
من أهل أبيه فتزوج إسحاق رفقة بنت ابن عمه، وكانت عاقراً لا تنجب
فدعا الله لها فحملت فولدت غلامين توأمين أحدهما اسمه العيص، والثاني
يعقوب وهو نبي الله إسرائيل.

773 البقرة 127 . 132.

774 آل عمران 33 . 34.

775 ص 47.

الدَّبِيحُ بَيْنَ خِلاَفٍ وَخِلاَفٍ:

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: "إِنَّ الصَّحْرَةَ الَّتِي فِي أَصْلِ ثَبِيرٍ الَّتِي دَبَّحَ عَلَيْهَا إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ هَبَطَ عَلَيْهِ كَبْشٌ أَغْبَرُ لَهُ نُوحٌ مِنْ ثَبِيرٍ قَدْ نَوَّحَهُ... فَذَكَرَ حَدِيثًا طَوِيلًا.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو الْأَوْيسِيُّ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا رَأَى إِبْرَاهِيمُ فِي الْمَنَامِ أَنْ يَدْبَحَ إِسْحَاقَ أَخَذَ بِيَدِهِ، فَذَكَرَهُ بِطَوِيلِهِ. قَالَ الْحَاكِمُ: وَقَدْ ذَكَرَهُ الْوَاقِدِيُّ بِأَسَانِيدِهِ، وَهَذَا الْقَوْلُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، وَعُمَيْرِ بْنِ قَتَادَةَ اللَّيْثِيِّ، وَعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، وَأَبِي بَنْ كَعْبٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِ.

وَقَدْ كُنْتُ أَرَى مَشَايِخَ الْحَدِيثِ قَبْلَنَا وَفِي سَائِرِ الْمُدُنِ الَّتِي طَلَبْنَا الْحَدِيثَ فِيهِ وَهُمْ لَا يَخْتَلِفُونَ أَنَّ الدَّبِيحَ إِسْمَاعِيلُ وَقَاعِدُهُمْ فِيهِ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَنَا ابْنُ الدَّبِيحِينَ) إِذْ لَا خِلاَفَ أَنَّهُ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلِ وَأَنَّ الدَّبِيحَ الْآخَرَ أَبُوهُ الْأَدْنَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَالْآنَ فَإِنِّي أَجِدُ مُصَنِّفِي هَذِهِ الْأَدِلَّةِ يَخْتَارُونَ قَوْلَ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ إِسْحَاقُ 776".

عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ، قَالَ: حَدِيثُ إِسْحَاقَ حِينَ أَمَرَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَدْبَحَهُ وَهَبَ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي فَارَقَتْهُ الْمَلَائِكَةُ، فَلَمَّا كَانَ ابْنُ سَبْعٍ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَدْبَحَهُ وَيَجْعَلَهُ قُرْبَانًا، وَكَانَ الْقُرْبَانُ يَوْمَئِذٍ يُتَقَبَّلُ وَيُرْفَعُ فَكَتَمَ إِبْرَاهِيمُ ذَلِكَ إِسْحَاقَ وَجَمِيعَ النَّاسِ وَأَسْرَهُ إِلَى خَلِيلٍ لَهُ، فَقَالَ الْعَازِرُ الصِّدِّيقُ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِإِبْرَاهِيمَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَبْتَلِي بِمِثْلِ هَذَا مِثْلَكَ، وَلَكِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُجْرِبَكَ وَيَخْتَبِرَكَ فَلَا تَسُوءَنَّ بِاللَّهِ ظَنُّكَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَجْعَلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ

⁷⁷⁶ المستدرک علی الصحیحین للحاکم، 2، ص 609.

إِلَّا بِاللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، فَذَكَرَ وَهَبٌ حَدِيثًا طَوِيلًا إِلَى أَنْ قَالَ وَهَبٌ:
وَبَلَّغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (سَبَقَ إِسْحَاقُ النَّاسَ
إِلَى دَعْوَةِ مَا سَبَقَهَا إِلَيْهِ أَحَدٌ، وَيُقَوْمَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلْيَشْفَعَنَّ لِأَهْلِ هَذِهِ
الدَّعْوَةِ، وَأَقْبَلَ اللَّهُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ فَقَالَ: اسْمِعْ مِنِّي يَا
إِبْرَاهِيمُ، يَا أَصْدَقَ الصَّادِقِينَ، وَقَالَ لِإِسْحَاقَ: اسْمِعْ مِنِّي يَا أَصْبَرَ
الصَّابِرِينَ، فَإِنِّي قَدْ ابْتَلَيْتُكُمَا الْيَوْمَ بِبَلَاءٍ عَظِيمٍ لَمْ ابْتَلِ بِهِ أَحَدًا مِنْ
خَلْقِي؛ ابْتَلَيْتُكَ يَا إِبْرَاهِيمُ بِالْحَرِيقِ، فَصَبَرْتَ صَبْرًا لَمْ يَصْبِرْ مِثْلَهُ أَحَدٌ مِنْ
الْعَالَمِينَ، وَابْتَلَيْتُكَ بِالْجِهَادِ فِيَّ وَأَنْتَ وَحِيدٌ وَضَعِيفٌ، فَصَدَقْتَ وَصَبَرْتَ
صَبْرًا وَصِدْقًا لَمْ يُصَدِّقْ مِثْلَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَابْتَلَيْتُكَ يَا إِسْحَاقَ
بِالدَّبْحِ، فَلَمْ تَبْخَلْ بِنَفْسِكَ وَلَمْ تُعْظِمْ ذَلِكَ فِي طَاعَةِ أَبِيكَ، وَرَأَيْتَ ذَلِكَ
هَنِيئًا صَغِيرًا فِي اللَّهِ كَمَا يَرْجُو مِنْ أَحْسَنِ ثَوَابِهِ وَيَسَّرَ بِهِ حُسْنَ لِقَائِهِ،
وَإِنِّي أُعَاهِدُكُمَا الْيَوْمَ عَهْدًا لَا أَحْسِنَنَّ بِهِ: أَمَّا أَنْتَ يَا إِبْرَاهِيمُ، فَقَدْ
وَجَبْتَ لَكَ الْجَنَّةَ عَلَيَّ، فَأَنْتَ خَلِيلِي مِنْ بَيْنِ أَهْلِ الْأَرْضِ دُونَ رِجَالِ
الْعَالَمِينَ، وَهِيَ فَضِيلَةٌ لَمْ يَنْلَهَا أَحَدٌ قَبْلَكَ، وَلَا أَحَدٌ بَعْدَكَ فَحَرَّ إِبْرَاهِيمُ
سَاجِدًا تَعْظِيمًا لِمَا سَمِعَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ مُتَشَكِّرًا لِلَّهِ.

وَأَمَّا أَنْتَ يَا إِسْحَاقَ فَتَمَنَّ عَلَيَّ بِمَا شِئْتَ وَسَلَّيَ وَاحْتَكِمْ أُوتِكَ
سُؤْلَكَ، قَالَ: أَسْأَلُكَ يَا إِلَهِي أَنْ تَصْطَفِيَنِي لِنَفْسِكَ، وَأَنْ تُشَفِّعَنِي فِي
عِبَادِكَ الْمُؤَحِّدِينَ فَلَا يَلْقَاكَ عَبْدٌ لَا يُشْرِكُ بِكَ شَيْئًا إِلَّا أَجْرْتَهُ مِنَ النَّارِ
قَالَ لَهُ رَبُّهُ: أَوْجَبْتُ لَكَ مَا سَأَلْتَ، وَضَمِنْتُ لَكَ وَلَا يَتَكَ مَا وَعَدْتُكُمَا
عَلَى نَفْسِي وَعَدًّا لَا أُخْلِفُهُ، وَعَهْدًا لَا أَحْسِنَنَّ بِهِ، وَعَطَاءً هَنِيئًا لَيْسَ
بِمَرْدُودٍ"777.

⁷⁷⁷ المستدرك على الصحيحين للحاكم، 2، ص 610.

ولأنَّ الاختلاف أساس الخلق نوعا وقدرة، كان الاختلاف بين النَّاس حتى أصبحوا أممًا، { وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } 778.

ولأنَّ للاختلاف نوعان (خَلْقِي ومعرفي) وجب التقبُّل والتقدير والتفهِّم إن أردنا توافقا من أجل المشترك والمأمول.

أما الخلاف؛ فمكتسب، ولا يكون إلا على موضوع، { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ } 779.

ولا يمكن أن يصبح الخلاف بين النَّاس سائدا إلا إذا رأي كل طرف أنه صاحب الحق، وغيره لا حق له. ومن هنا، تؤخذ المواقف، وتتأزم الأحوال بين الأطراف؛ فتقود إلى المواجهة. ولأنَّها المواجهة؛ فستكون في جلَّها بين متمسك بحق، وبين معتدٍ عليه، وبذلك تُرفع الأصوات على الأصوات؛ ممَّا يدفع الأطراف إلى ما هو أسوأ.

فمفهوم الخلاف جاء على مضمون من خالف وعده ووعده، أمَّا مفهوم الاختلاف؛ فجاء على مضمون من اختلف عن أقرانه، ومن هنا، يصبح معنى كلمة (أختلف) غير معنى كلمة (أخالف)؛ فالأولى، كمن يقول لك: اختلف معك في الرَّأي، وهذه تؤدِّي إلى وجوب المناقشة، والحوار، أو الجدل حتى الاقتناع المشترك، والثانية: كمن يقول لك: أخالفك عليه، وهذه تؤدِّي إلى الخلاف، والخصام، والنزاع.

778 يونس 19.

779 البقرة 213.

ولهذا، يكون معنى (الاختلاف في) غير معنى (الخلاف على)؛
فالاختلاف (في الشيء) لا يكون إلا بين المشتركين. أمّا الخلاف (على
الشيء)؛ فيدل على وجود الرّفْض، والرّفْض المضاد (المواجهة).

يظهر الخلاف بين النَّاس عندما لا يكون للاتفاق مكانة بينهم، حيث
لا يمكن أن يستوي من ثقلت موازينه مع الذي موازينه قد خفّت،
مصدقا لقوله تعالى: { فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا
مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ نَارٌ حَامِيَةٌ } 780، وقوله
تعالى: { وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظُّلُّ وَلَا
الْحُرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ } 781.

وهنا؛ فالخلاف على مجموعة من المعاني والدلالات المتقابلات
المتعاندات؛ فهذه، أعني (أي هذه) لا يمكن أن تكون تلك، وهي لن
تصبح كذلك؛ فلا يمكن أن تستوي الظلمات ولا النور، ولا يمكن أن
يستوي الظلُّ ولا الحُرور؛ فمن يتبع ما يؤدّي إلى هذه، لا بدّ وأن يكون
مخالفا إلى ما يؤدّي إلى تلك.

فالخلاف جاء من المخالفة، وليس من الاختلاف، أي: خالف يخالف
مخالفة؛ وليس بمعنى: اختلف يختلف اختلافا؛ ففي الأولى تباين وتباعد
وتعاند وتقابل وتضاد، وفي الثانية: اختلاف ومساندة وتتممة؛ فمن أكل
حراما غير الذي أكل حلالا، ومن تأخّر غير الذي تقدّم، ومن أخطأ
غير الذي أصاب، والذي يعقل ويتبيّن غير الذي لا يعقل ولا يتبيّن،
والذي يحكم بين النَّاس ويعدل غير الذي يحكم بينهم ويظلم.

⁷⁸⁰ القارعة 6 . 11.

⁷⁸¹ فاطر 19 . 22.

الاختلاف لا تضاد فيه، بل هو الاعتراف بالخصوصية، فاللون الأسود لا يكون ضدّ اللون الأبيض، بل هو المغاير له، ممّا جعل الجمال في كليهما، وهكذا الاختلاف بين الألوان لا يزيد الحياة إلّا جمالا، فمع أنّ الوردة الواحدة جميلة، فإنّ باقة الورد متعدّدة الألوان أكثر جمالا.

فالإنسان كونه خُلق على حُسن التقويم؛ فهو بدون شكّ إنسان واحد، ولكن لم يكن نوعا واحدا كونه (ذكرا وأنثى)، ولم تكن قدرات الإنسان وظروفه ومعارفه واحدة، مصداقا لقوله تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} 782، وقال تعالى: {هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} 783. هنا تكمن علل الاختلاف ولا تكمن علّة واحدة للخلاف.

ومع أنّ الاختلاف تنوّع في اللون، والشكل، والرأي، والرؤية، والصوت، والمقياس، لكن التشابه لا ينقطع بين المختلفين، ومع ذلك فالاختلاف في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع يؤدّي إلى الخلاف (التضاد والمواجهة) مصداقا لقوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} 784. أي: من بعد الرّسل لو شاء الله، الناس ما اقتتلوا، ولكن لأنهم اختلفوا على ما جاءت به الرّسل فمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ؛ فاقتتلوا، أي: لو اقتصر اختلافهم (في الدّين) وليس (على الدّين) لما اقتتلوا، ولكن لأنّ

782 النحل 76.

783 الزمر 9.

784 البقرة 253.

اختلافهم امتدّ إلى الخلاف على الدين؛ فمن هنا، وجب الاقتتال كونه اقتتال بين معتدٍ على الدين وبين مؤمنٍ به.

قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} 785. مع أننا قد ميّزنا بين مفهومي: (الاختلاف في) و(الخلاف على) إلا أنّ الاختلاف في الحقّ إن لم يؤدّي إلى الاقتناع الممكّن من التصويب والتصحيح؛ فلا بدّ وأن يؤدّي إلى الخلاف.

فقوله تعالى: (وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)، أي: إنّ الاختلاف في الكتاب يجعل المختلفين في شقاق؛ فكلمًا اختلفوا فيه على ما أنزل فيه من آيات معجزات، سيكون المختلفون فيه بلا شكّ في شقاق (في خلاف) ذلك لأنّ الاختلاف فيه (في الكتاب) يؤدّي إلى الخلاف عليه (على الحقّ المنزّل).

الاختلاف حجة لإظهار الحجّة:

الاختلاف حجة بها تتعدّد الضمائر؛ فأنا لم أكن أنت، وأنت لم تكن هو، وهم لم يكونوا أولئك، ومن ثمّ فالقوي لم يكن الضعيف، والمعتدي لم يكن المعتدى عليه، والعالم غير الجاهل، والغني غير الفقير، قال تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} 786، وقال تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} 787. وقال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ

⁷⁸⁵ البقرة 176.

⁷⁸⁶ النحل 76.

⁷⁸⁷ الزمر 9.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ
لِّلْعَالَمِينَ {788}.

إذن، حجّة الاختلاف هي الدامغة للباطل، وهي التي تقود النَّاسَ إلى ما يجب أن يكونوا عليه، وبخاصّة عندما تُجيب على تساؤلاتهم، وتُسهم في إشباع حاجاتهم المتطوّرة، سواء أكانت حجّة رسالة، أم نبأ، أم أنّها حجّة فكرية، أم علمية، أم أخلاقية، أم سياسية، ولذلك، النَّاسُ دائماً يلتفتون حول من يتزعم أمورهم بالحجّة، ولكن بعد أن يتعرّفوا على مقدرته، وعظمة رسالته، أو حجّته، وسلامة أسلوبه، وسداد رأيه، ومدى تطابق ما يقال مع ما يُفعل. وهكذا؛ فالحكم المرضي لا يسود إلاّ بالحجّة التي تعيد الحقّ لأصحابه كلّما ظلّموا، والحكم إنّ فقد حجّته فقد شرعيّته، وإنّ فقد شرعيّته وجب التغيير.

إذن، من قوّة الرّسالة والنبأ، ومن قوّة الفعل والعمل المؤسّس على الحجّة يستمدّ أصحاب الزعامات زعاماتهم، ممّا يجعل زعاماتهم من بعدهم زعامات حجّة باقية.

فالشريعة، والدستور، والقانون (حُجج)، وهي القوّة الفاصلة أمام القضاء العادل، وعليها تستند البرهنة، ومنها المقارعة تستمدّ قوّتها الممكنة من المغالبة؛ ممّا يجعل الحجّة قوّة في الإثبات، أو الدحض والنفي، وبذلك تصبح المقارعة كلامية (حجّة بحجّة) وقد تكون (قوّة بقوّة) مع تعدّد الأساليب والوسائل الممكنة، والممكنة من المغالبة.

فالحجّة تُمكن الإنسان من التمييز بين الحقّ والباطل (رفض أو قبول)؛ فالذي يميّز يعرف ويُقدّر الأشياء وفقاً لمعطياتها ومبرراتها المعرفية، والذي لا يميّز بين هذا وذاك؛ فلن يعرف، ذلك لأنّ الشخصية التي تمتلك ملكة

التمييز لا تقتصر في تمييزها على الأدلة والشواهد المحسوسة فقط، بل تتعداها إلى معرفة كشف العلاقات المجردة التي تجعلها تدرك ما يجب إدراكه حسنا وتجريدا، حتى تصبح على التوازن المحقق للتكيف والتوافق.

فالقبول، أو الرّفص، أو المواجهة، أو الثورة، لا تكون (هي كما هي عليه) إلا من أجل بلوغ حلّ منطقيّ، ولأنّه الحلّ؛ فهو لا يكون إلاّ حجّة صانعة للمستقبل، ولأنّه حجّة؛ فالأخذ به يحقّق الرضا الممكن من نيل الاعتراف والتقدير.

فالحجّة بيّنة لا لبس ولا غموض، ولهذا، كانت الرُّسل حجّة من الله للعباد، { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا وَرَسَلْنَا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسَلْنَا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رَسَلْنَا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِقَلَّ يُكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حِجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا } 789.

بعث الله تعالى الرُّسل حُججا على أقوامهم حتى لا يكون للناس على الله حجّة، أي: بعد أن أرسل الله رُسله عليهم الصلّاة والسّلام؛ فلم يعدّ للناس حجّة (معدرة) بأن لا يؤمنوا؛ فلو لم يرسل الله الرُّسل، لكان للناس ما يقولون، ولكنّه تعالى بعث إليهم رُسلا كراما، وبين أيديهم الحُجج العظيمة الدّالة على وحدانيته تعالى، وصفاته الحسنى، كما أنّها جامعة للفضائل التي تستمدّ منها مكارم الأخلاق؛ ومن هنا؛ فلم لا يؤمنون؟

ولأنّ البعض لم يؤمن؛ فلا بدّ أن يترتب على هذا العصيان العقاب الشديد للذين يكفرون بالله ويشركون، وليس لهم بد إلا اختيار أحد أمرين:

. الإيمان بالرُّسل واتباع ما يهدوا إليه؛ فيكونوا من الوارثين في الدارين، ويكون لهم الجزاء الأوفى مغفرة، وتوبة، وفوزا بالجنّة.

. أمّا الكفر والعصيان والشرك بالله تعالى؛ فيكونوا من الخاسرين في الدارين، ويكون لهم العذاب الشديد الذي به سيكونون في جهنّم.

ولهذا؛ لا إكراه في الدين، بل الدّين الحجّة التي تحمّل الحقيقة، التي لها مصدّقون قادرون على دحض الباطل، والتمكّن من بلوغ الأحكام العادلة، بعد كشف الزيف عنها، وإثبات الحقّ فيها، والتحاوّر المنصف بها، والعمل مع المختلفين دون تحيُّز.

ولذا، لا ينبغي أن يقتصر الحوار والنقاش والجدل بين المختلفين على العناد نتيجة أفكار أو أحكام مسبقة؛ فإنّ اعتمد ذلك على العناد، لا يمكن أن تؤدّي النتائج المتوصّلة إليها إلى بلوغ الحلّ. ممّا يجعل الحجّة ضعيفة كونها أخذت عن عناد، ولهذا؛ فالحجّة التي تُطرح للنقاش والجدل دون تعصّب، لا تشكل عبئا على المدافعين عنها من خلال تقديمهم البراهين التي تؤيدها، مع تقبّلهم للآراء التي تعارض تأييدها.

فالمحاجة بين الأطراف المتجادلة، أو المتحاورة، أو المتفاوضة، قد تؤدّي إلى انسحاب ضعيف الحجّة من ميادين النقاش، وقد تؤدّي إلى انسحاب قوي الحجّة أيضا، وذلك نتيجة لتحامل أحد الأطراف عليها، أو على أصحابها، ممّا يجعل التفاوض، أو النقاش والمجادلة في حالة خروج عمّا هو صواب، وهذا يؤدّي إلى انسحاب أحد الأطراف، وقد يكون المنسحب هو صاحب الحجّة الصادقة، وإذا ما حدث هذا الأمر

(انسحاب صاحب الحجّة الصادقة) قد يتمكن ضعيف الحجّة، أو صاحب الحجّة الباطلة من أن يستمرّ في عرض حُججه الواهية على من تبقى من الذين لا حُجج ولا دراية لهم، أو الذين تمّ استغفالهم بغير حقّ، ولهذا ينبغي أن يكون الحوار والجدال بين الناس بالتي هي أحسن، وأن لا تكون فيه سيادة إلاّ للحجّة بالمصادق.

ولأنّ الاختلاف حجّة وسنة من سنن الله في خلقه، قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} 790.

ولأنّ الاختلاف حجّة، جاء الاختلاف آية من آيات الله تعالى، ذلك لأنّ الآيات الكريمة حقّ، والحجّة حقّ بما تمثل الأشياء بين المختلفين (هي كما هي)، ولذلك؛ فالأرض حجّة ظاهرة ولا تُخفى، حالها كحال اختلاف الليل والنهار حجّة، وحال الفلك التي تجري في البحر حجّة، وما يُنزله من السماء غيث حجّة، به تُحي الأرض بعد موتها، وهكذا، بثه للدواب في الأرض حجّة، وتصريفه للرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض حجّة، ولذا، لا داعي لإنكار الحجّة، إنّها الحاسمة للأمر المختلف فيه. قال تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ وَأَلْقَى السَّحْرَ سَاجِدِينَ} 791.

إنّما الحجّة البيّنة، ولأنّها الحجّة البيّنة؛ فهي الفاصلة بين المختلفين في الحقّ والباطل، والفاصلة بين المختلفين في ما هو دقيق وما هو أدق منه،

790 - البقرة 164.

791 - الأعراف 117 . 120.

مما يجعل المتحاورين والمتجادلين والمتفاوضين متبیین للحقیقة هي كما هي دون أن تعلق بها شائبة، ومن تمّ يستطيعون الاختيار دون إكراه.

وبتوافر الحجّة، ينفكّ الخصام والشّجار، وينتهي الخلاف بين النّاس إذا تأسّس الحوار والنقاش والجدل بينهم على الموضوعية العلمية، التي تُظهر الحقیقة من مكامن اختفائها، كما ظهرت أمام السحرة الذين خرّوا ساجدين، {قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} 792. ومن هنا، كان الحقّ لموسى حجّة به دُمغ فرعون وزُهِق الباطل.

وهكذا ستظلّ الحجّة حاسمة للأمر المختلف فيه بين النّاس، ومن يحتكم بالحجّة قد احتكم بالحقّ عدلاً. ومن هنا؛ فالاختلاف كما يقول غاندي: (الاختلاف في الرّأي ينبغي ألاّ يؤدّي إلى العدا، وإلّا لكنت أنا وزوجتي من يلدا الأعداء).

مؤشّرات الاختلاف (أنا، أنت، نحن):

هذه ضمائر تستند إلى منطق تحديد الهوية، فأنا تشير إليّ، وأنت تشير إليك، ونحن تحتويننا، وهم غيرنا.

في منطق الحوار (أنا) و(أنت)، طرفان مختلفان؛ فأنا لم أكن أنت، ولن، وأنت كذلك لم ولن تكن أنا؛ فأنت بالنسبة لي تعدّ الآخر فرداً، أو تنظيمًا، أو دولة، أو أيّ طرف من أطراف الاختلاف، وهكذا تكون أنا هي الآخر بالنسبة لأنّ.

ولذا؛ فمن مستهدفات منطق الحوار، أن يسود بين المتحاورين منطق (نحن)، بدلا من منطق (أنا أو أنت)؛ فمنطق نحن منطق استيعابي لا

⁷⁹² الأعراف 121، 122.

يستثني أحد من المتحاورين، أو الملتقين المختلفين، أمّا منطلق (أنا) أو (أنت)؛ فهو منطلق تفرّيقى.

وعليه، ينبغي أن نحدّد من أنا؟ ومن أنت؟ ومن نحن؟ فأنا هو الذي له حقوق وواجبات ومسؤوليات، كما هي التي لك بالتمام؛ فإذا ساد هذا المنطق، يصبح الجميع متساوين حقوقاً وواجبات ومسؤوليات، ويصبح لا خلاف مع أنّ الاختلاف بيننا سيظل سائداً، وهكذا دائماً يرى الأنا أنّ له وطن، وديناً، وعرفاً، ولغة، وتقاليد، وخصوصية فردية تختلف عمّا يخصّ الآخر؛ فدين الآخر، ولغته، وتقاليده، وأعرافه، وكلّ ما يجعل له خصوصية حتى وإن كان الآخر من بني الوطن هي خصوصيته التي يجب أن تقدّر؛ فعلى سبيل المثال في ليبيا مع أنّ للعرب والأمازيغ والطوارق والتبو ديناً واحداً هو الإسلام، إلّا أنّهم يتبعون مجموعة من المذاهب المختلفة (المتنوعة) كغيرهم من المسلمين؛ فهم جميعاً لهم عادات وتقاليد واحدة وإن تنوّعت، ولهم لغة واحدة وإن تنوّعت، ومن هنا؛ فاتفقهم على التنوّع يعد اتفاقهم على الوحدة الوطنية، ولكن إن تعصّب أحدهم للغته، أو للمذهب الذي اختاره؛ فلا بدّ وأن يحدث بينهم الخلاف الذي يقود إلى الصدام والفرقة.

ولكن إن ساد بينهم الاعتراف والتقدير لكلّ ما يكون خصوصياتهم، فيسود بينهم التفاهم والتفهم اللذان يمكنناهم من استخدام كلمة (نحن معاً)، وإذا (لم)، ستكون كلمة (لن) هي السائدة بينهم (أنا) أو (أنت).

إذا كان هذا الحال على مستوى أبناء الوطن الواحد؛ فكيف يا ترى سيكون على مستوى أهل الأديان والأوطان؟

أهل الأديان عندما يسود بينهم منطلق (أنا) أو (أنت)، تصبح مسميات الأديان اليهودية والمسيحية والمحمدية (الإسلام)، وعندما

يقبلون بسيادة منطق (نحن) يصبح الجميع إبراهيميين (الإسلام)، أو أصحاب الديانات الإلهية، الذين تختلف دياناتهم عن البوذية، والكنفوشية، والزرادشتية، والهندوسية، ولذا؛ فعندما يقرر أهل الأديان الاعتماد على منطق الحوار؛ فلا بدّ من الجلوس على طاولة حوار واحدة، لأجل كلمة سواء، والكلمة السواء تجعل الصلة بين المتحاورين بدون فوارق، ولا خلاف على كلمة الحق.

وهكذا، شعوب الشرق والغرب والشمال والجنوب، إذا لم تحتويهم كلمة (نحن)، سيظلوا على ما هم عليه بين الضميرين (أنا) أو (أنت) اللذان يفرقان في بعض الأحيان بين المرء وزوجه، وهذا لا يعني أنّ الناس أو المتحاورين سيظلون وكأهم نسخة واحدة؛ ف(أنا) من حيث القدرات والاستعدادات والإمكانات تختلف عن قدرات واستعدادات وإمكانات (أنت)، وهذه تختلف بالتمام مثلما تختلف حاسة السمع والبصر والذوق واللمس والشّم من شخص لآخر، وعليه؛ فبالضرورة نحن أصحاب الحواس في حالة اختلاف قياسي، ولهذا أنا أختلف عن أنت، وأنت تختلف عن أنا، ومع ذلك، نحن نمتلك المقدرات الحسية التي تجعل بيننا مبدأ القبول هو السائد، والعقل هو مصدر الحوار، والمنطق هو الوسيلة المثلى التي نحتكم بها حجّة بحجّة.

ولأننا نمتلك ثروة هائلة من قواعد المنطق، ونمتلك ثروات هائلة من المشاعر والأحاسيس والطموحات والآمال، فلم لا نسخر كلّ ذلك من أجلنا جميعاً؟

ولماذا الفرقة التي تترتب عليها العداءات التي تحول بين التقائنا (أنا وأنت)، لنكتب بالخط العريض كلمة: نحن بنو الوطن الواحد، ونحن الذين تربطنا علاقات مع إخوتنا في الدين خارج الوطن، ونحن أصحاب القضايا المشتركة، والمصالح المشتركة، والمستقبل المشترك؟

وعليه؛ فكلّمتنا (أنا أو أنت)، تسمح بمسافة فراغ تجذب مشاعر الخوف إليهما؛ فكلّما زاد تمسّك وتعصّب الأنا بأناته، كلّما اندفع ال(أنت) لإعادة حساباته، وهذه تزيد الشكوك وتقلل من الثقة التي ينبغي أن تسود بين الطرفين (أنا وأنت)؛ فأنا الفرد ينبغي أن أسود بكرامتي، وأنا الحرّية ينبغي أن أعمّ النَّاس، وأنا الشفافية ينبغي أن أكون السلوك والفعل، وأنا الوطن ينبغي أن أكون ملكا خالصا لأهلي، وأنا الأبوة والأمومة والأخوة والأسرة والجيرة التي لا ينبغي أن يحرم أحد من مشاعري وانتمائي. وهكذا يصبح أنا المنطق الذي يجب أن أسود بينكم إذا أردتم التفاهم والتواصل، أو أردتم الاعتراف والتقدير. وأنا النَّاس كلّ النَّاس الذين لهم حقوق ينبغي أن يمارسوها، ولهم واجبات ينبغي أن يؤدّوها، ولهم مسؤوليات ينبغي أن يحملوها، ويتحمّلوا ما يترتب عليها من أعباء.

ومن تمّ، تصبح كلمة (أنا) كلمة حقّ لا بدّ أن تقال. وفي المقابل تصبح كلمة الباطل التي عليها (أنت) باطل لا بدّ أن يزال، وكلمة (أنت العبد) في خبر كان بأسباب الحرّية والانعقاد، وعندما تكون (أنت) الاستعمار يجب أن تُهزم، وأنت القيد يجب أن تُفك أو تُكسّر، ولذلك؛ فأنت لم تكن أنا؛ ويا ليتك تفهم أننا نحن سوياء بنو وطن واحد، والملك لله الواحد القهار.

وعليه، إن لم يحدث اللقاء والتفاهم المنطقي بين أطراف (أنا) و(أنت) المختلفتين على السّلطة، أو الثروة؛ فلا شكّ ستكون الجهود المبذولة من كلّ طرف على حساب الطرف الآخر، وإذا ما تمّ ذلك؛ فلا تستغرب أن يكون الصّدّام هو سيد الموقف. ولكن إن أردنا الحلّ؛ فعلينا بالجلوس على طاولة (نحن) التي تجمع شتاتنا، وتخلّصنا من الفاقة والحاجة، وتبعد عنا المترّتب على الصّدّام والخصام. وإن لم نفكّر في مستقبلنا جيّدا؛ فلا تستغرب أن يكون في دائرة الممكن غير المتوقّع مؤلما.

ولذلك؛ فالعقل الأوربي والغربي بشكل عام دائما يفكر في يومه، ويسعى لرسم سياسة مستقبليه، أما العقل التامى وبشكل عام في المجتمعات التي كانت تسمى بمجتمعات العالم الثالث أيام الحرب الباردة؛ فهم في معظم الأحيان لا ينظرون إلى المستقبل بنظرة الأمل، بل في معظمهم ينظرون إلى الماضي كمصدر للدفع، وبالتالي يحنون إليه، وكأنه سيأتي إليهم مرة ثانية.

هذه الحال بالنسبة للعقل التامى، كحال العقل الواهن الذي لا يمكن كبار السن من التفكير التطلعي، وبالتالي؛ فهم في بعض الأحيان لا يرون مستقبلا أفضل من الأخذ بالماضي، ومع أنّ في الماضي العبر، لكن اقتصر التفكير عليه وقفل أبوابه لا يؤدي إلا للتخلف، ومن ثمّ، يصبح بعض من كبار السن هم في حالة لكّ للتاريخ الماضي؛ فلا ينسجمون إلا بالحديث عن بطولاتهم إن كانت لهم بطولات، وعن مخاوفهم التي كانت بأسباب خارجة عن الإرادة، وهكذا هي أحوال أهل الجنوب (ما كان يسمى بالعالم الثالث)، أما أحوال أهل الشمال والغرب كحال الشباب، دائما هم في حالة طموح وتحدي لما هو كائن، يعيشون يومهم، ويحلمون بمستقبل أفضل؛ فالحياة عندهم بدون طموح ترافقها المرارة، وبالطموح تزداد حلاوة.

ومع أنّ التقدم المادي بين أهل الشمال وأهل الجنوب، قد ترك بينهم هوة واسعة، لكن الاستقرار والتقدم معا لا يكونان سائدين إلا باستيعاب أهل الشمال لأهل الجنوب، واستيعاب أهل الجنوب لأهل الشمال، وهذه لا تتمّ إلا عن إرادة تجعل من أنا وأنت (نحن معا ونحن سويا). وتصبح اليد العاملة الوفيرة في المجتمعات النامية، هي العنصر الرئيس في إشباع حاجة سوق العمل، ويصبح الإنتاج الوفير نوعا وكما هو المحقق للنقلة المأمولة من قبل الناس.

ولذلك؛ فسيادة منطق (أنا وأنت) حجة من أجل (نحن) يُحَفِّز على التقبّل والاستيعاب، كما أنه يدفع إلى كلّ ما من شأنه أن يشبع الحاجات المتطوّرة والمتنوّعة، وبالتالي يحقّق الاستقرار والعدالة في التوزيع بين الناس شعوبا وأمّما.

وعليه:

فمنطق (إنا وأنت) منطق تنوّع واختلاف هدفه جمع الشّمْل، أمّا منطق (أنا أو أنت)؛ فهو منطق خلاف، وتشتّت، وصدّام، وخصام، ومواجهة، واقتتال بين الناس.

ولأنّ منطق (أنا أو أنت) منطق خلاف وفراق؛ فهو المنطق المبرّر لإنشاء وتكوين أجهزة الأمن السريّ والعلني في كلّ بقاع المعمورة؛ فهذه الأجهزة هي صاحبة فلسفة الشكّ في الجميع إلى أن يثبت الجميع غير ذلك، ولكن إذا أصبح الشكّ هو السائد في (أنا وأنت)؛ ففي من يا ترى ستغرس الثّقة؟ وعندما تصبح مهمة الحكومة وأجهزتها الأمنية هي الشكّ في (أنت)؛ فهل يمكن لنا أن نصف مثل هذه الحكومة بالحكومة العادلة؟

إذن، إن لم تتغيّر في الوطن الواحد لغة (أنا) أو (أنت) وتحلّ مكانها لغة (أنا وأنت) من أجل وطن واحد، وأمن واحد، وحقوق واحدة، وواجبات واحدة، وعدالة واحدة، ومستقبل مشترك، لا يمكن أن يكون الاستقرار، ولا يمكن أن تحدث النّقلة إلى الأفضل والأنفع والأجود والأهم والأفيد للجميع.

يسود الاستقرار والأمن في الدّول التي تولي اهتماما خاصّا بالمواطن من النواحي السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والنفسية، والثقافية، والذوقية، وفي المقابل لا يسود الاستقرار في الدّول التي تركز على الأمن

السري كونه جهازا لمراقبة المواطنين خوفا على الحكومة قمة سلطاتها؛ فهذه الأجهزة في معظم الأحيان هي في دول العالم الثالث لا ترى المواطن إلا (آخرا). وهكذا هو حال بعض الأنظمة التي لا ترى مواطنيها إلا (آخرين)؛ فتسعى باستمرار لتكديس الأسلحة التي لا تُشهر إلا في وجوه المواطنين المطالبين بحاجاتهم المفقودة.

هذه النظرية غير العادلة لا مستقبل لها إلا النهاية، ولذا؛ فالتاريخ دائما يثبت سقوط الأنظمة الفاسدة على أيدي الشعوب التي نظر إليها الدكتاتوريون نظرة إلى آخرين وكأهم لم يكونوا من بني الوطن. ولذلك؛ فلو كانت السياسة، والخطط، والاستراتيجيات، لا ترسم إلا بلغة (نحن معا) و(نحن سويا) ما كانت الفتن ولا الصدمات في الأوطان، وبالتالي لن يعدّ هناك مبررا للثورة، ومن يحاول ذلك سيكون أضحوكة ومحلّ سخرية. ذلك لأنّ الثورة هي دائم لأجل إزاحة المظالم، وعندما تكون ثورة أنا، وأنت، وهم (سويا) لا شكّ أنّها ستمكّن الجميع من ممارسة الحرّية، التي لا تجعل للمظالم مكانا بين الناس لتستقر فيه.

ولأنّ لكلّ ثورة غاية؛ فالثورة لا شكّ أنّها ستختفي ببلوغ أصحابها تلك الغاية التي تفجّرت من أجلها، ولكن إن ظن أحد أنّ الثورة ستظل مستمرة، فعليه أن يعيد حساباته بإعادة قراءة التاريخ. وحينها سيكتشف البعض أنّهم غافلون باعتقادهم أنّ الثورة عمل دائم؛ فالثورة عندما تكون عملا دائما تصبح وظيفة، وعندما تكون وظيفة تفقد محتواها ومضمونها، وعندما تفقد محتواها ومضمونها، ستواجهها ثورة في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع؛ فتجتثها من جذورها.

ختان إسحاق:

عَنْ مُوسَى بْنِ عَلِيٍّ، قَالَ : سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ : " إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ أَمَرَ أَنْ يَخْتَنَ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِينَ سَنَةً، فَعَجَلَ فَاخْتَنَ بِقُدُومٍ؛ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْوَجَعُ؛ فَدَعَا رَبَّهُ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : إِنَّكَ عَجَلْتَ قَبْلَ أَنْ تُأْمَرَكَ بِالْأَلَةِ، قَالَ: يَا رَبِّ كَرِهْتُ أَنْ أُؤَخَّرَ أَمْرُكَ، قَالَ: وَخَتَنَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثِ عَشْرَةَ سَنَةً، وَخَتَنَ إِسْحَاقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ ابْنُ سَبْعَةِ أَيَّامٍ "793.

معرفة ملك الموت:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَبَاحٍ، أَنَّ كَعْبًا رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ: " إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى دَخَلَ بَيْتَ عِبَادَتِهِ الَّذِي كَانَ يَتَعَبَّدُ فِيهِ، فَرَأَى فِيهِ رَجُلًا فَقَالَ: مَا أَذْخَلَكَ هَاهُنَا؟ بِإِذْنِ مَنْ دَخَلْتَ؟

قَالَ: بِإِذْنِ رَبِّي.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ.

قَالَ: فَمَنْ أَنْتَ؟

قَالَ: أَنَا مَلِكُ الْمَوْتِ.

فَقَالَ لَهُ: كَذَبْتَ؛ إِنَّ مَلِكَ الْمَوْتِ لَهُ عِلْمَةٌ يُعْرِفُ بِهَا.

قَالَ: فَحَوَّلَ مَلِكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجْهَهُ وَقَلْبَ قَفَاهُ، فَإِذَا عَيْنَاهُ فِي قَفَاهُ تَزْهُوَانِ فَكَلَحَ فِي وَجْهِهِ، فَخَرَّ إِبْرَاهِيمُ مَعْشِيًّا عَلَيْهِ؛ فَلَمَّا ذَهَبَ مَلِكُ الْمَوْتِ أَفَاقَ.

⁷⁹³ السنن الكبرى للبيهقي، 8، ص 565.

ثُمَّ عَرَضَ لَهُ يَوْمًا آخَرَ فِي هَيْئَةِ رَجُلٍ ضَعِيفٍ؛ فَجَعَلَ يَمْتَشِي مَعَهُ، وَهُوَ
أَخَذَ بِيَدِهِ؛ فَدَعَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الدَّعْوَةَ لِأَهْلِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ،
فَلَمَّا دَخَلَ الدَّارَ وَفِي الدَّارِ سَارَةُ عَلَيْهَا السَّلَامُ وَإِسْحَاقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛
فَلَمَّا رَأَاهُ إِسْحَاقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَرَفَ أَنَّهُ مَلِكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ
قَامَ مَلِكُ الْمَوْتِ فَبَكَى إِسْحَاقُ وَسَارَةُ، ثُمَّ بَكَى إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ بَكَى مَلِكُ
الْمَوْتِ فَذَهَبَ، فَأَقْبَلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَى إِسْحَاقَ وَسَارَةَ، فَقَالَ: بَكَيْتُمَا حَتَّى
بَكَى الضَّيْفُ وَبَكَيْتُ وَذَهَبَ.

قَالَ إِسْحَاقُ: يَا أَبَتِ، لَيْسَ بِضَيْفٍ، وَلَكِنَّهُ مَلِكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ،
وَلَوْ عَلِمْتُ أَنَّهُ يُرِيدُنِي أَوْ يُرِيدُ أُمَّي مَا بَكَيْتُ، وَلَكِنِّي ظَنَنْتُ أَنَّ يُرِيدُكَ!
فَعَرَجَ مَلِكُ الْمَوْتِ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ جِئْتُكَ مِنْ عِنْدِ عَبْدٍ
لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ بَعْدَهُ خَيْرٌ؛ لَقَدْ دَعَا بِدَعْوَةِ لِأَهْلِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ!
فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَعْلَمُ بِعَبْدِي، أَذْهَبَ فَأَقْبِضَ رُوحَهُ.

فَنَزَلَ فِي هَيْئَةِ شَيْخٍ كَبِيرٍ؛ فَدَخَلَ حَائِطًا فِيهِ عِنَبٌ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ عِنَبًا
وَمَاءَ الْعِنَبِ يَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ؛ فَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ؛ فَقَالَ: يَا عَبْدَ
اللَّهِ، كَمْ أَتَى عَلَيْكَ؟ فَذَكَرَ مِثْلَ سَنِّ إِبْرَاهِيمَ؛ فَاشْتَهَى إِبْرَاهِيمُ الْمَوْتِ؛
فَشَمَّهُ شَمَّةً فَقَبِضَ رُوحَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"794.

وعليه فإسحاق عليه السلام قد عرف من المرّة الأولى أنّ ملك الموت
قد أتى ليقبض روح أبيه إبراهيم عليهما الصلّاة والسلام، وهو متيقن أنّ
الوقت قد حان؛ ليكون الفراق النهائي مع أبيه وهو لا يقدر على اعاقته
أو إيقافه؛ أي يعلم أنّ أمر الله نافذ، ومع أنّه مؤمن، ولكنّه بكى؛ ذلك
لأنّ فراق الآباء ليس بالهين. وبخاصّة أنّ القابض جاء بأمر القابض؛ وهنا
فالقابض القبض: فعل يستوجب قوة. ولا يتم إلا بطرفين غير متساويين،

794 العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني، 3، ص 911 - 913.

قوي وضعيف، غني وفقير، خائف ومخيف، محتاج ومحتاج إليه، مهيمن ومهيمن عليه، مسيطر ومسيطر عليه، ولذا فالقبض فعل يترتب عليه الأخذ والاستسلام مع القبول بالاشتراطات، وقد يترتب على فعل القبض الندم والاستغفار، وفي بعض الأحيان لا يتم ذلك بيسر، وقد لا يتم إلا للقباض المطلق الذي يمتلك فعل الأمر (كن فيكون كل شيء كما يُراد له أن يكون).

القبض في لسان العرب: "يطلق على التقدير والتضييق، وعلى الجمع كما في قبض الله السماء والأرض" 795.

ويقول أبو حامد الغزالي: القباض هو "الذي يقبض الأرواح عن الأشباح عند الممّات، ويقبض الرزق عن الفقراء حتى لا يُبقي طاقة، ويقبض القلوب فيضيقها بما يكشف لها من قلة مبالاته وتعالیه وجماله" 796.

وقال ابن القيم في نونيته:

هو قابض هو باسط هو خافض ... هو رافع بالعدل والميزان 797.

القبض في اللغة كما يقول الدكتور محمد بكر إسماعيل: هو "الإمساك عن الشيء ومن الشيء" 798.

ويقول الإمام مجد الدين ابن الأثير الجزري: "القباض هو الذي يمسك الرزق وغيره من الأشياء عن العباد بلطفه وحكمته ويقبض الأرواح عند الممّات" 799.

⁷⁹⁵ لسان العرب المحيط، الثالث، 11.

⁷⁹⁶ أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. مصدر سابق، ص 62.

⁷⁹⁷ حصة بنت عبد العزيز، مرجع سابق، ص 59.

⁷⁹⁸ محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص 93.

قال تعالى: { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } 800. قال النحاس: (ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) ما عظموه حقَّ عظمته بشركهم معه ما خلق 801. لم يعظموه وهو المهيمن والمسيطر بقدرته على الأرض والسموات السبع وهو على كل شيء قدير. إنه المُنَزَّه عن انعدام القدرة والقوة المطلقة التي بها يوم القيامة يطوي السماوات بيمينه وكأنها شيء صغير، وسيكون المشهد واضحاً أمام الذين آمنوا ولم يشركوا مع الله أحداً.

قال تعالى: { الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيهِمْ } 802. المنافقون والمنافقات حالهم واحد فلا فرق بينهم حيث انعدام الصدق بقولهم، لما لا يفعلون؟ فهم الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، أي يأمرون بما لا يُرضي الله ولا يُرضي المصلحون في الأرض ولا يُقَدِّرون أعرافهم التي ارتضوها بينهم ناموساً أخلاقياً وإنسانياً، وفوق ذلك يملأ أنفسهم الشح فيقبضون أيديهم عن العطاء وأفعال الخير، فهؤلاء ومن هم على مثلهم نسوا ما أمر الله به أن يُفعل فنسيهم الله تعالى من فضله ممّا يجعلهم من المحرومين من مغفرة وجنة عرضها كعرض السماوات والأرض.

القبض فعل مؤقت لا يدوم بالمطلق فإن دام أصبح سكوناً، والسكون ليس بقبض. فمن يقبض عليه العطش، سيكون في حالة ظمأً إلى أن يرتوي بالماء وحينها تزول الشدة التي كانت بآثر العطش، والجوع قبض

⁷⁹⁹ يوسف المرعشلي، والله الأسماء الحسنى، مرجع سابق، ص 127.

⁸⁰⁰ الزمر، 67.

⁸⁰¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الخامس عشر، ص 277.

⁸⁰² التوبة، 67.

على الجائع وبالأكل يُسدّ الرمق ويتحقّق من بعده الإشباع وتزول الكروب التي هي بفعل الجوع، وهكذا المرض قبض لا يدوم بالمطلق أمام قوة الشفاء المندفعة تجاه المريض الذي يعاني من شدة قبضت المرض وآلامه الموجعة. وبالمطلق الحياة والموت بيد القابض المطلق ووجودهما مؤقت، فكما تقبض الموت على الحياة يقبض البعث على الموت ممّا يجعل كل منهما ليس بدائم أمام القابض الدائم ولذا فالقاعدة (وراء كل قابض قابض إلى القابض المطلق).

وبناء على هذه القاعدة، يستمد القابض بالإضافة قوته وقدرته من القابض المطلق حتى تعمه صفة القبض التي تجعله على حالتين من السلوك هما:

. القابض على من هم أقل منه قوة ومقدرة فالإنسان قوته تتمركز على ملكاته واستخداماته العقلية التي تجعله مسيطرا على من لا يفوقه قوة عقلية حتى وإن كانت له قوة بدنية أو قوة سامية أو مؤذية.

. مقبوض عليه من قبل من يفوقه قوة، أي يفوق قوته الفردية بقوة فردية كما هو الحال أثناء المبارزات والألعاب الرياضية، وبالقوة الجمّعة أو المجتمعة كما هو حال تفوق سلطان الدولة وقوتها على قوة الفرد أو الجماعة المحدودة، وكذلك كما هو الحال أثناء الحروب التي تدار رحاها بالقوات المجمعّة ممّا يجعل النصر تحت قبضة القوي والهزيمة تلحق من كان أقل قوة وفطنة، وهكذا لو تدخلت قوات أخرى مجّعة لتسند القوة المنهزمة فتقلب الموازين التي تجعل من القابض بالقوة مقبوض عليها بما يفوقها من القوة.

والقابض: مالك القوة والقدرة المتحكم في الشيء، يفعل ما يُريد متى ما يشاء كيف يشاء، وهو المسيطر الذي لا يفلت من قبضته أحد، ولذلك فوق كل ذي قوة قوي.

والقابض المطلق: هو القوي المطلق، ولذلك لا قابض بمطلق إلا القوي المطلق.

والقابض: الآخذ بعناية مع معرفته للغاية من وراء القبض، قال تعالى: {قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ} 803. ووفقا لقاعدة ما يجب، فمن ينتهي عمره لا بدّ من قبض روحه وأخذها منه أخذًا، وهكذا يصبح الآخذ في مقابل العطاء، أي أن الذي أعطى أخذ، وأنه في الحالتين قادر، في الحالة الأولى: أعطى، وفي الحالة الثانية: أخذ ما أعطى.

وعليه القَبْضُ خِلافُ البَسْطِ، والانتِقِباضُ خِلافُ الانبِساطِ، وفي أسماء الله تعالى القابِضُ هو الذي يُمَسِّكُ الرزق وغيره من الأشياء عن العبادِ بلُطْفِهِ وحِكمته 804، فهو اللطيف الخبير بكل أمر كبيرًا كان أو صغيرًا دقيقًا، وتظهر لقبضه مظاهر منها:

- قبض الله الأرض والسماء: قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ} 805، وقبضه للسموات والأرض بجمعه لهما، قال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ

803 طه، 96.

804 لسان العرب، ج 7، ص 213.

805 الحج 65، 66.

الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ {806،
 فالله خلق السموات والأرضين لحكمة يعلمها ويريد لنا بها خيرا لنكون
 سعداء في الدنيا قبل الآخرة، فسبحانه من ربّ كريم، والله تعالى لم يخلق
 أشياء أخرى بديلة لهذه السموات وهذه الأرض إلا لعلمه بما هو مناسب
 وصالح لنا، وجعلنا نتكيف معه، يستطيع فكيف من لم يتكيف أن ينظر
 في السماء وما حوته من فضاء هائل وكيف يستطيع أن يثبت قدميه فوق
 الأرض وما حوته من مساحات شاسعة، قال تعالى: {وَدَرِ الَّذِينَ اخْتَدُوا
 دِينَهُمْ لَعِبًا وَهَوًّا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ
 لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلٌّ عَدْلًا لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا
 أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا
 يَكْفُرُونَ قُلْ أَنْدَعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا
 بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ
 أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأْمَرْنَا لِنُسَلِّمَ
 لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ وَهُوَ
 الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ
 وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ
 الْحَبِيرُ {807.

- قبضه الشرّ وبسطه للخير: قال تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ
 قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ
 تُرْجَعُونَ {808، وقال تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا
 هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ

806 الزمر 67.

807 الأنعام 70 - 73.

808 البقرة 245.

وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَبِيرُ {809، وقال تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ {810.

- قبضه وبسطه في العلاقات بالكراهة والمحبة: فالخليفة يكره ويجب في الله، أي تكره ما يكرهه الله، ولكن في الحق، لا في الباطل، وتحب ولكن في الحق، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُتِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ {811، سبحانه وتعالى حبيب للمؤمنين الإيمان وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، قال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضَلَّأَ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ

⁸⁰⁹ الأنعام 17، 18.

⁸¹¹ المائدة 54 .57.

أَخْوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} 812، وبذلك يكون على الخليفة العمل على توحيد العباد على محبة ربّ العباد، حتى يتحقق فيهم قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } 813.

- قبض المال وبسطه: قال تعالى: { مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } 814، أي يُضَيِّقُ على قوم، ويُوسِّعُ على قوم، وكل ذلك بعلمه وقدرته، وللخليفة أن يراعي هذا التوزيع في مستخلفيه، فيؤدّي ما فرضه الله عليه من زكاة، وعن قلب طاهر نظيف، ودون رياء أو طمع في عرض من أعراض الدنيا؛ لأنه سبب من أسباب ضياع الأعمال، قال تعالى: { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } 815.

- قبض جناح الطائر قوة: وقبض الطائر جناحه جمعه بقوة ثم فرده، قال تعالى: { أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } 816، وقال الله تعالى: { وَلَقَدْ

812 الحجرات 7. 10.

813 الحجرات 13.

814 البقرة 245.

815 البقرة 262. 264.

816 النحل 79.

كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ {817،
 فقوله تعالى: (أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ) أي: تارة
 يصففن أجنحتهن في الهواء، وتارة تجمع جناحًا وتنشر جناحًا، (مَا
 يُمَسِّكُهُنَّ)، أي: في الجو، (إِلَّا الرَّحْمَنُ) أي: بما سخر لهن من الهواء من
 رحمته ولطفه، وبما مدهن به من قوة (إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ) أي لا يغفل
 فهو لا تأخذه سنة ولا نوم سبحانه ، فالله تعالى هو الذي جعل للطائر
 قوة تحمل جسمه مهما كان جسمه كبيراً أو صغيراً، وجعل له من القوة
 ما يقاوم به الهبوط الذي يعرف الآن بقوة الجاذبية، فجعل له من القوة ما
 يقاوم بها العلو والانخفاض، فسبحانه من خالق قدير، وللخليفة القابض
 أن يستفيد من هذه القوة؛ ليدرسها، ويتعلمها، ويعلمها لغيره، وما ينتج
 عنها من نظريات يستفيد منها الإنسان في مجال الطيران المدني والحربي،
 وبما يخترق به العالم الخارجي، والذي لا يأتي إلا بسلطان العلم والمعرفة،
 قال تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكذِّبَانِ} {818}.

- قبض السمك في الماء: فالله القابض مثلما خلق الكائنات على
 اليابسة، خلق مثلها في البحار والمحيطات من المخلوقات، والناظر لذلك
 بتمعن يرى عجباً، فهذا الجسم الذي خلقه ، وجعله قادراً على تحدي
 قوة الماء، وما به من أمواج عاتية قادرة على إغراق أكبر السفن، فهذه
 المخلوقات قادرة على تحدي الماء ودونما دفع لخارجه، وكيف خلق هذه
 الكائنات وكساها قشورا تساعدها على العوم والانزلاق بين الأمواج،

⁸¹⁷ الملك 18، 19.

⁸¹⁸ الرحمن 33، 34.

وكيف جعل لها من القدرة على صيد فريستها وبكل سهولة، قال تعالى:
{ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ
الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا
وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } 819.

وعليه فالتأخير الذي حدث في حياة إبراهيم جاء مرتين:

الأولى: تأخير الانجاب.

الثانية: تأخير قبض الروح.

وفاة إسحاق:

قيل إنّ نبي الله إسحاق عليه السلام عاش مائة وثمانين سنة ومات في
حبرون وهي قرية في فلسطين وهي مدينة الخليل اليوم حيث كان يسكن
إبراهيم عليه السلام، ودفنه ابنه العيص ويعقوب عليه السلام في المغارة
التي دفن فيها أبوه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام. والحمد لله ربّ
العالمين.

⁸¹⁹ النحل 13، 14.